جامعة قاصدي مرباح – ورقلة –
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الاجتماعية
شعبة: الفلسفة

السنة الجامعية: 2023/2022

رقم التسجيل: .....

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث
في الفلسفة
تخصص: الفلسفة العامة
الموضوع:

الأسـس المعرفيـة للمركزيــة الأمريكيـة المعاصـرة

إعداد الطالب
– ربيع العايب

إشراف:
–د. أحمد زيغمي

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	المؤسسة	الصفة
د. شهيدة لعموري	أستاذ محاضر (أ)	جامعة ورقلة	رئيسا
د. أحمد زيغمي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة ورقلة	مشرفا ومقررا
د. عمر برابح	أستاذ محاضر (أ)	جامعة ورقلة	مناقشا
د. جمال بن سليمان	أستاذ محاضر (أ)	جامعة بسكرة	مناقشا
د. محمد زيان	أستاذ محاضر (أ)	جامعة بسكرة	مناقشا

الشكر والتقدير

- وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب...

الحمد لله الذي وفقنا إلى إتمام هذا العمل ويسر لنا خطى البحث، وهاهو ذا اليوم يرى النور...

- ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله...

أتقدم بأسمى عبارات الشكر والتقدير إلى أستاذي الدكتور أحمد زيغمي الذي تحمل عناء الإشراف على هذا البحث، توجيها ونصحا وتقويما...فبارك الله في علمه واتاه من فضله وجزاه عنا كل خير...

كما لا يفوتني أن أشكر أخي وصديقي الدكتور كريم كربوش (أستاذ بجامعة سطيف) وأن أقدم له أسمى عبارات الامتنان والعرفان على مساعدته ووقوفه بجانبي من أجل إتمام البحث في آجاله...

- شكرا لكل من ساهم في انجاز هذا العمل، من قريب أو بعيد

شكرا أساتذتي الكرام.

ربيع

إهداء

ما أطيب النفوس النبيلة وأطيب ما تكون حين تمنح الحياة وتدفع نحو السمو والارتقاء...إنها عائلتك

عائلتي وطن...وأنا من دونهم في غربة...إليهم جميعا أهدي هذا البحث:

إلى والديّ الكريمين أطال الله في عمرهما وأمدهما بالصحة والعافية...وإلى إخوتي الأعزاء وجميع أبنائهم...

إلى زوجتي الفاضلة التي تحملت معي عناء البحث وصبرت على طول تلك الأوقات التي كنت اقضيها بين الكتب...

إلى ولدي الحبيبين، بتول ومحمد رضا، الصغير لقمان، جعلهم الله ذخرا لوالديهم.

إلى أعز صديق وأخ حبيب، الأستاذ محمد مشاطي (عمي محمد) الذي شجعني على البحث ووقف بجانبي في كل الظروف...

إليكم جميعا أهدي ثمرة هذا البحث العلمي.

ربيع

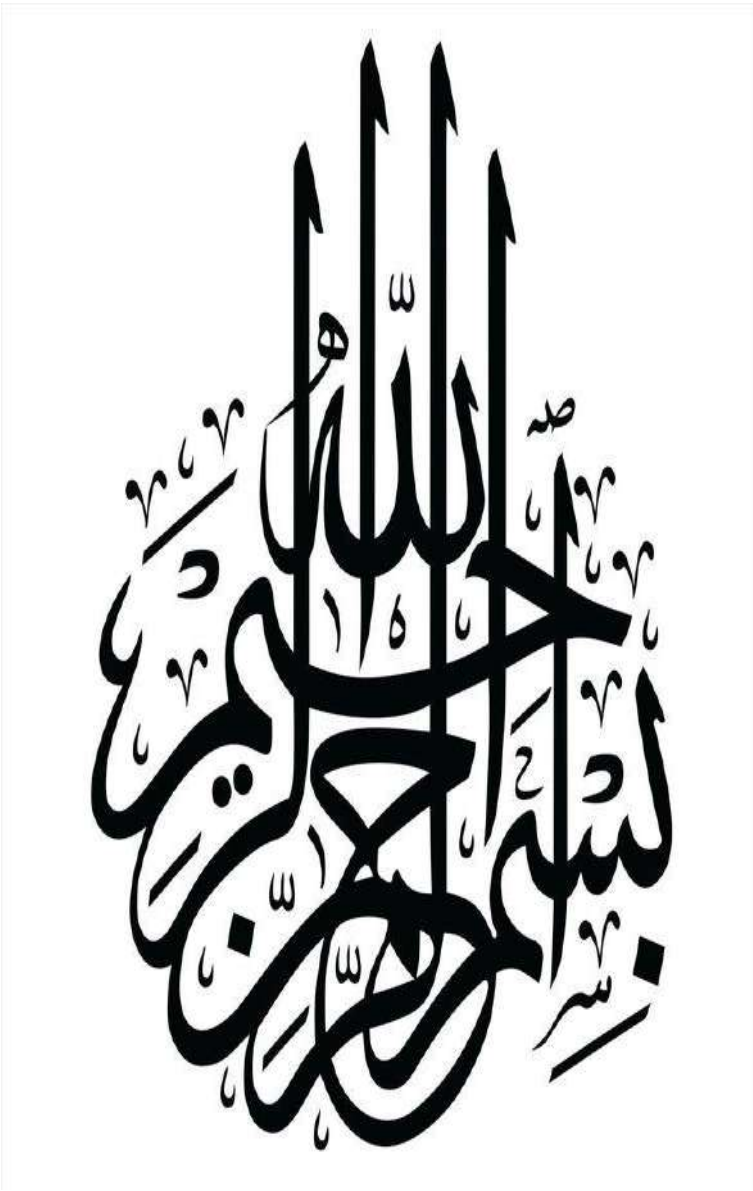
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مقدمة:

اهتم بعض فلاسفة القرن العشرين[1]، بتحليل ونقد النصوص الفلسفية التي ساهمت ثورات هذا القرن العلمية، في سبك مضامينها المعرفية، وصورها المنهجية، وهي نصوص وثيقة الصلة بموضوعات الطبيعة والرياضة، وما أثارته أنظار فلاسفة العلوم فيها، وحولها. وقد عنّ لنا ونحن نراجع طُرفاً من ذلك كله، أنّ **المركز** و**الهامش** من أكثر الاصطلاحات تداولا في الدراسات التي حاولت أن تستوعب المفاعيل الإنسانية والاجتماعية الهائلة لتلك الثورات العلمية على الصعيد الكوني، ما أمكن تصوره هندسيا على شاكلة دائرة لها مركز وحيد ينتج المعارف ويصمم المناهج، ويوظف التقنيات، بينما يتلقى ذلك وتستهلكه أطراف شتى. ولا يستقيم ما لهذين الاصطلاحين من معنى مقصود فلسفيا وحضاريا، إلا بعد أن يتبين ما لكل واحد منهما منطقيا وميتافيزيقيا في الآن نفسه، وها نحن نَشرع في بسط مفهومهما منطقيًا وميتافيزيقيًا استنادا إلى الاتجاه الواقعي لا الاسمي في الفلسفة، وذلك لما سوف نسوغ به هذا الاختيار لاحقا.

في واحدة من فرضيات أفلاطون "التسع في الواحد" الواردة في "محاورة بارمينيدس" تنجلي مقاربة أفلاطون حول معنى الواحد والأول، أو المركز والأساس، ولما كان من سمات الواحد الوجود المنفرد واللّامحدود عديم الشكل الموجود بذاته، وجب أن يكون متحركا. وإن الحركة الدائرية هي من تمنح الواحد دلالته الوجودية والأبدية[2]، إذ تعد الدائرة من أكمل الأشكال الهندسية من منظور أفلاطون. ولأن الواحد لا يسمى واحد إلا إذا تأسس حوله حقل من الحدود والتوابع المتعلقة به، فكان هو مركزا لها، وعليه فالمركز يكون بالضرورة ذا أجزاء ولواحق. أي أن كل مركز سوف يظل بحاجة إلى هوامش حتى يكتمل، ويتحقق ما لوجوده من وظيفة.

ولهذا فقد أُقيم هذين المفهومين مقام حجر الزاوية، يستعان بهما في بناء كثير من الخطابات المعرفية المتجاوزة لخطابات الحداثة، وبالأخص في قضايا فلسفة التاريخ والحضارة، التي يتم البحث فيها عادة عن المحرك الحقيقي

---

[1] من أمثال برتزند راسل(Bertrand Russell1872-1970) وكارل بوبر(Karl Popper 1902-1994) ويورغن هابرماس(Jürgen Habermas1929-) وإريك فروم(Erich Fromm1900-1980) ونعوم تشومسكي(Noam Chomsky1928-) ولوسيان غولدمان(Lucien Goldmann1913- 1970) ومارتن هيدغر(Martin Heidegger1889-1978) وإدغار موران(Edgar Morin1921-)، وروجي غارودي(Roger Garaudy1913-2012).

[2] أفلاطون: محاورة بارمينيدس، تر حبيب الشاروني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2002، ص ص 40-41.

لمختلف مجريات التاريخ الكوني، حتى صار من المتعذر الاستغناء عنهما زوجا اصطلاحيا يستوعب باقي الأزواج الاصطلاحية المتداولة، من مثل الأنا، والآخر. العالم المتقدم، والعالم المتخلف. الشرق، والغرب. الوحدة والتنوع...، ما جعل الاستعانة الدلالية الرائجة بالمفهومين، تدعو بإلحاح الباحث في العلوم الإنسانية الاجتماعية، وبالأخص في مجال الفلسفة المعاصرة، إلى ضرورة الوقوف عندهما دراسة، وتفكيكا، وتمثلا للآثار المنهجية والمعرفية، بل وحتى الإيديولوجية لتوظيفهما في سياق يتسم باتساع نطاق عولمة القيم والمفاهيم والأساليب الأخلاقية والجمالية والتقنية.

إن بلوغ التمثل الواضح لفكرة المركز، بكل ما لها من حمولات معرفية، وحضارية، مشروط بتحقق تمثل واضح وأصيل لمفهوم المركز أولا، بوصفه مفهوما هندسيا في الأساس، قبل أن يصبح حاملا إيديولوجيا لعدد كبير من المقاصد والتصرفات السياسية العالمية، المعبر عنها من لدن كبار الفاعلين العالميين، وخلفية ميتافيزيقية لها. إن كل ذلك لما يضع الباحث في سجال مع ذاته يبلغ حد الحجاج البين ذاتيintersubjective l'argumentation، قبل أن يتمكن من وضع نفسه طرفا محاورا بين أطراف حوار وتواصل فلسفي أولا وحضاري تاليا، قد يحكم عليه من أول وهلة بأنه يمثل الهامش ويستجيب لمظلوميته التاريخية في التنمية والحرية والاستقلال، إن لم نقل أنه يكتفي بإعادة إنتاجهما، وترديد صداهما، وهو ما يلقي بعبء منهجي مضاعف على كاهل كل باحث اختار تفكيك هذين المفهومين، وتوظيف الفكرة القائمة عليهما في بناء فلسفي نقدي معاصر مادته الهيمنة في ركيزتها المفهومية والإيديولوجية، وكذا نتائجها ومفاعيلها الإنسانية والاجتماعية.

وفي الميدان، يعاد بالفعل اليوم تشكيل استراتيجيات أفعال المركز، وتصور ردّات فعل الهامش، تماما كما كان يحصل مع الديناميكية الاستعمارية الهائلة للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر، في صورة دراماتيكية تكشف بعض تفاصيلها التاريخية الموثقة[1]، عن هوة عميقة أخذت في التشكل بين المركز والهامش منذ القرن السادس عشر بوصفها هوة فلسفية أولا، ثم منهجية، ثم تقنية، ثم حضارية وفق ترتيب نحسب أنه مسوغ تاريخيا بوضوح في كتب تاريخ الفلسفة أولا، ثم في كتب تاريخ العلوم ثانيا، وثالثا في كتب تاريخ التقنيات، لتأتي نصوص تاريخ الحضارات معبرا أخيرا، وأمينا عن ذلك كله.

[1]يقول أ.م. بيرو في كتابه: غزو الجزائر (أو حكاية حملة إفريقيا)، ترجمة ليلى بن عرعار، تقديم محمد الأمين بلغيث، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2014.

ما نصه:" أثارت صرخة النصر سرعة في نبضات قلوب جميع الفرنسيين، وانتابهم شعور نبيل أقوى من كره الأحزاب وعنف السياسة، وصارت كل الأنظار مصوبة نحو شعاع النصر الجديد الذي تألق به وطننا الجميل، ذاك العرين المريع، فقد انفتح أمام أبطالنا بعد أن باءت كل محاولات الدول الأشد قوة لاقتحامه بالفشل" ص 13.

إنّ الصراع التقليدي بين المتقابلين غير المتكافئين: (المستعمِر، والمستعمَر. المواطن، والأجنبي. المتحضر والبربري. الزنجي، والأوربي...الخ) يتَقوم على الدوام في العقول والأفهام، قبل أن يتقوم في الممارسات والأساليب وهو بذلك يشير أولا إلى ضرب من أضرب تمثل الذات عليل في حروفه بالأساس، قبل أن يكون عليلا في جمله وفي أوجه تصاريفه المتعددة حضاريا، وقيميا، وقد جعل غوستاف لوبون (Gustave leBon1831 1941) العرق أبا لذلك كله[1]، بما لم يسبقه إليه سوى أكبر عتاة الإيديولوجيين الألمان، ولا غرابة في أن يكون الشرط المادي في عرف الفلسفة المادية هو الشرط المؤسس لبقية النتائج وإن بدت نفسية أو رمزية للملاحظ النزق.

وتلك مسألة تفرض على العقل (عقلنا الجمعي) أن يصرف النظر إلى تجليات هذه الثنائية الاصطلاحية في خطابات المركزية الغربية، قبل أن تتمكن من إعادة إنتاج مكونات تاريخية توافق رؤية الغرب المهيمنة على كل ما سواه، فتبقينا من جديد أسرى معرفيا ومنهجيا لهذه المركزية المتجاوزة لكل مفاهيم العدل والإنصاف، وقبل أن تتمكن مرة أخرى من إقصاء كل ما ليس غربيا، دافعة به كي يضطرب بعيدا عن انتظام فلك التاريخ الكوني، هذا الفلك الذي يسعى الغرب بكل قواه لجعل مركزه فيه أبديا، تجسيدا لكل مقولات نهاية التاريخ، التي تم التعبير عنها بوضوح، ودون أدنى مؤاربة مطلع تسعينات القرن الماضي، متمثلة في خطابات المسؤولين المتعاقبين على إدارة حلف شمال الأطلسي، هناك حيث بلغ تدافع جدلية الشرق والغرب آخر أنفاسه المتعبة[2].

نحاول في هذه الأطروحة جهدنا، النهوض بتحليل عقلاني رصين، يراد منه إعادة استكناه حدود جدلية الشرق والغرب يستشكل وضع هذا الجدل استشكالا يروم فهم مواطن العلَّة فيه، بعيدا عن الانفعالية التقليدية التي تبكي التراث، وتستجدي عدالة سماوية بقلب ميت، وعقل كسول. إننا نريد فهم العلاقة الجدلية بين المركز والهامش انطلاقا من جذورها المفهومية، وصولا إلى مخرجات فِعْلِها الحضاري، الذي يشهد على الدوام نزوعا تقدميا استباقيا كما هو شأن الحداثة دوما، كي نفهم أولا-كما عند هيغل في "موسوعة العلوم الفلسفية"-ونفسر ثانيا-كما عند جيل دولوز في "ماهية الفلسفة"-، ونتصرف ثالثا-كما عند ماركس وانجلز في "الإيديولوجيا الألمانية"-، وفقا للتحليل الشرقي القديم القائل إن تغيير الأسماك في حوض مياه موبوء هو عين الحمق.

---

[1]يقول ما نصه:" والأمم-وهي لا كبير تأثير للعقل فيها-مسيَّرة بأخلاق عرقها...أفيمكن أن ينظم الاسباني والإنجليزية والعربي في زمرة واحدة؟ ألا تبدو الفروق النفسية بينهم لكل ذي عينين؟ ألا تقرأ هذه الفروق في كل صفحة من تاريخهم؟"
غوستاف لوبون، السنن النفسية لتطور الأمم، ترجمة عادل زعيتر، دار هنداوي، القاهرة، ط1، 2014، ص ص 11، 25.

[2]ألم يقل مدير حلف شمال الأطلسي (NATO)حينها (فيفري 1991) أن الحلف بإمكانه أن يسيطر على حركة التاريخ في العالم؟
نقلا عن: سعد الدين الشاذلي، الحرب الصليبية الثامنة، دار الحكمة، الجزائر(ج3) 1993، ص 298.

وإذا كان القدر المحتوم للحضارة بما هي حضارة أن تتسيّد التاريخ الكوني ردحا من الزمن، وهي لن تتمكن من ذلك في ظل وجود جيوب حضارية مناوئة لها ولو في الهامش، وهو ما يعني أن مفهوما المركز والهامش ليسا مفهومين مطلقين، بقدر ما هما مفهومان نسبيان، ومتى تصورنا هندسيا إمكانية إنشاء دائرة جديدة انطلاقا من نقطة ما على الهامش، أمكن لنا تصور كذلك وضعية الحضارة القديمة ومركزها وأطرافها، وكيف يتم استيعابها؟ ومن ثمة كيف يتم التخلص منها في صورة مادة استهلكت كافة إمكاناتها؟

إنّ هذا التصور الهندسي والميتافيزيقي، هو ما يحول دون إنضاج تصور واضح لحوار الحضارات عند أرباب مفهوم المركزية الغربية، بوصفها مركزية عرقية في الأساس، منحت سمات سيكولوجية وعقلية لعرق وحيد من بين كافة أعراق العالم، هو ذات العرق متواصل الحلقات من الإغريق إلى الرومان، ومنهم إلى الجرمان وأخلافهم من الأنجلوسكسون. فهل تصمد فرضية التفوق العرقي التي تم إعلاؤها إلى مستوى التفوق النفسي والعقلي، كي تبرر مركزية حضارية غربية على كل ما سواها؟

وهل يمكن بالمقابل استصغار المركزية القائمة على أساس مادي ولو لم يتبق منها إلا العرق، بعد أن حل محله التفوق التقني والمادي الواضح؟؛ يطرح بعض المفكرين الإسلاميين (السيد قطب مثلا) الإيمان مقابلا لذلك كله، لكن فرضية الإيمان فرضية غير قابلة للتحقق ماديا، وهو ما يجعل تحليل ثنائية المركز والهامش تحليلا محفوفا بمخاطر تعدد البراديغمات التي نستعين بها في استشكال موضوع شائك كهذا، في ظل استحالة توظيف براديغمين مختلفين بل ومتقابلين لتحليل ذات الموضوع، وهو نفسه المزلق الدائم الذي يقع فيه كل حِجاج يستهدف تفكيك حروف هذه الثنائية المفهومية، يماهي ذات المأزق الذي حوّل –في كثير من المناسبات– الحوار شرق غرب، إلى حوار طرشان. وهو عين المأزق الذي نسعى في هذه الأطروحة إلى تلافيه.

إننا نشعر بوجود حركة دفع قوية نحو الصراع بين طرفين، حركة تنزع إلى الهيمنة والسيطرة، كي تتسيد حضارة أمة بعينها عرش الحضارة الكونية المعاصرة على حساب حضارات أمم أخرى، متسامية بثقافتها فوق كل الثقافات، ساعية إلى إبراز وجودها وكيانها في حلقات التاريخ لتخلد أدوارها، وتحافظ على إرثها التسلطي مهيمنا مقابل طمس ميراث غيرها، في إطار مقاربات جدلية بين الأنا والآخر؛ عندئذ تتكشف جدليات الحياة الإنسانية في نموها وسيرورتها، التي من شأنها أن تكشف عن حقيقة التدافع التاريخي والحضاري، لمعركة الإنسان الدائمة في التسيّد والسيطرة الحضارية. لتظل ثنائية المركز والهامش، تكشف جدل الصراع بين القوة والضعف أو بين السلطة والخضوع،

أو بين المنتج والمستهلك. وتتحدد على مقاسها طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر. وعندئذ فإن المعيار الموضوعي لحتمية التحول التاريخي في معادلة صدام المركز والهامش ينصف الأكثر وزنا وثقلا، وينصِّبه مركزا حضاريا تستلهم منه الحضارات الأخرى أسباب الكينونة.

وفي عالمنا المعاصر، لا يساورنا شك بإزاء اتفاق المؤرخين وفلاسفة الحضارة بتربع أمريكا على هرم حضارة القرن العشرين. من حيث هي بنية حضارية لها سماتها الخاصة بها، وبذلك تختلف قيميا عن غيرها من النماذج الحضارية للدول المتقدمة، اعتبارا لتفردها بثراء وتنوع أصولها، وتطورها التاريخي، وفلسفتها الذرائعية المتميزة. ثم إن منطق الخطاب الحضاري لمركزية أميركا لم يكن وليد القرن الأخير، بل هو جزء من التاريخ العالمي الحديث (بعد الحرب العالمية الثانية) إلا أن جذور نزعة الهيمنة الأمريكية أقدم من ذلك بكثير. منذ ذلك الحين كانت هذه المقولة (المركزية الأمريكية) تصنع حضورا في الذاكرة الجماعية الأميركية، وهو ما تجسد في سياساتها واستراتيجياتها في قيادة العالم. فهي استثنائية قبل أن تكون مركزية. ألم يقل جوهانس ثيم (Thimm Johannes)، أن "استثنائية أميركا تتخلل كل فترة من التاريخ الأميركي، وهي العامل الأكثر قوة في سلسلة من الحجج التي دارت حول قرون عديدة فيما يتصل بهوية أميركا والأميركيين"[1]. وكثيراً ما يُعبَّر عن هذا الاختلاف في الدوائر الأمريكية على أنه تفوق قاطع، وعادة ما تُرفق به بعض الأدلة والإثباتات التي تمثل أُسسا فكرية لعقيدة الهيمنة الأمريكية.

وإذا كان جميع الدارسين يدركون أن المركزية الأمريكية قامت على أسس معرفية وفلسفية من قبيل المذهب الذرائعي، الذي انتشر وذاع صيته في أمريكا مع بداية القرن العشرين، وعُدّ بحق أحد أهم العلامات الفلسفية المميزة للمجتمع الأمريكي؛ إلا أن هذا الأساس لم يكن ليشكل القاعدة المركزية الوحيدة لقيام المركز الحضاري الأمريكي، لأن ثمة أسسا أخرى سلكتها المركزية الأمريكية في تنوعها وشموليتها، إذ لم تكن تحظى بمعرفة كلية، بالرغم من شيوع الفكر المركزي الأمريكي في معظم بيئات العالم. فالمركزية الأمريكية المعاصرة تنطوي على أيديولوجية دينية وعرقية وتوجهات اقتصادية تحررية، ساهمت في ميلاد الاستثنائية الأمريكية، كما كان لحضور النزعة الفردية وتأثير فلسفة جون لوك(John Locke1632-1704) الطبيعية دافعا ديناميا آخر يضاف إلى حضور الأفكار الذرائعية التي طبعت إيديولوجية الهيمنة الأمريكية بطابع القوة والاستعلاء؛ والانفراد بالسيادة على العالم؛ فأمريكا بالإضافة إلى قوتها العسكرية والاقتصادية المادية، تنطوي على عوامل فلسفية وعلمية توجتها زعيمة للعالم المعاصر. هاهنا يتحدد مقصدنا

[1]Johannes Thimm : American Exceptionalism (Conceptual Thoughts and Empirical Evidence), Paper for the conference of the junior research group "International Politics" of the DVPW, 13th/14th of July Darmstadt, Stiftung Wissenschaft und Politik, Berlin, p3.

من القراءة التفكيكية والتحليلية، التي ننزع من خلالها إلى تقصي أبرز العوامل والأسباب التي ساهمت في بناء منظومة المرتكزات المعرفية المتممة لفلسفة التعالي الأمريكي.

هكذا فإن فكرة الإيمان بوجوب وجود نظام حضاري مركزي، أصبحت راسخة في أذهان فلاسفة التاريخ والحضارة. وأصبح أي مشروع أو فكر نقدي لنظام التمركز أو المركزية لا يخلو من بديل لنظام آخر متمركز حول ذاته وهويته وأصوله العرقية، سواء كان المركز أمريكا أو أوروبا أو شرق آسيا. من هنا تبرز أهمية موضوعنا هذا في استجلاء أثر الأسس المعرفية، التي شأنها أن تؤسس لمشروع المركزية الحضارية. وتأثيراتها الدينامية على مستويات التنمية والتطور لدى باقي الأمم والشعوب، فيُعد من أبرز المقومات التي تهيمن بها حضارة على حضارة أخرى. لا تقل أهمية عن الأسس المادية الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية، التي عادة ما تحتل محور بحوث علماء السياسة والتاريخ والاقتصاد، وهنا تكمن الأهمية الفلسفية لموضوع بحثنا، إذ ينصب حول الأسس المعرفية والثقافية للمركزية الأمريكية، التي قال بخصوصها صامويل هنتنغتون(Samuel Huntington 1927-2008) أنها تكشف عن معادلة دقيقة بين توزع الثقافات في العالم وتوزع القوة فيه، على عكس التجارة مثلا التي قد تتبع العلم وقد لا تتبعه، ولكن الثقافة تتبع القوة دائما، وعبر التاريخ كان توسع حضارة ما يحدث دائما إبان ازدهار ثقافتها، وكان يتضمن دائما استخدام تلك القوة لنشر قيمها، ومؤسساتها وممارساتها والوصول بها إلى مجتمعات أخرى[1].

تتجلى أهمية موضوعنا كذلك، في تحديد أو استخلاص مقومات التسيد والزعامة الحضارية في الوقت الراهن وتمثل مقومات السيطرة الممكنة في راهن العالم الذين نحن جزء منه، إذ نقبع على تخومه. إنَّ بحث الأسس المعرفية للمركزية الحضارية، يقتضي منّا فهم مضامين السجال الديالكتيكي بين القوي وبين من هم دونه قوة، من جهة ما يمكننا من الاطلاع على أسباب الانهزامية والهامشية لدى تلك الأمم، لأن مسار الهيمنة العالمي تحدده مقومات وشروط موضوعية، ما فتئت تتكرر في كل مرحلة تاريخية، فترفع أُمًا وتضع أخرى. وكون أن الإرث الحضاري الإنساني متداخل ومتشابك فإن التجارب السابقة، لا يجب أن تمر دون تحليل وتمحيص، حتى نستخلص منها الدروس والعبر. لأننا انطلقنا من فرضية مؤداها أن الأسس الفلسفية هي دافع الحضارة الباطني نحو الهيمنة والتسيد.

كما تكمن أهمية الموضوع في التأسيس لفرضية المركزية الحضارية تحليلا ونقدا وفهما لمسارات التحولات العالمية في التأسيس لمقومات التمركز عبر التاريخ، ومن ثمة الكشف عن الأسس المعرفية (الإبستيمية) التي انبثقت عن

[1] صامويل هنتنغتون: صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي)، ترجمة طلعت الشايب، ط2، 1999، ص ص 150-151

تنوع الافتراضات والأطروحات في صلتها بالتراكمات المعرفية إذ تستند إلى إرث الأنوار وثورات العقل في القرن العشرين. إن موضوع المركزية الأمريكية المعاصرة يعد واحدا من موضوعات العقل في الأزمنة المعاصرة حظي بشروحات وإبانات موضوعية هادفة لفلسفة الصراع ومنطق القوة خاصة في مطلع القرن العشرين. لهذا نأمل أن يكون هذا البحث إضافة لتلك الدراسات في العالم العربي حول الآخر، في قراءة نتوخى فيها الموضوعية والدقة أكثر من مجرد تشويه وشيطنة الآخر الذي استغل مقوماته المادية والمعنوية في سبيل قيادة العالم والإمساك بزمام كل القوى الناعمة والصلبة، في عالم لا يتوقف على التحول والتبدل نحو تحقيق مصالح شعوب على حساب أخرى.

أما عن الدوافع والأسباب التي حدت بنا إلى اختيار الموضوع، فيمكن تصنيفها إلى: ذاتية وموضوعية. الذاتية منها تندرج ضمن اهتماماتنا بالمواضيع الفلسفية الراهنة، خاصة الفلسفة السياسية والتطبيقية، والتي لا تنفصل عن التاريخ والهويات الحضارية التي شكلتها شعوب المعمورة. أما بخصوص الدوافع الموضوعية، فإن موضوع المركزية الأمريكية، من المواضيع المقترحة من طرف لجنة التكوين في الدكتوراه وقد حظيت بموافقة المجلس العلمي ضمن محاور مشروع الدكتوراه في ابستمولوجيا العلوم الإنسانية، وهو محور الهيمنة والإقصاء في الفكر الغربي. من الدوافع الموضوعية كذلك أن موضوع المركزية الأمريكية راهني جديد لم يحظى باهتمامات بحثية فلسفية معمقة من قبل الباحثين على مستوى جامعاتنا، خاصة في ظل متغيرات عالمية استثنائية (جائحة كوفيد Covid 19 نموذجا)، وكذا الحرب الروسية الأوكرانية والتنبؤات بانهيار النظام العالمي الحالي وإحلال محله عالم آخر لا نظام فيه، أو صعود مركز جديد لقيادة العالم يُرجح أن يكون للصين. تبعا لهذه الأسباب وجد هذا المشروع البحثي طريقه نحو القبول ومن ثم الإنجاز والتحقيق.

لم نعثر في الدراسات الفلسفية السابقة حول موضوع المركزية الغربية عموما والأمريكية على وجه الخصوص، أو حول علاقة الأنا الغربية بالآخر الشرقي، ما يجلي اهتمام ورغبة الباحثين والمفكرين في الإبانة عن أهمية مثل هذه القضايا، كذا نلحظ شحّ الدراسات النقدية ذات الصلة بالخطابات الابستيمية المتنوعة الموصولة بالموضوع. فمعظم الدراسات البحثية تضمنت خطابات أحادية الجانب تركزت حول طروحات نظرية إيديولوجية، حالت دون التمكين لمقاربات عقلانية موضوعية بإزاء المشكلة، على نحو ما عرض له كل من غارودي Garaudy، تودوروف Tzvetan Todorov، لوبون Lebon...وغيرهم. إذ نجدهم يقومون بانتقاد شتى صنوف التمركز العرقي أو الإثني، والثقافي، والحضاري، لدى دول المركز المهيمنة من جهة، ثم يؤسسون لمركزة ذات أخرى سواء عربية أو شرقية محل الذات الغربية من جهة ثانية. لهذا فإن تلك الدراسات التي تنشد المساواة والتثاقف والعيش المشترك المتساوي والمتعادل في ميزان

القوى، وضمن عالم يغيب فيه التمييز بين المركز/والهامش، نجدها تتوقف في حدود الكتب والأطروحات وتغيب عن واقع سلوكيات شعوبهم.

أما من بين رسائل الدكتوراه السابقة التي تقترب من موضوع بحثنا، نذكر رسالة الباحث "الصادق بخوش" المناقشة بقسم الفلسفة بجامعة وهران في السنة الدراسية 2013-2014، والموسومة بـ "تمظهرات الهيمنة في الفكر الغربي (من عصر الأسطورة إلى عصر العولمة)"، والتي حاول فيها الباحث تهديم وإسقاط فكرة المركزية الغربية من خلال المنجزات الفلسفية لفلاسفة الإسلام كالكندي، والجاحظ وابن رشد. بالإضافة إلى أعمال عديد الكتاب والباحثين من العرب والغربيين، الذين ناقشوا قضية المركزية الغربية ونظرتها الاستعلائية للآخر، نذكر من بينها: كتاب روجي غارودي" أمريكا طليعة الانحطاط: كيف نواجه القرن الحادي والعشرين"، وادوارد سعيد في كتابه "الاستشراق"، وعبد الوهاب المسيري في كتاب "الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان"، ومحمد عابد الجابري في كتابه "المشروع النهضوي العربي...مراجعة نقدية".

وقد كان منطلقنا في إشكالية بحثنا التعرض بالتحليل لمقولة التمركز الحضاري، بمختلف حمولاتها الدلالية وهي إشكالية تتضمن عديد التساؤلات والإشكالات نوجزها في النحو الآتي :هل يمكن تمثل منظومة حضارية أممية لا مركز لها؟ كيف السبيل لفهم مقاربة أسس التمركز الحضاري بأسس التمركز الفيزيائي؟ ما هي أسباب التمركز وشروطه وقوانينه؟ وإذا كانت أمريكا منذ منتصف القرن العشرين قد ظفرت بالتسيد المركزي للثقافة الغربية والعالمية، فما هي الأسس المعرفية للمركزية الأمريكية المعاصرة؟ تتضمن هذه الإشكالية بعض المشكلات المحورية وقد ضمنّا كل منها فصلا نوردها على النحو التالي: ما هو المركز؟ وما هو الهامش؟ وكيف نتمثل العلاقة بينهما؟ كيف السبيل لمقاربة مفهوم المركز في العلوم الطبيعية وفي العلوم الإنسانية؟ أيُّ المقومات تؤهل حضارة بين الحضارات للتسيد والمركزية؟ وما هي خصوصيات المركزيات الحضارية السابقة عن المركزية الأمريكية المعاصرة؟ وأيّ الأسس الفكرية التي جعلت من أمريكا مركزا للعالم المعاصر؟ هل ستظل الهيمنة العالمية الأميركية مسيطرة-في ظل صعود قوى عالمية أخرى تهدد سيادتها دون تحديات في السنوات القادمة-؟ ألا يمكن الحديث عن احتمالات انشطار النواة وتفكك المركز الحضاري العالمي تحت سؤال: ماذا لو انهار المركز؟

وظّفنا للإحاطة بإشكالية الدراسة عدة مناهج تتناسب مع طبيعة الموضوع (المركزية الحضارية الأمريكية)، ولما كان لموضوع المركزية جذوره التاريخية، فإن المنهج التاريخي هو أحد الطرائق الملائمة لدراسة أصول الظاهرة البحثية وتاريخية

المصطلح، من أجل تحديد بداياتها الأولى، لأن معرفة تاريخ الفكرة مهم لفهم وجودها وتشكلها، وكذا التعرف على حاضرها. كذا نتبيّن من خلال الدراسة التاريخية معالم المركزية ومنظوماتها النسقية وتجلياتها خلال أزمنة حضارية متعاقبة.

المنهج المقارن، لا يستقيم بحثنا من دون توظيفه إذ نجلي بواسطته أغلب محطات ومحاور البحث، بدءا بالمقارنة بين المركز والهامش مرورا باستخلاص مواطن الاتفاق بين مختلف المركزيات الفلسفية والطبيعية والسياسية والثقافية والعرقية وغيرها. بالإضافة إلى المقارنة بين مؤشرات القوة المادية (الصناعية والعسكرية والاقتصادية) بين الدول في القرن الحالي، حتى نقف على أثر التفرد بالسبق في ترتيب القوة، على درجة تأثيره في الانفراد بالهيمنة على الأطراف. وكذلك تتضح القيمة الوظيفية للمنهج المقارن من خلال تنظيم وتبويب وترتيب مختلف الأفكار والنظريات بعيدا عن النظرة الأحادية المنغلقة على ذاتها، كما يتيح لنا دراسة أكثر موضوعية تقودنا إلى استنتاجات أكثر عمقا وحيادية.

المنهج التفكيكي، يتضح أسلوب التفكيك في تحليل التصورات الفلسفية بخصوص تشكل نزوع الهيمنة لدى الأنا الغربية المتقدمة، في مقابل تهميش الآخر الشرقي، وكذا تحليل المعطيات الواقعية التي افرزها الفعل الانمائي لدى الولايات المتحدة الأمريكية على جميع الأصعدة، ما رفع من مرتبتها في سلم الأمم المعاصرة من جهة ثانية، بالإضافة إلى الإحاطة المعرفية بتشكل المفاهيم القاعدية للأطروحة، التي من دونها يتعذر علينا الإحاطة بفلسفة المركز (مركز/هامش، متقدم/متخلف، حضاري/همجي، قوة صلبة/قوة ناعمة، كوني/محلي، طبيعي/إنساني).

وقد ارتأينا تقسيم بحثنا إلى أربعة فصول يضم كل فصل مباحث محددة وخلاصة تتضمن نتائج الفصل وما نتج عنه من استفهامات جديدة تكون دافعا إلى البحث والتقصي في الفصل الموالي. في الفصل الأول أوردنا مدخلا مفاهيميا عنوناه بـ: مفهوم المركز ومستوياته. تضمن مبحثين رئيسين حاولنا من خلاله ضبط المفاهيم المحورية في موضوع الأطروحة، وأجبنا فيه عن سؤال ما مفهوم المركز والمركزية وما معنى الهامش؟ كما بحثنا في مضامين العلاقة بين المفهومين، وهي علاقة يميزها التنافر والمفاضلة القيمية بين المستويين الأعلى والأدنى وبين الفاعل والمنفعل. كما تطرقنا في المبحث الثاني إلى مجالات وصور المركزية وحددنا أبعاد المفهوم في العلوم الطبيعية ورصدنا مفهوم التمركز وقوانينه في الفلك والفيزياء وأبرزنا خصائص المركز في العلوم الطبيعية، وبينا دلالة المفهوم بمركزية الأرض ثم مركزية الشمس. أما في الفيزياء فقد بيّنا أن المركز يشير إلى النواة داخل الذرة وما يحيط بها من توابع وشوارد، وربطناها بمفاهيم الثقل والجاذبية والقوة. ثم مفهوم المركزية في حقل الدراسات الانثروبولوجية وتضمن مركزيتين أساسيتين هما المركزية العرقية والمركزية

الثقافية، أما المركزية الاثنية أو Ethnocentrisme فإنها نتاج فكر غربي تهميشي، يجعل من الرجل الأبيض عرقا محوريا بين كافة الأعراق. وميزنا في الثانية بين التمركز الثقافي والعولمة الثقافية. وفي المبحث الثالث تطرقنا إلى صورة المركزية في الفلسفة من خلال مركزية الكوجيتو بين الإنسان والعقل. انطلاقا من النزعة الإنسانية أو الانسانوية التي تجعل من الإنسان مركز المعرفة والقيم والوجودAnthropocentrisme. ثم مركزية العقل Logocentrisme والتي أخذ معناها بعدًا أعمّ، إذ أصبح وصفاً يُستعمل للدلالة على البنية العميقة التي تحكم تمثّل الفكر الغربي لماهيّة اللّغة والخطاب، وهي البنية التي تعتبر في اللّغة أنها الكلام الحي، في حين لا تعدّ الكتابة إلّا تعويضاً عن هذا القول الحيّ.

الفصل الثاني، في "فرضية المركزية الأمريكية المعاصرة"، نبحث فيه عن وجود نمط من النظام الحضاري الذي يضم مركزا وأطرافا، ثم جعل هذه القراءة قاعدة لفهم منطق المركزية الأمريكية المعاصرة. المبحث الأول منه: فرضية المركز الحضارية في مقابل مفاهيم الحضارة والإمبراطورية، تضمن فرضية المركزية الحضارية وشروط تحققها. ثم سجال الثنائيات في مفهوم المركزية هل هي حضارة واحدة بالمفرد أم حضارات بصيغة الجمع، حاولنا في هذا العنصر البحث عن فرضية وجود مركز حضاري في نظريات فلسفة التاريخ والحضارة مع ابن خلدون، والمفهوم الغربي للحضارة ومن ثمة انبثاق المركزية الأمريكية، ثم عرضنا لفكرة المركزية من داخل أطروحة صدام الحضارات لصامويل هنتجتون. لنحاول بعد ذلك (أي بعد التأكد من وجود المركزية الحضارية) البحث عن أسس عامة للتمركز الحضاري ووجدناها تتمحور حول: العرق واستعداداته الفطرية، المعتقدات السيكو–دينية، ثم النظم السياسية المتينة والسلطة. وهي أهم الأسس التي تسيدت بها حضارات على حساب أخرى عبر التاريخ. أما في المبحث الثالث حددنا الخصائص التي يمتاز بها المركز الحضاري وهي القوة المادية: الاقتصادية والعسكرية وكذا المقومات المعرفية فتتشكل من ثلاثية رئيسية هي: العلوم، والفلسفات، والأديان. والمبحث الرابع قاربنا فيه نموذج الحضارة المركزية في العصر الحديث والمعاصر وهي الحضارة الغربية، ميزنا في هذا العنصر في دلالات المفهوم، وبيّنا: أهي مركزية أوروبية أو غربية، كما وضحنا منظور فلاسفة المركزية الغربية "هيجل" و"هنتنغتون" حول النموذج الغربي المهيمن وخصوصيته الفلسفية. وأثر هذه المركزية على العالم ومخلفاتها الإيديولوجية. ومن ثمة كيف تحول مؤشر البوصلة صوب العالم الجديد في النصف الثاني من القرن العشرين، طرحنا فيه بدايات وتأسيس المركزية الأمريكية، تضمن مدخل تاريخي حول قيام العالم الجديد، وكذا تفاصيل عن الهوية الأمريكية، وكيف تحولت من أمة استثنائية إلى مركزية عالمية، إلى أن نخلص إلى تأسيس المركزية الأمريكية ومن أدلجة الهيمنة إلى قيادة العالم.

أما الفصل الثالث، وهو الفصل المركزي في الأطروحة، فتضمن عرضا تحليليا للمرتكزات والأسس الابستمولوجية التي قامت عليها المركزية الأمريكية المعاصرة، يتضمن هذا الفصل أربعة مباحث: الأول تحدثنا فيه عن المرجعية الفلسفية التي تدفع أمريكا نحو قيم ومبادئ العمل والحرية وبالتالي نحو الطموح اللّامحدود في تزعم العالم وقيادته، وتتمثل في: فلسفة جون لوك السياسية–الواقعية والليبرالية الجديدة–المذهب الذرائعي –النزعة الفردية –الحرية وحقوق الإنسان. أما المبحث الثاني، فكان محوره الأسس الدينية والفكرية التي قامت عليها المركزية الأمريكية، وهي على التوالي: الأساس الديني، البروتستانتية التطهيرية (البيوريتانية)Puritanism–التنوع العرقي والثروة البشرية–ذريعة السلم العالمي أو ما يعرف بـ Pax Americana ويعني مبدأ حفظ السلام في العالم، على منوال الـ باكس رومانا Pax Romana . وفي المبحث الثالث، فقد أدرجنا فيه الأسس العلمية التي جعلت من الولايات المتحدة مركز العالم المعاصر دون منازع، نقصد من ورائها إثبات أن المركزية الحضارية فعل خاضع لأسباب وضوابط متى توفرت تحققت ظاهرة الهيمنة على الآخر، فبفضل قوة أمريكا الطبيعية وثرواتها التي أحسن المؤسسون الأوائل استغلالها، وكذا اقتناص فرص التاريخ، بأن استدرجت دول العالم القديم إلى التوقيع على معاهدة بريتون وودز، لتؤسس لنظام مالي مركزي، جعل من الدولار الأمريكي عملة العالم، ومقياس تعافي الاقتصاديات الدولية، ووضع مؤسسات مصرفية عالمية على غرار صندوق النقد الدولي، يراقب ويسير السياسات الداخلية للدول الأطراف، الأعضاء في الصندوق. بالإضافة إلى تفوقها في الأبحاث والتكنولوجيا العلمية، وتوجيهها اقتصاديا أو ما يعرف باقتصاد المعرفة من خلال أشهر المجمعات العلمية في العالم (وادي السيليكون) الذي يعد مقر كبرى شركات الاتصالات والانترنيت والابتكار في العالم. نشير كذلك في هذا المبحث إلى الصناعة العسكرية والفضائية الأمريكية ومقدراتها على فرض منطقها بالقوة إن استدعى الأمر ذلك. ونختم هذا الأساس العلمي، بالجانب المعرفي الذي تعتبر أمريكا رائدة فيه، جانب الجامعات البحث العلمي. أما في المبحث الرابع عرضنا مظاهر للمركزية الأمريكية، وحصرناها في ثلاثة مظاهر أساسية تنم عن تسيّد أمريكا للمشهد العالمي وهي: هيمنة الايديولوجيا السياسية–والقدرة الاقتصادية الأمريكية –والهيمنة الثقافية على العالم.

أما الفصل الرابع، حاولنا من خلاله تقييم مسار المركزية الأمريكية وانعكاساتها على مستقبل العالم. تضمن ثلاثة مباحث رئيسية متكاملة فيما بينها تحيل إلى تصور نموذج حضاري قادم، المبحث الأول، انعكاسات المركزية الأمريكية على العالم، تضمن الرؤية الأمريكية للعالم، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م، ثم الكنيسة الإنجيلية الجديدة وتأثيرها قرارات السياسية للرئيس، ثم تناول العلاقة بين النخب الصناعية والتجارية أي البرجوازية وبين المؤسسات السياسية الأمريكية (الكونغرس). في المبحث الثاني نقد لفكرة المركزية الحضاري وتنبؤات تراجع المركزية

الأمريكية، تضمن نقد فكرة مركزية حضارة ما على حساب باقي الحضارات، ومن ثمة التأسيس لواقع المركزية الأمريكية المتسم بالتراجع وذلك بتحليل مختلف الأزمات التي تهدد بقاء أمريكا على عرش العالم، وتتمثل في الأزمة الاقتصادية، الأزمة الاكسيولوجية، الأزمة السياسية، والأزمة الاجتماعية. وإيمانا منا بدور الفلسفة في الكشف عن مآلات الحقيقة والتطلع إلى مستقبل الفعل الإنساني كان المبحث الثالث رؤية استشرافية لمستقبل العالم، ناقشنا فيه احتمالات نشوء مركز حضاري جديد بعد تفكك المركز الأمريكي خاصة في ظل تصاعد توقعات تضع الصين مكان أمريكا على رأس العالم، وهي مؤشر لنهاية الأحادية القطبية غربية كانت أم شرقية نكشف عنها في عنصر مستقبل العالم ما بعد المركزية الأمريكية. أما خاتمة الأطروحة فإنها تتضمن أهم نتائج هذا البحث في صورتها النهائية.

اعتمدنا في إنجاز هذه المحاور من موضوع أطروحتنا على مجموعة من المصادر والمراجع باللغات العربية والأجنبية، بالإضافة إلى التركيز على المراجع التي تناولت موضوع البحث خاصة الدراسات السياسية والحضارية التاريخية، وكذا تلك المهتمة بموضوع المركزية الغربية وجذورها التأسيسية، مثل كتاب الباحث عبد الله إبراهيم "المركزية الغربية (إشكالية التكون والتمركز حول الذات)" وقد أمكن لنا الاستعانة بمجموعة من الكتب للتأسيس لفكرة المركزية، والتي لا يستغني عنها أي باحث في الدراسات الحضارية التاريخية والسياسية من بينها: المقدمة لابن خلدون، بالإضافة إلى أعمال مالك بن نبي في الحضارة، وشبنجلر في فلسفة التاريخ، ومؤلف هيجل "العقل في التاريخ"، كما استأنسنا بأطروحات كل من: ألكسيس دو توكفيل "الديمقراطية في أمريكا"، وماكس فيبر كتاب"مقالات في سوسيولوجيا الدين"، وغوستاف لوبون كتاب "فلسفة التاريخ"، وروجيه غارودي كتاب "حوار الحضارات"، وبرتراند راسل كتاب "السلطة والفرد"... وغيرهم. ومن أهم المصادر البحثية التي نتقاسم معها موضوع المركزية الأمريكية، نذكر أعمال مفكري السياسة الأمريكية مثل: مؤلفات زبيغنيو بريجنسكيZbigniew Brzezinski(1928-2017) كتاب"رقعة الشطرنج الكبرى"، فرنسيس فوكوياما، صامويل هنتنغتون كتاب "صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي)"، جوزيف ناايJoseph Nye(1937-) كتاب"القوة الناعمة" ، هنري كيسنجر Henry Kissinger(1923-) كتاب "النظام العالمي (تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ)"...وغيرهم.

الفصل الأول

مدخل مفاهيمي

مفهوم المركز ومستوياته

تقديم:

شكلت ثنائية المركز والهامش، خطاب المركزية "Le Centrisme"؛ والتي عَرفت بدورها استخدامات عديدة ومعاني مختلفة، وعليه وجب في البدء ضبط التصورين والإحاطة بهما، لننطلق في تحديد إطار البحث ورسم الخطوط العريضة في فهم العلاقة الجدلية بين المركز والهامش حسب السياقات والحقول المعرفية المتنوعة، فهل دلالة المفهوم تُجيز لنا الحديث عن مركزية واحدة أم مركزيات بصيغة الجمع؟ كون المركزية مفهوم برز في عديد الخطابات العلمية والفلسفية والأنثروبولوجية. مثل المركزية في الفلك، والتي تنجلي من النظام الشمسي لكوبرنيكوس أو حتى في ذلك التصور الكلاسيكي لبطليموس المبني على الاعتقاد بمركزية الأرض؛ وفي الفيزياء كذلك فنجدها في عمق التصور الذري لعلماء فيزياء الكم. أما في الدراسات الفلسفية، فالحديث عن مركزية الكوجيتو: من أرسطو إلى ديكارت، ومركزية الإنسان في الكون الذي جُعل محورًا للفلسفات الإنسانية، ومركزية الكلمة أو اللوغوسنتريزم في مقابل مركزية الصوت، أحد أهم إشكالات فلسفة اللغة. كما تتواجد المركزية في الأطروحات الأنثروبولوجية وفي الثقافية والعرقية...، وما إلى ذلك من المجالات العلمية المختلفة، لهذا نفترض أهمية معرفة مضمون هذه المركزيات وتحليل العلاقة الجدلية بين المركز والهامش ضمن كل مجال علمي متخصص. فما هو المركز؟ وما هو الهامش؟ وما هي العلاقة بينهما؟ ثم كيف تحول هذين المفهومين من العلوم الطبيعية إلى العلوم الإنسانية؟ وهل توجد علاقة بين الواقعين الطبيعي والحضاري؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي شروط التمركز؟ وهل يمكن أن يتطور الهامش ليصبح مركزا وأن يتراجع المركز ليصير هامشا؟ وهل هناك قوانين علمية تتحكم في العلاقة مركز/هامش يمكن استخلاصها في هذا السياق؟

المبحث الأول: التعريف اللّغوي للمركز والهامش:

1-المركز والمركزي:

جاء في لسان العرب لابن منظور "*الرَكز: غرزك شيئا منتصبا كالرمح ونحوه تَرْكُزُه ركزا في مركزه، وقد رَكَزَه(...)غرزه في الأرض. والمراكز: منابت الأسنان ومركز الجند الموضع الذي أمروا أن يلزموه. ومركَزُ الرَجل موضعه(...)والركيزة والرِكزة: القطعة من جواهر الأرض المركوزة فيه. والركز الرجل العاقل الحليم السخي(...)*"[1].

أما في القاموس المحيط فالمركز من الفعل ركز: "*رَكَزَ الرمح يركِزُهُ ويرْكُزُهُ: غرزه في الأرض. كَرَكَزَه والعِرقُ: اختلج. كارتَكَزَ. والمركز وسط الدائرة، وموضع الرَجُل، ومحله، وحيث أمر الجند أن يَلزَموه(...)وارتكز ثَبَتَ على القوس: وضع سيتها على الأرض، ثم اعتمد عليها. والرَكَزَة: النخلة تقتلع من الجذع. ومركوزة: والركيزة في اصطلاح الرمليين: العتبة الداخلة*"[2]، إذن يمكن أن نستوضح معنى كلمة مركز وتجلياته في قواميس اللغة العربية، حيث أن المركز في لسان العرب يشير إلى منتصف الشيء وانتصابه كما أنه يحيل إلى المكان الثابت المعين كمنبت الأسنان وموضع الجند وموضع الرجُل...الخ، كما يعني كذلك القطعة النادرة من الذهب والفضة والجواهر، وهو إشارة إلى معاني وجدانية كالحلم والعقل. والمركز حسب "الفيروزابادي" هو كل ما كان وسط الشيء ومركزه، يتسم المركز حسب التعريف اللّغوي بأنه يشكل قوة وأساسا للمحيطين به، كوسط الدائرة ويمكن أن نقول كذلك هو المقر الثابت الذي تتفرع منه الفروع والحواشي. ولهذا فإن المفهوم اللّغوي للمركز يعبر عن المكان الثابت المتوسط للأشياء، كما أن دلالات هذا المصطلح متعددة واستعمالاته متشعبة، وعموما فإنه يشير إلى القوة والسند اللّذان يعبران عن الأصل وجذور الشيء، فهل نجد نفس المعنى في اللّغات الأجنبية الأخرى، كاللغة الفرنسية واللغة الانجليزية؟

لا يبتعد المفهوم كثيرا عن السابق في القاموس الأكاديمي الفرنسي: *فالمركز" Le Centre" أو الوسط وهو النقطة الوسطى من دائرة أو كرة، مركز الدائرة(...)مركز الأرض، مركز الكوكب (...) في الجسم نقول، مركز الجاذبية، أي النقطة التي يعلق منها الجسم فتظل أجزائه في حالة توازن، المركز مأخوذ أيضا عن المكان حيث أن الأشياء تميل بشكل طبيعي إلى مركزها. ونقول مجازيا: تكون داخل مركزك أي في المكان الذي يحبه المرء في نفسه.*

[1] أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 5، دط، دت، ص ص355-356.

[2] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط 8، 2005، ص 512.

لا يبتعد المفهوم كثيرا عن السابق في القاموس الأكاديمي الفرنسي: *فالمركز" Le Centre" أو الوسط وهو النقطة الوسطى من دائرة أو كرة، مركز الدائرة(...)مركز الأرض، مركز الكوكب (...) في الجسم نقول، مركز الجاذبية، أي النقطة التي يعلق منها الجسم فتظل أجزائه في حالة توازن، المركز مأخوذ أيضا عن المكان حيث أن الأشياء تميل بشكل طبيعي إلى مركزها. ونقول مجازيا: تكون داخل مركزك أي في المكان الذي يحبه المرء في نفسه أو يحب أن يكون فيه، وبالعكس نقول لا يوجد الشخص في مركزه. يطلق لفظ المركز كذلك على الوسط في عدة جمل: كقولك مركز المملكة، مركز المقاطعة، مركز الجيش، وتمثل روما مقر ومركز وحدة الكنيسة في الحقل اللّاهوتي*"[1]. يُلاحظ من خلال تعريف "المعجم الأكاديمي الفرنسي" لكلمة مركز، أنه يتضمن مفهوما أقل تشعبا مقارنة بالقواميس اللغوية العربية، حيث يشير التعريف اللغوي إلى التوسط في المكان أي منتصف الشيء وهو في الغالب نقطة التقاء الأطراف كما نشير إلى أن هذا المفهوم اقترن بمفاهيم فلكية وفيزيائية في العلوم الطبيعية كمركز الأرض، أو الكوكب، أو الجاذبية والجسم...الخ. يضاف إلى هذا المعنى العلمي المرتبط بالمكان وأبعاده، أن مفهوم المركز في القاموس الأكاديمي الفرنسي يشير إلى نقطة مهمة وثيقة الصلة بموضوع بحثنا، وردت بوضوح لما تحدث عن مركزية روما واحتضانها لمقر الكنيسة، هذه الفكرة مركزية في الفكر الديني الغربي خلال العصور الوسطى، قبل انزياحها بفعل الفلسفات التنويرية، التي زحزحت الدين عن المحور ووضعت الإنسان في مكانه، فأصبح هو مركز ومحور الوجود، أو ما يعرف بالانثروبوسونثريزم Anthropocentrisme .

أما في اللغة الإنجليزية فكلمة مركز "Center"عنت في الماضي تمركز هرم السلطة في يد شخص واحد وهو نظام جديد اتبعته الكنيسة في ظل حكمها...وإذا فُسّر المصطلح حرفيا فإنه لا يؤدي إلى المعنى الحقيقي، أما اصطلاحا فهو يعبر عن الوسط الداخلي أو الأعلى، كما يعني أن يكون الواحد منطقيا، ولا يمكن أن يقول أحد أن مركز الدائرة غير منطقي...وأن اسم مركز له معنى دقيق ولا ينبغي أن يستخدم للدلالة عن المكانة المرموقة في الوسط فحسب[2]. يمكن إجمال ما سبق قوله بأن المركزية تعني تَشَكل نظام متناظر يكون له محور وسطي وأطراف أو توابعكما تعني أيضا في بعض السياقات تركز السلطة واتخاذ القرارات وإصدارها في جهة واحدة أو في وظيفة أو شخص واحد.كما تتعلق المركزية بسياسة النمط الغالب والأكثر عمومية وسيادة، في مقابل اللّامركزية أو الإفلات من واحدية السلطة أو القرار لتتنوع مصادر التخطيط والتوجيه أو بعبارة أخرى وجود قوة مناوئة لقوة وسلطة المركز.

[1] Dictionnaire de l'académie française, éditions eBooks France, 5 édition, 1798, p506.
[2] H.W.Fowler: A dictionary of Modern English usage, revised by sir Ernest Gowers, Oxford Univ press, 2ed rdition,1965, p83.

2-الهامش والهامشي:

جاء في القاموس المحيط أن الهامش من الفعل "هَمَشَ كضَرَبَ وعَلِمَ أي أكثر الكلام. والهامش: حاشية الكتاب"[1] ويقصد به الكلام الخارجي والجانبي الذي يوجد على حافة أوراق الكتب وغيرها. نفس المفهوم ورد في المعجم الفلسفي "لصليبا" بأن: "*الهامشي هو المنسوب إلى الهامش، وهو حاشية الكتاب لا متنه. إذ يقال فلان يعيش على الهامش أي لا يدخل في زحمة الناس، ويطلق الهامشي مجازا على المسائل الفكرية المتعلقة بأطراف الموضوع وجوانبه الخارجية. والظواهر الهامشية في علم النفس هي الظواهر المجاوزة لعتبة الشعور، أي الواقعة في المحل الأوسط بين الشعور الواضح واللاشعور الغامض*"[2]. أما "أندريه لالاند" يعرف الهامشي Marginal بقوله: "*ما يكون على الحافة، أي على طرف منطقة وليس على الهامش بالمعنى الفرنسي لهذا التعبير. فهو مشتق من الكلمة الانجليزية* Margin *ومعناها العام هو حافة أو حاشية، حد، وتخم*"[3]. هذه التعاريف جميعها تتقاطع في القول أن الهامشي هو الجانبي أي خلاف المركزي، ويتسم الهامش حسبها بأنه جزء ثانوي في أي نظام، لا يلقى الاهتمام والانتباه كما يلقاه المركز، من صفاته كذلك بأنه يمتاز بقلة التأثير والفاعلية خاصة إذا أخذنا تعريف "صليبا" و"القاموس المحيط"، فإن الهامشي هو الذي يجانب الشيء ويكون خارج المتن والمضمون أو كما وُصف بأنه الحافة. كأن نقول همش الشيء أي أهمله وجعله ثانويا وتركه جانبا، ويعني كذلك تلك الفروع التي تتفرع عن المركز.

وحريّ بنا أن نشير إلى أن مصطلح الهامش بمعناه العام-أي الأدنى درجة-تمت استعارته وتوظيفه في عديد الدراسات الاجتماعية والثقافية والتاريخية، ففي الدراسات ما بعد الكولونيالية يحيل الهامش إلى تلك "*الجماعات التي تقع تحت هيمنة الطبقات الحاكمة داخل المجتمع وتشمل الطبقات المهمشة كالمزارعين والعاملين وغيرهم من الجماعات التي تُحرم من الوصول إلى السلطة المهيمنة وهذا ما أشار إليه المفكر الإيطالي انطونيو غرامشي* ***Antonio Gramsci***

[1] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط 8، 2005، ص 610.

[2] جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، ج2، دط، 1982، ص517.

[3] أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت-باريس، المجلد1، ط2، 2001، ص 765.

(1891-1937)، في دراسته حول تاريخ الطبقات المهمشة"[1]. بهذا تتشكل عدة محددات للهامش، فنتحدث عن المنطقة الهامشية، والثقافة الهامشية، والجماعة الهامشية، والإنسان الهامشي...وغيرها.

من خلال الإطار اللغوي للمصطلحين مركز/هامش نلحظ بوضوح صورة العلاقة بين المفهومين، وهي أن المركز مكان أو حالة تحظى بالاهتمام والتفضيل في مقابل الهامشي المتسم بالدونية والاستبعاد، كما أن المركز يحيل إلى الوجود البارز والفعلي، تطغى عليه قوة مصدرها هو الهوامش والتوابع التي لا تعدو أن تكون إلا أداة تضفي على المركز مشروعية ومكانة بارزة في الفاعلية والوجود. وبهذا يمكن وصف العلاقة الثنائية مركز/هامش بالجدل والصراع، لأن المركز يستمد مركزيته من الهامش أما الهامش فسمي كذلك لأنه يقع على حافة النظام المتمركز. بناء على هذه المعاني المفهومية تم توظيف اللفظتين للدلالة عن القوة والتبعية للأخر فمثلا: صارت أوروبا الامبريالية تعرف بوصفها المركز داخل جغرافيا العالم القديم، وكل شيء وقع خارج ذلك الإطار أو تلك الهيمنة كان بالبداهة يقف عند هامش أو حافة الثقافة والسلطان والحضارة، وهكذا فقد صار مدار الرسالة الاستعمارية جلب الهامش إلى مجال تأثير المركز المستنير[2].

المبحث الثاني: مجالات وصور المركزية:

أولا: التمركز وقوانينه في الفلك والفيزياء:

1- المركزية في الفلك:

واحدة من أقدم النظريات الفلكية وأشهرها، هي تلك التي ظهرت في القرن الثاني ميلادي على يد العالم الفلكي بطليموسClaude Ptolémée*. إذ ينص النظام الفلكي البطليمي على أن الأرض ثابتة وكل الأجسام السماوية الأخرى تدور حولها في حركة دائرية بسرعة مطردة، وقد كان معيار بطليموس ووسيلته في الكشف

[1] بيل أشكروفت وآخرون: دراسات ما بعد الكولونيالية، ترجمة أحمد الروبي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط 8 2005، ص 319.

[2] سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، دط، 2014، ص279.

* بطليموسClaude Ptolémée: عالم فلكي ورياضي وجغرافي ولد بالإسكندرية بين (100م-150م) صاحب كتاب "المجسطى"

هو المعطيات الحسية العينية؛ إذ رأى أن القمر والشمس يتحركان عبر السماء، أما الكواكب الخمسة عشر 15 الأخرى فتتحرك بكل حرية أما النجوم فهي ثابتة، ومن اللّافت للنظر أن هذه النظرية تلقت دعم الفكر اللاهوتي.

السبب الذي أدى إلى استقرارها مدة طويلة من الزمن –حوالي 1500 سنة–حيث تناسقت فكرته مع فكرة العقيدة المسيحية التي ترى بأن الأرض هي مركز الكون، يضاف إلى هذا أنها وجدت السند في فلسفة أرسطو، الذي يعتقد بأن الحركة الدائرية هي التي تلاءم الأجرام السماوية[1]؛ يقول "ليون ليدرمان" في كتابه (التناظر والكون الجميل):" *لقد تم اعتبار التناظر الذي تتمتع به الدائرة الكاملة وكذلك الكرة أمرا إلهيّ المنشأ، وبذلك أصبح هذا التناظر ببساطة شيئا ضروريا لأنه من صنع الله* "[2].

احتلت الأرض في النظام الفلكي السابق مركز الوجود من جهة، ومركزا لجميع الأفلاك في الفلسفة الطبيعية من جهة أخرى، متوشحة رداءً لاهوتيا؛ وكان الشمس والقمر، وسائر الكواكب والنجوم الثابتة تتحرك حولها؛ ولم تتحرك عقول البشر لتتجاوز ذلك إلا في القرن الخامس عشر، حينما نيكولاي كوبرنيكوس*Nicolas Copernic(1473–1543)، بحدسه العلمي ليثبت أن الشمس هي المركز وليست الأرض[3]، بهذا سقط النظام الفلكي البطلمي خصوصا بعد رحلات البحارة الطويلة عبر المحيط الأطلسي وفي كوكب الأرض، الذين اكتشفوا خللا في تصور بطليموس الفلكي القديم، لما جاء كوبرنيكوس، أكّد في عام 1507 بأن بطليموس كان مخطئا، ويشير مؤرخو العلم (أمثال رينيه تاتون، وجورج سارتون، وتوماس كوهن...وغيرهم) إلى أن مصادر علم كوبرنيكوس متنوعة: شملت الرياضيات واللّاهوت والاقتصاد والطب، كما تعود نظريته إلى قراءاته الواسعة لنظرية "مدرسة مراغة" ونظرية "أريستارخوس الساموسي"Aristarque deSamos(310 ق.م–230 ق.م) في القرن الرابع والثالث قبل الميلاد، القائلة بمركزية الشمس؛ حيث توصل إلى أن الشمس هي مركز الكون أو مركز الدائرة الخارجية للنجوم الثابتة، وأن

---

[1] يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2000، ص ص 71–72.

[2] ليون ليدرمان، كريستوفر هيل: التناظر والكون الجميل، ترجمة نضال شمعون، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009، ص 29.

* نيكولاي كوبرنيكوس، رياضي وفيلسوف وفلكي بولندي، يعد مؤسس علم الفلك الحديث، صاحب نظرية مركزية الشمس وأن الأرض جرما يدور في فلكها، ومؤلف كتاب "حول دوران الأجرام السماوية".

[3] ويليام تي فولمان: وداعا نظرية مركزية الأرض، ترجمة أسامة فاروق حسن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، 2015، ص159.

الكواكب تدور حول الشمس في مدارات، لكن الكواكب الأقرب إلى الشمس تدور بوتيرة أسرع، وفي مدارات أصغر[1]، وفق العلاقة التالية:$T = \frac{T^2}{R^2}$ حيث أن: Tثابت،T هو ثابت سرعة دوران الكوكب حول الشمس، Rهو بُعد الكوكب عن الشمس، وحسب "توماس كون" فإن كوبرنيكوس :" *استمد نظريته على أساس اقتصادي، وقال من باب الاقتصاد أن يدور الجسم الأصغر(وهو الأرض)حول الجسم الأكبر(وهو الشمس)وليس العكس*"[2]، هكذا يكون كوبرنيكوس قد فجّر بنظريته ثورة عارمة أعلنت نهاية العلم القديم وبداية العلم الحديث، فكانت نقطة البدء في نسقه، ومن ثمة حانت فرصة جميع العلوم لكي تستقيم، وليس فقط علم الفلك. لهذا سميت بالثورة الكوبرنيكية، فقد أزاحت الأرض من مركز الكون ووضعت الشمس بدلا منها، وغدت "*الشمس هي التي تنظم حركة الأرض والكواكب وتوابعهم من الأقمار، فهي تجذب كل هذه المجموعة بقوة هائلة، فتحافظ على سير كل منها في مداره*"[3].

تطور النظام الكوبرنيكي، بعد ذلك على يد العالم السويدي تيكو براهي Tycho Brahe(1546-1601) الذي حاول أن يدمج بين محاسن النظامين الفلكيين: البطلمي والكوبرنيكي*، باختراع "نظام تيخو" الذي يحافظ على الوضع المركزي الساكن للأرض بينما تصور الكواكب تدور حول الشمس، يقول "رينيه تاتون" في هذا السياق: "*إن معارضة "تيكو براهي" للثورة الكوبرنيكية يجب ألا تنسينا المكان الذي احتله نظامه في نفس من عاصروه، ولا أهمية أعماله من أجل تطوير علم الفلك لاحقا. إذ بالنسبة إلى علماء الفلك في النصف الأول من القرن السابع عشر، بدا نظام " تيكو براهي" الذي دمج محاسن نظام "كوبرنيك" و"بطليموس، بدا وكأنه نظام ثالث للعالم*"[4]، لينتقل الدور إلى الألماني يوهانس كبلرJohannes Kepler(1571-1630)، الذي استفاد من العمل مع "تيكو براهي"، حيث دافع عن الكوبرنيكية بتعصب شديد، إذ كان في شبابه يعبد الشمس فآمن بأن المكان الملائم لهذا النجم العظيم هو مركز الكون، لهذا كانت دوافعه لاعقلانية، يقول "تيكو براهي" عن كبلر":لن يتمكن كبلر العظيم إلّا من ترك

[1] يمنى طريف الخولي: مرجع سابق، ص ص 71-72

[2] توماس كون: بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة 168، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992، دط، ص 264.

[3] عبد الفتاح مصطفى غنيمة: نحو فلسفة العلوم الطبيعية، د م، د ط، ص129.

* حسب رينيه تاتون، فإن النظام الفلكي لـ"تيكو براهي" يجمع بين أمانة التجربة والحس السليم عند بطليموس، وبين الأناقة عند كوبرنيك. رينيه تاتون: تاريخ العلوم العام (العلم الحديث مج 2)، ص 87.

[4] رينيه تاتون: تاريخ العلوم العام (العلم الحديث من سنة 1450 إلى سنة 1800)، تر علي مقلد، مج 2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1993، ص 87.

مركزية الأرض متقهقرة إلى الوراء بالقدر الكافي بحيث يسلط الضوء عن بنية الكون بأكمله مع وجود الشمس في مركزه، وضع يدافع عنه بالإشارة إلى الفلك الوارد بالنصوص المقدسة: الشمس والنجوم والكواكب في الفضاء الواقع بينها تعادل الآب والابن والروح القدس، الآن يعلمنا الفلك أن شمسنا إن هي إلا بقعة مجهولة من الغازات[1]. "تميزت نظرية كبلر للمدارات الفلكية للكواكب بالشكل الاهليليجي أو البيضاوي، بدل الدائري، وتمثل قطعا ناقصا، ويعد الفرض الاهليليجي أو القطع الناقص ثورة فجرها "كبلر" تماثل ثورة كوبرنيكوس، وهي ثورة على الاعتقاد المقدس بأن الأجرام السماوية مقدسة فوجب أن تدور في شكل كامل وهو الدائرة[2]. إن علماء الفلك والدارسين لتاريخ الكوسمولوجيا يقدرون أثر "كبلر" في توجيه وتطوير نظرية "كوبرنيك"، ولهذا فإنهم يؤكدون على قيمة العالِمين وأثرهما على علم الفلك*. يتضح لنا أن كلتا النظريتين الفلكيتين القديمة والحديثة، سواء تلك التي جعلت الأرض مركزا للكون، أو تلك وضعت الشمس في المركز، أن أسسهما أيديولوجية وعقائدية قبل أن تصبحا نظريتين فلكيتين، يبقى مرد هذا الاستنتاج هو طبيعة علم الفلك في حد ذاته، القائم على الفرض العلمي والاستنتاج الرياضي من ناحية، واعتبار أن التمركز هو الفكرة الأساسية والمسألة الحتمية الراسخة في عقول الفلاسفة والعلماء على حد سواء، من ناحية أخرى، وعلى أساسه تُفسر جل النظريات العلمية الأخرى كمفهوم الزمان والمكان والجاذبية والقوة والثقل وغيرها.

بعد أن توسعت نظرية "كِبلر" الفلكية وتطور مفهوم الطبيعة بأسره على يديه، ونتيجة تأثره بأفكار"جيلبرت Gilbert"في المغناطيسية، توصل "كبلر" إلى القول أن "كل الأجسام تمارس جذبا"؛ وبهذا المفتاح لظاهرة الجاذبية يكون قد أعلن عن بداية إلغاء التفكير الميتافيزيقي في الطبيعة، أو فكرة الكائن الحي –أي التصور الحيوي للطبيعة–، وحل محلها مصطلح القوة المادية ذات الطاقة الميكانيكية. ووضع أسس العلم الحديث وفتح المجال أمام التصور الحتمي الميكانيكي للكون، فأزاح "كبلر" بذلك ميتافيزيقا حرية الإنسان وتفرده[3]؛ ولما جاء "إسحاق نيوتن *Isaac Newton*(1642-1727) فحدد قوانين الميكانيكا، ووظف قانون الجاذبية لحساب مقدار تأثير الكواكب فيما بينها. إذ "*أصبح يمثل قانون الجذب العام لنيوتن تكملة طبيعية لتصور كوبرنيكوس عن مركزية الشمس*

[1] ويليام تي فولمان: مرجع سابق، ص 191.

[2] يمنى طريف الخولي: مرجع سابق، ص ص 74-75.

*يؤكد ويليام تي فولمان في كتاب (وداعا نظرية مركزية الأرض) على قيمة العالمين الفلكيين كوبرنيكوس وكبلر فيقول: "هكذا أصبح عالَم كوبرنيكوس مثله مثل عالَم كبلر متمركزا حول نقطة عند الشمس أو بالقرب منها، يستمد الألفة والحياة من أشعة الشمس" ص 191.

[3] يمنى طريف الخولي: مرجع سابق، ص 76.

في المجموعة الشمسية، فضلا عن أنه يشكل أساسا علميا جديد التفسير كثير من العمليات التي تجري في الكون بما في ذلك العمليات الفيزيائية والكيميائية" [1]، وللتعبير عن علاقة الجاذبية في النظام الفلكي بين المركز الجاذب والأطراف أو التوابع، أو بين الشمس وباقي الكواكب، التي تسبح في المجرة الشمسية، تعبيرا علميا وفق قانون جاذبية نيوتن الذي بيّن أن الشمس تؤثر في الكواكب بقوة تبقيها في مداراتها الدائرية حولها، بناءا على المعادلة التالية:"$F_{AB} = \frac{G_N.m_A.m_B}{R^2}$ حيث أن F قوة جذب الجسم A للجسم B، G_N ثابت أساسي يدعى ثابت نيوتن للجذب وهو ليس عدد رياضي كالعدد π بل هو عدد فيزيائي يختلف من نظام إلى آخر، m_A كتلة الجسم A، m_B كتلة الجسم B ، و R هي المسافة الفاصلة بين الجسمين، يعني ذلك أن قوة الجذب تكون أكثر شدة بين كتلتين أثقل منها بين كتلتين أخف، فعلى سبيل المثال: إذا كان الجسم A كوكب الأرض كانت $m_A=m_{Earth}$ ، وإذا كان B هو الشمس كان لدينا $m_B=m_{Sun}$، وبالتالي إذا استطعنا بطريقة ما أن نضاعف كتلة الشمس مع إبقاء جميع الأشياء الأخرى كما هي فعندها ستتضاعف قوة الجذب التي تجر بها الشمس الأرض وسيتغير مدار الأرض ليصبح بشكل قطع-ناقص أكثر ضيقا –ذي مسافة متوسطة أصغر من الشمس"[2]، تجدر الإشارة إلى أن قوة جذب الجسم تتناسب طردا مع كتلته أي أنه، لو كان وزن الشمس أقل ستكون حركة الكواكب أبطأ أي تقل قوة الجاذبية، بعبارة أخرى إذا كانت F صغيرة (قوة جذب الشمس) فإن الكوكب يغادر مداره لينتقل إلى مدار آخر، معناه أن قوة التأثير تتلاشى مع ظهور قوة تأثير أخرى أكثر شدة منها، وبهذا تم تفسير مركزية الشمس في النظام الكوبرنيكي وفق قوانين فيزيائية محددة، ومترابطة بقوى طبيعية تجعل للمركز قدرة على تحديد المدارات للتوابع الفلكية.

إنه لأمر عميق، ولافت للنظر أن تكون القوة المؤثرة على مجمل المنظومة الشمسية هي ذاتها القوة التي نراها تمسك وتجذب جميع الأشياء في الأرض من جبال وبحار وأشجار وحتى الناس فهي، تجرها كلها نحو مركز الأرض وأصبح هذا القانون أساسا لإطار فكري أو نظرة فلسفية جديدة للعالم، ووفق معادلته تُحدد جميع علاقات الجذب للأجسام محورية هما: الكتلة والمسافة، فمن كانت كتله أكبر كانت قوته في جذب الأجسام الأقل منه كتلة أقوى ونفس الشيء يسحب على العالم الميكروفيزيائي (عالم الذرة والإلكترون).

يلخص نيوتن قوانين الميكانيكا في ثلاثة قوانين رئيسة هي:

---

[1] كولن ويلسون وجون جرانت: فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة فؤاد كامل، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،1992، دط، ص 264.

[2] ليون ليدرمان وكريستوفر هيل، مرجع سابق، ص ص238-239.

1. يبقى الجسم الساكن أو المتحرك بحركة منتظمة في حالة السكون أو حالة الحركة المنتظمة، ما لم نؤثر عليه بقوة ما.
2. تولد القوة المؤثرة على جسم كتلته m تسارعا $a^{\rightarrow}$ يتحدد من خلال المعادلة .$F^{\rightarrow} = ma^{\rightarrow}$
3. إذا أثر جسم Bعلى جسم Aبقوة $_{AB}F^{\rightarrow}$ ، فإن الجسمA سيؤثر على الجسمB بقوة $_{AB}F^{\rightarrow}- = {}_{BA}F^{\rightarrow}$ (أي أن $_{BA}F^{\rightarrow}$تشير إلى الاتجاه المعاكس لـ $_{AB}F^{\rightarrow}$ولكن لها نفس الامتداد، وتدعى بقوة رد الفعل)[1]

يمثل القانون الأول مبدأ العطالة؛ أي أن كل جسم يظل على حالة سكون، أو في حالة حركة دائمة في خط مستقيم، ما لم يجبره مؤثر خارجي على تغيير اتجاهه–أو ما يعرف بقانون القصور الذاتي–؛ أي أن الجسم قاصر بذاته عن تغيير حالته ولابد من مؤثر خارجي، وهو القوة. أمّا القانون الثاني فيقصد به معدل التغير في العزم (كمية التحرك) يتناسب مع القوة المؤثرة في الجسم، أي أنه يمكن حساب التغير في الحركة المنتظمة أو السكون للجسم، متى عرفنا كتلة ومقدار قوة الجسم المؤثر عليه. أمّا القانون الثالث مفاده أن: لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومعاكس في الاتجاه.

أُعتبرت انجازات كوبرنيكوس، وكبلر، وجاليليو، ونيوتن العلمية، وغيرهم علامات بارزة لعصر مميز في تاريخ البشرية، يدعى عصر التنوير، لأن تلك الأبحاث العلمية في الطبيعة ساهمت كثيرا في الثورة على الفكر الديني والإطاحة بالسلطة العلمية التقليدية (المنطق الأرسطي)، وكانت دافعا إلى تحرير الفكر وتفعيل حرية التعبير. يوافق هذا العصر، القرن الثامن عشر؛ بسبب التغيرات العميقة التي طرأت على الفلسفة الطبيعية والسياسية وعلى العلاقات التجارية والاكتشافات المتعددة وفي فهمنا لجغرافيا العالم.

هكذا أصبحت المفاهيم الأساسية في السلطة والحكم نابعة من تشكل العقلية العلمية خاصة في الطبيعيات "*فابتداء من القرن السابع عشر أصبحت السلطة قوة، والحقل الاجتماعي حقل يتشكل من قوى تتجابه، أو من أجسام صلبة تتصادم، أو كسوائل تعمل على احتلال كل مجال متاح أمامها*"[2]، إن هذا التصور الميكانيكي للطبيعة انتقل إلى تفسير سلوك الكائن الإنساني وفق تلك الصورة كذلك؛ وهو ما عبّر عنه "توماس هوبز Thomas Hobbes(1588–1679) في كتابه ليفياثان سنة 1651، وهو كتاب في السياسة يبدأ فيه "هوبز" برأيه في

[1] ليون ليدرمان وكريستوفر هيل: مرجع سابق، ص 230.

[2] كريستيان دو لا كامباني: الفلسفة السياسية اليوم، ترجمة نبيل سعد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 2003، ص 82.

الطبيعة البشرية عندما حاول إثبات إمكانية تفسير كل شيء في الإنسان تفسيرًا ماديًا؛ وهو تصور نابع من الفلسفة الإنسانية للإصلاح والنهضة، التي ارتبطت بتشكل العقلانية العلمية في تلك الحقبة. يقول ماكس هوركهايمر ملخصا الفلسفة الطبيعية لتوماس هوبز ورؤيتها للكائن البشري:"....وكما يتوجب فحص خصائص أصغر جزئيات المادة لفهم الأشياء الكبيرة(مثلما هو الحال في الفيزياء حيث ينبغي دائما دفع البحث أكثر باتجاه اللّامتناهي في الصغر)، كذلك لا يمكن تفسير أصل وتجانس الجسم الكبير للدولة، إلا انطلاقا من خصائص الجزئيات النهائية للمزيج السياسي: الناس"[1].

وتبعا لنظرية الجاذبية عند ألبرت أينشتاين Albert Einstein(1879-1955): *"فإن الأرض تدور حول الشمس، لا بسبب قوة جذب الشمس-وفق نظرية نيوتن- ولكن بسبب خصائص المجال الذي تخلقه الشمس حولها، والأرض لا تجد مدارا تسير فيه سوى هذا المدار الدائري وكل الكواكب محكومة في مداراتها بخطوط دائرية، هي انحناءات المجال حول الأجسام الأكبر منها جاذبية، فالأجسام قاصرة عن أن تتعدى مجالاتها المرسومة"* [2]، يتبين من خلال هذا الفرض أن الجسم الذي يتوسط أي نظام طبيعي يُخضِع باقي المحيط إلى قوانينه الخاصة بفرض قوته على الجذب والتأثير وصناعة حدود وضوابط الحركة المسموح بها. وبهذا فإن مفهوم التمركز في الكون لا يكون صدفة، بل لا يمكن لأي كوكب أن يتخذ هذه المكانة إلا في شروط طبيعية محددة، صاغها علماء الفلك والرياضيات فيما بعد، كما أنه لابد لمركز الكون أن يؤدي وظيفة رئيسية تليق بمكانته المركزية*. وهكذا فإن مركزية الشمس، تبيّن كذلك فضل وأهمية هذا النجم العظيم على باقي كواكب المجرة إذ أنها مصدر الطاقة والضوء ومما لا يقبل الشك *"أن جميع أنواع الطاقة التي عرفها الإنسان على وجه الأرض يرجع أصولها إلى الشمس؛ مصدر جميع الطاقات"* [3].

---

[1] ماكس هوركهايمر: بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية، تر محمد علي اليوسفي، دار الفارابي، بيروت، د ط، 2006، ص 38.

[2] عبد الفتاح مصطفى غنيمة: مرجع سابق، ص138.

*كما يقول كوبرنيكوس عن دوران الأجرام السماوية، نقلا عن وليام تي فولمان في كتابه (وداعا نظرية مركزية الأرض):" في يوم من الأيام كان هذا الكون مكتملا، كان كونًا، وإننا نعلم من النصوص المقدسة، أن الرّب يمنحنا الشمس كي تضيء لنا نهارًا والنظام الثابت للقمر والنجوم كي يضيء لنا ليلًا"، ص 191.

[3] عبد الفتاح مصطفى غنيمة: مرجع سابق، ص129.

أما في مستقبل نظرية المركزية الكونية فقد أثبت الدراسات الفلكية المعاصرة، أن المجرات الكونية تكشف عن زحزحات، وتعني تراجع المجرات عنّا هذا ما بيّنه "إدوين هابل"*Edwin Hubble(1889-1953) في العشرينيات من القرن الماضي، إذ كلما كانت المجرة بعيدة عنا رأيناها أسرع في تحركها، إن هذه التراجعات تكشف بأننا قد نكون في مركز الكون، لكن في الحقيقة أن جميع المجرات ترى هذه الصورة نفسها، إذ تتحرك كل مجرة مبتعدة عن الأخرى وسترى كل مجرة سائر المجرات الأخرى مبتعدة عنها هي بالذات، ولا تستطيع أية مجرة أن تزعم أنها مركز هذا التوسع العظيم، ووضع "هابل" القانون التالي لحساب مسافة البعد بين المجرات وسرعتها: **V=H×D** حيث أن سرعة المجرة (**V**) ، المسافة (D) ، وثابت هابل(H)[1]؛ إذ في سنة 1924 كشف هابل عن وجود مجرة ثانية، بل عدد لانهائي من المجرات، فلا نحن في مركز المجرة وليست مجرتنا في مركز الكون حيث تقرر وجود حوالي 2 ترليون مجرة، كما أن لا تأثير لمجرتنا في الكون، هذه النظرية تدفعنا إلى استخلاص حقيقة فلكية معاصرة، تضاف إلى تلك الحقائق التي ما فتئ العلم المعاصر، يكشف عنها في ميدان الطبيعة، هي أنه ليس هناك مركزا وحيدا للعالم في هذا الكون الفسيح.

نستنتج في ختام هذا العنصر، ومن خلال مفهوم المركز في علم الفلك، أن الأجرام السماوية تحكمها علاقات طبيعية تجعل من "المركزية" ضرورة تقتضيها قوانين فيزيائية أثبت العلم وجودها، تتمثل هذه القوانين في الجاذبية أو الثقالة، الكتلة، مبدأ العطالة أو القصور الذاتي وكذا القوة الطاردة المركزية ثم الثقل...وغيرها، غير أن الأمر اللّافت للنظر هو أن وضع التمركز لا يعدو أن يكون رغبة في الذات العارفة (الإنسان)، في رؤية عالم منتظم ومتناظر دأب علماء الكون على تبريرها، إذ أننا نمركز أنفسنا وسط العوالم التي نفهمها وتتوصل إليها ادراكاتنا، فالمركز بهذا المعنى هو عبارة عن قطب سماوي تدور حوله جميع النجوم؛ غير أن الاعتقاد بأن الشمس هي مركز الكون تمت زحزحته مع نظرية زحزحة المجرات التي بيّنت لنا أن "*الكون ينكر علينا أي تميز بموقع مركزي، وإنما نحن موجودون في واحد من الكواكب حول أحد النجوم المتناثرة في مكان ما من مجرة ما مثل غيرها*" [2] .

* ادوين هابل Edwin Hubble (1889-1953)، فلكي أمريكي، كان له دور كبير في استكشاف الفضاء الخارجي، يعتبر واحدا ممن ساهموا في تطوير علم الكون الفيزيائي في القرن العشرين. أثبت أن المجرات ليست ثابتة في الكون، بل كلها يتحرك ويبتعد عنا.

[1] كولن ويلسون وجون جرانت: مرجع سابق، ص ص 227-228.

[2] أوليفييه اسلانجيه: مقدمة في علم الفلك، ترجمة طارق كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2017، ص 244.

2-المركزية في الفيزياء:

بعدما دأب علماء الفيزياء المعاصرة على الحفر والتنقيب في أعمق المستويات الباطنية لنسيج المادة استكشفوا أصغر منمنمات المكان، وأقصر لحظات الزمان؛ فكشفوا عن عالم الذرة والإلكترونات، ونحن بدورنا نحاول استجلاء أسس النظام المركزي الكامن داخل هذا العالم اللامتناهي في الصغر أو الميكروفيزيائي، وهو نظام متناظر لا يكف عن إبراز وتفعيل قوانين التمركز الكونية كتلك التي كشف عنها النظام الفلكي، داخل أبسط جزء من مكونات المادة. بداية لقد بدأ "الفهم التفصيلي للذرة بعد ديمتري مندلييف Dmitri Mendeleïev (1834-1907) بحوالي خمسين سنة من اكتشاف "طومسون"Thomson(1856- 1940) للإلكترون واكتشاف" ارنسترذرفورد Ernest Rutherford (1871-1937) للنواة ثم مع نظرية نيلز بور Niels Bohr (1885-1962) البدائية عن المدارات الالكترونية التي اعتمد فيها على ميكانيكا الكم"[1]، *"لقد صار معروفا من خلال سلسلة التجارب الأساسية التي قام بها رذرفورد* من سنة 1906 إلى غاية 1911، في جامعة كامبريدج، أن هناك قلبا قياسيا بالغ الصغر داخل الذرة يدعى "النواة"، يحتل حوالي 99.98% من كامل كتلة الذرة"* [2]، أي أنه الجزء الأكبر من الذرة، وباقي الأجزاء التي لا تتعدى نسبة 0.02% هي جزيئات دقيقة جدا فتحت المجال للبحث عن تفاصيل تلك الجسيمات، تم اكتشاف كذلك أن *"للنواة شحنة كهربائية كبيرة، وأن للالكترونات (المكتشفة من قبل طومسون عام 1898) شحنات سالبة تحوم بشكل من الأشكال في مدارات حول النواة، وشيئا فشيئا أخذت الصورة تتضح في أن الذرة كائن شبيه بالمنظومة الشمسية، حيث أن النواة (مثل الشمس)في المركز والإلكترونات(مثل الكواكب)تدور حولها"* [3].

إن مدارات الإلكترونات مماثلة فعلا لمدارات جسيمات تشبه الكواكب الدائرة حول الشمس، لهذا وجب على تلك الإلكترونات أن *"تتوضع في مداراتها وتخضع لتسارع معين، لأن شعاع السرعة يتغير اتجاهه بشكل مستمر مع مقدار الزمن، ووفقا لنظرية ماكسويل Maxwell في الكهرومغناطيسا، فإن الشحنات المتسارعة تصدر إشعاعا*

---

[1] ليون ليدرمان وكريستوفر هيل: مرجع سابق، ص 457.

*ارنسترذرفورد Ernest Rutherford (1871-1937) عالم فيزيائي بريطاني(نيوزيلندا)، حاصل على جائزة نوبل للكيمياء سنة 1908، مكتشف نواة الذرة سنة 1911، واقترح نموذجا يشبه النظام الشمسي، حيث النواة المركز، أما الالكترونات فتدور حولها في مدارات دائرية.

[2] ليون ليدرمان وكريستوفر هيل: مرجع سابق، ص 375.

[3]ليون ليدرمان وكريستوفر هيل: مرجع سابق، ص 375.

كهرومغناطيسيا أي ضوءًا، فقد بيّنت التقديرات أن مجمل الطاقة المدارية للإلكترون سوف يتم إشعاعها آنيا إلى الخارج على شكل موجات كهرومغناطيسية، وبالتالي حسب ماكسويل، فسوف تنهار مدارات الإلكترونات وحتى الذرة نفسها، وهذه الذرّات المنهارة تكون خاملة كيميائيا، وغير نشطة" [1]، لكن بعد ذلك اكتشف علماء الفيزياء بأن *"الذرة تدبر أمرها في تحقيق التوازن، من خلال القوة الكهرومغناطيسية، لتضع الإلكترون في مدار إلكتروني (وهي منطقة من الفراغ حول النواة، يكون احتمال وجود الإلكترون فيها 95%، وتتميز بإعطاء أعداد كمومية موافقة لها من المدار IF أو S2) في الفضاء، وتقوم مع ذلك بتوفير القوة الكافية لإبقائها هناك بالرغم من أن اندفاعه يتأرجح ويهتز بطريقة عشوائية حول قيمته، هذا هو سبب عدم انهيار الذرات، في ميكانيكا الكم(بينما كما ذكرنا كان عليها السقوط والتهاوي في فيزياء نيوتن، حيث ثابت بلاك معدوم H=0"* [2].

إذن، فالذرة لها قدرة أو طاقة كهرومغناطيسية كما أسلفنا الذكر، يحدد من خلالها النطاق الملائم لمدار الإلكترونات ولتأكيد هذا، *"نفترض أن جسيما كموميا -إلكترون مثلا- سقط في خندق طويل ندعوه بئر كمومي وحيد البعد يعني هذا أن هناك قيودا على مواضع الإلكترون المسموح بها، وذلك بواسطة القوى المتنوعة الكهرومغناطيسية وترتيب الذرّات في الجزيء المتطاول، بحيث لا يمكن للإلكترون الحركة، إلا ضمن منطقة محدودة مقيدة"* [3]، كما توصلت الأبحاث، إلى أن النواة بدورها مركبة من بروتونات ونيترونات، حيث يتم تعريف أي عنصر ذري بعدد البروتونات الموجودة داخل نواته، فمثلا تحتوي نواة الهيدروجين على بروتون وحيد، بينما تحتوي نواة ذرة الإلكترون على ستة بروتونات، بالإضافة إلى البروتونات نجد في النواة جسيمات محايدة كهربائيا(غير مشحونة)، تدعى النيترونات...يتحقق تماسك نواة الذرة بفضل قوة فائقة الشدة، تدعى القوة الشديدة. ولولا وجود هذه القوة لِتُعوض عن التنافر الكهربائي بين البروتونات (لأن شحنتها موجبة) فتقيدها، وتتسبب في تلاحمها مع بعضها البعض، ومع النيوترونات داخل النواة المتراصة؛ لتطايرت هذه الأخيرة وتحطمت إلى أشلاء. بالإضافة إلى هذا وجد العلماء أن القوة الشديدة ناجمة عن جسيمات أخرى سميت البيونات أو (ميزونات d) وهي تثب وتقفز جيئة وذهابا بين البروتونات والنيترونات (حالها في ذلك حال الفوتونات أو جسيمات الضوء) التي تخلق القوة الكهربائية[4].

---

[1] المرجع نفسه، ص 376.

[2] المرجع نفسه، ص ص 382-383.

[3] المرجع نفسه، ص 395.

[4] ليون ليدرمان وكريستوفر هيل: مرجع سابق، ص 458.

من هنا تتجلى لنا أنواع القوى المتحكمة في العلاقة بين عناصر الذرة، ومن ثمة في الطبيعية والكون عامة حيث وجد الفيزيائيون أن الكون تحكمه ثلاث أنواع من القوى الأساسية، تنجم عن تبادل الطاقة بين الجسيمات مثل الفوتونات، مع جسيمات أخرى مثل الإلكترونات والبروتونات المشحونة كهربائيا، فيشكل هذا التبادل الطاقي البنية الأساسية، لما يظهر لنا كمقطوعة موسيقية رائعة، ضخمة، هي الطبيعة في تناسقها، ونظامها المحكوم بتلك القوى، وهي:

1-قوة الجاذبية(الثقالة): وهي التي تعمل بين الأجسام المادية، ومن آثارها سقوط الأجسام تلقائيا نحو الأرض ودوران الكواكب حول الشمس ودوران الأقمار حول الكواكب، ومدى هذا التجاذب لا نهائي، ولكن شدته ضعيفة جدا، وحسب نظرية نيوتن للثقالة فإن:*" الكتلة هي منبع الحقل الثقالي"* [1]، مثال: جسم متماثل كرويا مثل الأرض تقريبا يؤثر بقوة تجاذبية على الأجسام خارجه كما لو كانت كتلته بأكملها مركزة عند المركز، فالقوة الجاذبية التي تبذلها الأرض على أي جسم كتلته m موجود على سطحها تعطى بالمعادلة $F = -G_m M/R^2$ حيثM كتلة الأرض وRنصف قطرها[2] .

2-القوة الكهرومغناطيسية: هي التي تعمل على تجاذب أو تنافر الجسيمات المشحونة كهربائيا، وإليها يعزى ارتباط إلكترونات الذرة بنواتها وأيضا ارتباط الذرات ببعضها لتشكل الجزيئات[3]. والفرق بين القوة الجاذبة، والقوة الكهرومغناطيسية، هو أنه إذا كانت *"القوى التثاقلية تشمل كتل الأجسام المتأثرة فإن القوى الكهرومغناطيسية تشمل شحنات كهربائية، مثال في حالة مجسيمين مشحونين وساكنين، تفصلهما مسافة "r" تكون هذه القوة جاذبة إذا كانت إشارتا الشحنتين مختلفتين إحداهما موجبة والأخرى سالبة، وتكون طاردة إذا كان للشحنتين نفس الإشارة كلتاهما موجبة أو كلتاهما سالبة"* [4] .

[1] المرجع نفسه، ص 427.

[2] سام تريمان: من الذرة إلى الكوارك، مرجع سابق، ص 60.

[3] المرجع نفسه، ص 15.

[4] سام تريمان: من الذرة إلى الكوارك، مرجع سابق، ص 71.

3-القوة النووية الشديدة والضعيفة: الأولى هي التي تحفظ تماسك الذرة ونواتها بربط البروتونات مع النيوترونات وهي أكبر ألفي مرة من القوة الكهرومغناطيسية. أما الثانية فهي المسؤولة مع سابقتها عن سلوك الجسيمات على المستوى دون الذري، وعليها يعول بشكل خاص في تفسير التحليل الإشعاعي للنواة بانبعاث أشعة بيتا Beta[1].

كما عكف العلماء على دراسة الفيزياء على مستوى تلك المسافات الصغيرة جدا، ومحاولة الكشف عن عظمة وسحر الطبيعية، فتوصل البحث المعملي في مجال الفيزياء النووية والذرية إلى تحديد أربعة أنواع من الطاقة، تتشكل معظمها من التفاعلات والعلاقات المعقدة بين الأجزاء المجهرية للذرة وهي المسؤولة عن تحديد القوى المختلفة الخاصة بتلك الجسيمات نجملها فيما يلي:

1- الطاقة الحركية: مبدؤها هو أنه، كلما كان الجسم المتحرك أكثر سرعة كانت طاقة حركته أكبر، وأيضا بالنسبة لسرعة معينة تكون طاقة الحركة أكبر كلما كانت الكتلة أكبر[2].

الطاقة الكامنة: هي الطاقة التي يختزنها جسم أو منظومة ما، بحيث يكون قادرا عند تحريكها على تحريك أجسام أخرى أي "في حالة جسيم مفرد كتلته m وسرعته v بحيث يفترض أن يكون مقدار v صغيرا مقارنة بمقدار سرعة الضوء، تعرف طاقة الحركة k طبقا للمعادلة $K = \frac{1}{2} m\, v^2 = \frac{p^2}{2m}; p \equiv m\, v$ القوة المركزية، وتعتمد على متغير المسافة البينية للجسمين، نوضح هذا أحيانا بالإشارة إلى القوة بالرمز $F_{(r)}$ مؤكدين على أن القوة F تعتمد على r، هذا المفهوم يتسع ليصبح قانونا عاما للقوة المركزية"[3]، مثال تمتلك كومة الثلج في قمة الجبل طاقة كامنة ثقالية جاهزة دوما للتحول إلى طاقة حركية عند سقوط الكومة، و يحتوي البنزين وغيره من أنواع الوقود على طاقة كامنة كيميائية جاهزة لأن تتحرر عند إجراء تفاعل الأكسدة الكيميائي(الاحتراق)[4].

[1] المرجع نفسه، ص 16.

[2] المرجع نفسه، ص 66.

[3] المرجع نفسه، ص 67.

[4] سام تريمان: من الذرة إلى الكوارك، مرجع سابق، ص ص93-94.

2- الطاقة الحرارية: هي تلك السرعات الكبيرة والعشوائية للجزيئات الناجمة عن الاحتراق، مثال تصطدم الجزيئات المتحركة بسرعة في مدفأة تعمل على الحطب بجزيئات أخرى موجودة مثلا في الهواء المحيط، مما يعطي الأخيرة طاقة حركية تتسبب بنقل الحرارة إلى أرجاء الغرفة عبر إجرائية الحمل الحراري[1].

3- الطاقة الكهربائية: هي طاقة حركية لتدفق الإلكترونات (التيار الكهربائي) عبر سلك ما أو عبر سوائل خاصة، وإذا كانت المقاومة الكهربائي للسلك عالية، اصطدمت الالكترونات بذرات السلك فاقدة طاقتها، مسببة تحرك الذرّات (المقاومة الكهربائية تؤدي إلى ضياع الطاقة الكهربائية)[2].

لقد استُغلت هذه الأبحاث لمواجهة التحديات المهمة التي تثقل كاهل الحضارة البشرية اليوم، وهي "الطاقة"، لأنها السلعة الأهم التي نستعملها، فكثير من الحروب والصراعات التي نجد أنفسنا غائصين فيها باستمرار تنجم عن حاجاتنا للطاقة بشكل وافر ومريح، مثل النفط في الأزمنة الحديثة، فالطاقة هي مفتاح التحكم بالاقتصاد والولوج إلى المستقبل، وامتلاك القوة السياسية والسلطة[3]، لهذا كانت تحظى هذه الأبحاث بالدعم المادي والمالي من طرف حكومات الدول المتقدمة، لاستحداث مصادر جديدة للطاقة بديلة عن الموارد الباطنية للأرض الآيلة إلى النفاذ وتأكيد هيمنتها باستمرار من خلال الاستغلال الأمثل لطاقاتها ومواردها البشرية لتتمكن من احتكار المعرفة والتفرد بها، التي قال عنها "بيكون" بأنها قوة. وهنا يكمن الفرق بين الدول المتحكمة في التكنولوجيا وبين بلدان العالم الثالث التي ما تزال تعمل جاهدة لتأمين الغذاء والدواء لشعوبها.

فضلا عن ذلك، توجد جملة من العلاقات والقوانين الفيزيائية التي تربط مركز الذرة بهوامشها (النواة والإلكترونات) كشفت عنها الطبيعة بفضل ميكانيكا الكم وهي متعددة القوانين منها: قانون التصادم، فلقد كشفت *"أقوى المجاهر التي استطاع البشر صنعها، وهي المسرعات الضخمة للجسيمات الدقيقة، من هذه المسرعات آلة "التيفاترون " tevatron وكذلك "المصادم الهادروني الكبير collide hadron large حيث يقوم التيفاترون بتسريع البروتونات والبروتونات المضادة في دائرة كبيرة باستخدام طاقات كبيرة، فتتصادم هذه الجسيمات بعد ذلك وجها لوجه، (فتتصادم الكواركات والكواركات المضادة داخل البروتونات والبروتونات المضادة)"* [4]؛ من هنا نستخلص بأن هذا النظام الباطني

[1] ليون ليدرمان وكريستوفر هيل: مرجع سابق، ص 94.

[2] المرجع نفسه، ص 95.

[3] المرجع نفسه، ص 91.

[4] ليون ليدرمان وكريستوفر هيل: مرجع سابق، ص ص 33-34.

لتركيبة الذرة ليس نظاما هادئا ولا ساكنا باستمرار، بل هوفي حركة دائمة، بين التجاذب والتنافر، والالتحام والتصادم ومن ثمة الانشطار، بالإلكترونات وباقي الجسيمات المجهرية داخل الذرة، لا تتوقف عن محاولة الانفلات من سلطة القوة الكهرومغناطيسية والقوة الثقالية، وكأن بها تخبرنا بأن النظام العيني الطبيعي، وعلى منواله النظام الحضاري الإنساني، ليس وضعا ستاتيكيا البتة، بل هو وضع ديناميكي، لا يكف عن التحول والتصادم، وما يوقفه عن ذلك سوى تلك القوى التي يحظى بها المركز، وإن هو استطاع أن يتقاسم معها تلك القوى، فحتما سيؤسس لنظامه الخاص يكون هو مركزه، وهذا الفعل يقارب فعل انشطار النواة، ويعني انقسام النواة إلى نواتين عن طريق قذفها بنيوترون، يرافق هذا الانشطار تحرر طاقة.

تسحب تلك القوانين والعلاقات على ميدان الكيمياء كذلك، فبعد أن كان الاعتقاد السائد لدى علماء الكيمياء في القرن الثامن عشر أن الذرّات الأولية التي تتألف منها العناصر الكيميائية تتماسك مع بعضها البعض بفعل قوى التماسك، جاء "لافوازييهLavoisier 1743-1794 " وأكتشف أن الفضة تتحلل في الحامض(أي يذوب الملح في الماء) لأن جزيئات الحامض اجتذبت جزيئات الفضة(أو جزيئات الماء اجتذبت جزيئات الملح) وكانت جاذبيتها أقوى من جاذبية جزيئات هاتين المادتين المذابتين لبعضهما البعض[1]، أو أن النحاس قد يذوب في محلول الفضة وتترسب الفضة لأن التآلف بين لحامض والنحاس أقوى من التآلف بين الحامض والفضة[2]، ولقد جرى تفسير ظواهر أخرى كثيرة على هذا النحو.

هكذا إذن، فإننا نجد في كتب الفلكيين والفيزيائيين والكيميائيين، أسس وقواعد العلاقة التي تحكم المركز الطبيعي بتوابعه في العلوم الفيزيائية، سواء من خلال النظام الفلكي الكوبرنيكي، أو النموذج الذري لرذرفورد وقواعد ميكانيكا نيوتن، والكوانتم، وغيرها من الإسهامات العلمية، لتصور نظام كوني بديع مبني على تناظر تتحكم فيه قوانين: القوة، الطاقة الجاذبية، الثقل، التصادم، الانشطار...وغيرها من المعادلات والنواميس الأساسية في علم الفيزياء؛ فالعالم اللامتناهي في الصغر، يعبر عن جل المظاهر الواقعة تحت مشاهدتنا العينية في حياتنا اليومية لهذا حاز نظام التمركز الكوني على مكانته الهامة في ميدان الدراسات الفيزيائية والفلكية، وقوانين المادة، التي أبانت عن روعته وبساطته فكان أحد الدعائم الجمالية لفنون العمارة، والنحت والموسيقى...وغيرها، كعنصر حاسم في الوصف العلمي للكون ونحن إذ

[1] توماس كون: بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة 168، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992، دط، ص 171.

[2] المرجع نفسه، ص172.

نحاكي هذا الميدان، نفترض تأسس نظام الجماعات الحضارية الإنسانية على أساس من التناظر المركزي بين محور الوجود البشري ووسطه، وباقي الأطراف القابعة على هامش النظام، لعلنا نجد في قوانين الفلك والفيزياء ما يمدنا بفهم وإدراك للأسس العلمية لقواعد المكانة المحورية، التي يحتلها المركز الطبيعي في شكله الكوسمولوجي (الشمس) أو الفيزيائي (النواة)، وإسقاطها على المفهوم الحضاري والتاريخي للوجود الإنساني ضمن سيادة وهيمنة حضارة على أخرى أو تقسيم العالم إلى ثنائية المركز والهامش، وهذا لبناء التوقعات المرتقبة لفرضية علمية في فهم التاريخ وتطور الكون والكشف عن الطبقة التالية من المبادئ التعريفية للطبيعة؛ وبهذا ستضيف قوانين التمركز ذلك الإطار أو الجانب المضيء لفهم حقيقة الكون والذي ينطوي على مختلف القوانين الطبيعية، مما يدفع بالمشتغلين في حقل العلوم الإنسانية، إلى الاعتقاد بأن هذه هي القاعدة العلمية التي لابد أن يسير وفقها النظام العالمي.

ثانيا-المركزية من منظور أنثروبولوجي:

1-المركزية الإثنية Ethnocentrisme:

لا يستقيم الحديث عن مركز ثقافي مستحوذ على العالم ثقافيا، إلا في وجود نزعة مركزية أخرى هي التمركز حول عرق معين يدافع ويتبنى تلك الهيمنة الثقافية، فيكون العرق الحامل للثقافة السائدة (المركزية) هو أساس البعث الحضاري لما يملكه من قدرات بيولوجية متميزة أهمها "القابلية الإبداع والتسيّد"، فيتسم العرق المركزي بخلالٍ متميزة تختلف عن بقية الأعراق البشرية التي تبقيها جيناتها قابعة في التخلف والدونية. من هنا يتشكل نموذج آخر من المركزية وهو المركزية العرقية أو الاثنية أو Ethnocentrism، يكون فيها عرق ما هو مركز الثقل ومبدأ القوة، ينغلق على مجموعته في مقابل باقي المجموعات التي تمثل أدنى درجات الرقي، ويعود مصطلح *المركزية العرقية إلى ويليام سمنر William Graham Sumner1840-1910(عالم اجتماع أمريكي) سنة 1906، يشير فيه إلى من يعتبرون أنه ينبغي تفضيل طريقتهم الخاصة في الوجود وفي التصرف أو في التفكير على كل الطرق الأخرى، فهذه الذاتية تعد اتجاها أو موقفا فكريا يقوم على الرجوع إلى القواعد والمعايير الخاصة المعتادة للحكم على الآخرين والقيام بالتمييز بين الهمجيين والمتحضرين، وغالبا يعني الحفاظ على المثال الأعلى للنقاء والأصالة"* [1]، وهو تصرف يقوم على رفض التنوع الثقافي ومعاداة الآخر كما يشير إلى معاني عدم التسامح وكره الأجانب والعنصرية ووصم الآخر بالتخلف والنقص والدونية، *"إذ يؤدي التقسيم العرقي إلى دفع الأنساق الثقافية للمجتمعات البشرية التي تشكلت ضمن شروط تاريخية مختلفة، إلى الصدام والمواجهة، ذلك أن تلك الأنساق لها محمولاتها الذهنية والدينية والاجتماعية الخاصة بها، فما أن*

[1] جيل فيريول: معجم مصطلحات علم الاجتماع ترجمة محمد الأسعد، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2011، ص 84.

يُصار إلى استبدال نسق بآخر إلا ويقتضي الأمر تدمير نسق واستبداله بآخر، يحمل بالضرورة منظومة قيم مختلفة وغريبة، هذا ما عبر عنه "كارل ماركس" بالكويكبات من التنظيمات الاجتماعية" [1]، أما في قاموس (مصطلحات العلوم الاجتماعية)، ورد تعريف المركزية العرقية بأنها:" *تركز اتجاهات التعصب العرقية لدى جماعة عرقية خاصة أو عنصر محدد، يظهر هذا النوع من التعصب عندما ينظر الفرد أو الجماعة إلى ثقافته على أنها الثقافة الراقية والأسمى، ويتضمن حكما بالدونية على الثقافات الأخرى؛ يتضمن هذا الاتجاه أيضا أن الجماعة التي ينتمي إليها الفرد تكون مركز كل شيء وما عداها ثانوي أو في مركز أدنى "* [2]. البارز من خلال هذه التعاريف، أنه يوجد لدى الناس ميل واسع الانتشار إلى تفضيل الجماعة التي ينحدرون منها على الجماعات الأخرى، والانغلاق حول ذاتهم الثقافية وتمسك الفرد المتعصب والمتصلب بجماعته الداخلية والرفض القاطع للجماعات الخارجية أو الدخيلة.

إن هذه النزعة العرقية المتمركزة حول عرق دون آخر، تبرز كذلك من خلال المركزية الإيديولوجية في صورتها الألمانية مع "هيجل"؛ الذي جعل منها سندا لفلسفته في التاريخ، بالرغم مما يُثار حولها من تحفظات، وحسبنا هنا أن نشير إلى نظرية هيجل حول أنماط الأعراق والحضارات التي أسس لها في سياق فلسفته التاريخية، ونظريته حول الروح المطلق، إذ يمكن اعتباره من بين أحد أقطاب نظرية التمركز العرقي، يؤسس لذلك الطرح في كتاب "العقل في التاريخ"، فيستقصي "هيجل" مواطن القوة والضعف لدى مختلف الأعراق البشرية المتنوعة قديما وحديثا، شمالا وجنوبا وفي شرق العالم، حتى يستجلي نمط العرق المتعالي في نظره، أي المتفوق والذكي والرفيع والسامي، في مقابل نمط العرق الأدنى والذي لا معنى لحياته، ذلك الهامشي الموجود خارج التاريخ والزمان، وكما هو معلوم، أن فلسفة هيجل تتأسس على مقولتين أساسيتين: الزمان أين يتجلى الروح المطلق ويصل العقل إلى كماله؛ والمكان أين يستقر هذا الروح في مكان ما من جغرافيا العالم، يقول هيجل :"*في تاريخ العالم تظهر فكرة الروح في تجسدها الفعلي على أنها سلسلة من الصور الخارجية، تنكشف كل منها بوصفها شعبا موجودا بالفعل، هذا الوجود يندرج تحت مقولة الزمان، كما يندرج تحت مقولة المكان، على طريقة وجود الأشياء الطبيعية، والمبدأ الخاص الذي يجسده كل شعب من شعوب التاريخ يكون بمثابة خاصة طبيعية له"* [3]، كما أن الجغرافيا عنده تعد عاملا أساسيا في تكوين الحضارة ودرجاتها، إذ تتراوح درجات

---

[1] عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية (إشكالية التكون والتمركز حول الذات)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1997، ص 273.

[2] صالح مصلح أحمد: الشامل (قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية)، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1999، ص 196.

[3] هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ (العقل في التاريخ)، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2008، ط3، ص 157.

تقدم الأعراق البشرية، بمدى اختلاف طبيعة الأرض والعوامل الفيزيقية التي تميزها، أي المحيط الذي تنشأ فيه تلك الأقوام وتترعرع تلك الأعراق؛ لهذا يقسم هيجل العالم إلى منطقتين، أو جزأين، الأول على أساس زمني: عالم قديم وآخر جديد، والآخر على أساس جغرافي: الشمال والجنوب، وحدد معالم وتضاريس ومناخ كل جزء، كما اعتبر هذه المؤثرات الطبيعية عاملا أساسيًا في تجلي بوادر الفكر، والعمل والتحرر. هكذا تجد الروح نفسها ضمن الجغرافيا المعتدلة والملائمة للانطلاق والسمو والتعالي، ويعتبر "هيجل" أن *"مسرح التاريخ الحقيقي هو المنطقة المعتدلة أو بالأحرى النصف الشمالي منها، لأن الأرض فيه تمثل شكلا قاريا ولها صدر واسع كما يقول اليونانيون"* [1]، ألا وهي أوروبا، التي تمتد روحها وتنتشر إلى غاية العالم الجديد(أمريكا واستراليا)، الذي يتشكل من عرقين مختلفين: السكان الأصليين والسكان المستوطنين القادمين من أوروبا، وحسب هيجل، فإذا كان العالم الجديد يمثل عالم الأحلام وأرض المستقبل –كما قال– فالعالم القديم كان مسرح تاريخ العالم في الحاضر–في زمن هيجل طبعا–قام على ضفاف المتوسط، أو قلب العالم القديم كما يسميه، وفيه كانت *"بداية التاريخ ونهايته وظهوره وانهياره"* [2]، فلا نجادل إذن، في القول أن القرن التاسع عشر آمن بتفوق العرق الأبيض الذي اتخذ من مهمة تمدين العالم عبئا له، أما مسعاه الحقيقي فهو تأسيس إمبراطورية عالمية تضم عرقه وثقافته، ولا شك في أن عصر الامبريالية كان يمثل فكر الرجل الأبيض الغربي في أبرز معانيها. إن الرجل الأبيض انفصل عن الطبيعة العمياء، وبدأ وعيه بها وبنفسه يبرز إلى العالم منذ اليونان، فالرومان، والجرمان الذين هم زبدة مخاض التاريخ –وفق منظور هيجل–وهو ما يتطابقمع منطوق المثل المعروف، لكن في سياق حضاري، فنقول (تمخض التاريخ فأنجب الجرمان).

وجدير بالذكر أن، هناك عدة نظريات لعلماء الأنثروبولوجيا، اجتهد روادها في وضع معايير وتصنيفات علمية وإجرائية تدعم التصورات القائمة حول النزعة العرقية، من ذلك نذكر تصور كلود ليفي شتراوس –Claude Levi Strauss(1908–2009)،الذي يعتبر بأن التمييز العرقي حالة سيكولوجية تستقر حول الذات وتنبع من أنانية مفرطة في قبول الآخر والتعاطي معه –وهو الموقف الأكثر قدما–، "*ويستند دون شك إلى أسس نفسانية متينة نظرا لأنه ينزع للظهور مجددا لدى كل منا عندما نكون في موقع غير منتظر، إنما يتمثل في الرفض الكامل للأشكال الثقافية، الأخلاقية والدينية والاجتماعية والجمالية البعيدة كل البعد عن القيم التي نعتنقها، هكذا كانت العصور*

[1] المرجع نفسه، ص 158.

[2] المرجع نفسه، ص 168

القديمة تسمي كل ما لا يشترك مع الثقافة اليونانية -ومن بعد اليونانية، الرومانية-"بربريًا"، وفيما بعد استعملت الحضارة الغربية تعبير المتوحش في المعنى ذاته" [1].

يؤكد "كلود ليفي شتراوس" هذا المبدأ السيكولوجي، والعرقي، عندما يبرر التفوق الحضاري لحضارة ما على حضارة أخرى بالاستناد إلى نظرية "التنوع العرقي" من جهة، والى التفوق العرقي من جهة أخرى، وعلى النقيض من ذلك يستوطن التخلف أقوامًا وحضارات أخرى من أعراق بدائية لا تملك حتى مقومات التحضر التي يملكها العرق الأبيض، يقول شتراوس: *"إذا لم يكن ثمة قابليات عرقية غريزية، كيف نفسر التقدم الكبير الذي قطعته الحضارات التي طوَّرها الرجل الأبيض، كما نعلم أن حضارات الشعوب الملونة بقيت متخلفة، بعضها في منتصف الطريق، والبعض الآخر قابع في تأخر يمكن أن يصل إلى آلاف السنين، أو عشرات الألوف منها ؟"* [2]، وهو حسب "شتراوس" سؤال مشروع، يؤكد اختلاف الأعراق، وتميز بعضها عن بعض في الخصائص الثقافية والقدرات الفكرية، في بناء حضارة في مكان ما والبقاء على هامش الحضارة والتاريخ هناك في مكان آخر.

أمَّا الطرح الآخر لتشكل المركزية الاثنية، فتؤسسه "نظرية الصراع"، وهو التصور الأكثر فاعلية وإجرائية ركزت عليه الدراسات الأنثروبولوجيا الغربية؛ *إذ أن الناس يختلفون في الدرجة التي يرون بها العالم الاجتماعي على هذا النحو، ومنذ "داروين" على الأقل، كان من البديهي في العلوم البيولوجية أن ننظر إلى الكائنات الحية ليس كطبقات ثابتة، بل كمجموعات متغيرة، وينطبق هذا على الكائنات كاملة، فالناس يختلفون عن بعضهم البعض في الصفات الجسمانية والذهنية: كالطول واللون والقدرة الاجتماعية والذكاء وغيرها؛ لهذا فالتمركز العرقي كذلك يعتبر خاصية أو نزعة إنسانية تختلف من مجموعة عرقية إلى أخرى*[3].كما يمكن اعتبار المركزية العرقية قابيلة عقلية، أو منطقية، أو هي استعداد لتقسيم العالم البشري إلى مجموعات داخلية (تتشكل من نفس العرق) وأخرى خارجية (تتشكل من الأعراق الأخرى)، أو هي استعداد كذلك لاختزال المجتمع في مجموعتين: عليا ودنيا، ويفترض هذا التقسيم أن تكون خصائص أعضاء الجماعات العليا أنهم فاضلون، ودودون، ومتعاونون، وموثوقون، وآمنون... ويُفترض أن تكون سمات أعضاء المجموعة الدنيا أنهم غير ودودين، وغير متعاونين، وغير جديرين بالثقة، وخطرين... وما إلى ذلك[4].فيمثل الانتماء إلى المجموعات الداخلية أو العليا مصدر فخر واعتزاز. أما الانتماء إلى جماعات من خارج هذه المجموعة أي الدنيا، فإنه

[1] كلود ليفي شتراوس: العرق والتاريخ، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، دط، دس، ص 13

[2] المرجع نفسه، ص ص 7-8.

[3]Donald R kinder & Cindy D kam: us against them Ethnocentric Foundations of American Opinion, the University of Chicago press, Chicago and London, 2012, p8.

[4]Ibid, p8.

يشكل مصدر ازدراء وكراهية. على هذا الأساس تشكل المركزية العرقية استعداداً للعمل لصالح المجموعات والاندماج فيها داخل المجموعات العرقية الواحدة، كما نجدها تتعارض مع المجموعات الأخرى الخارجة عنها؛ ومن هنا ترسم مساراً محددا للعوالم الاجتماعية، وقد يشكل نوعا من الصدام والصراع بينها وهو أمر صعب ومحفوف بالمخاطر في بعض الأحيان.

مما سبق يتبين لنا أن المركزية العرقية ليست تعبيرا عن الأعمال العدائية المكبوتة والمخاوف البدائية، فهي ليست مرضا، يتطلب تقنية معالجة للكشف عنه أو القيام بعمليات نفسية لتفسيرها؛ إنما هي أمر طبيعي، أو طريقة "طبيعية" للنظر إلى العالم الاجتماعي، إنها فعل عقلاني[1]؛ وبالاستناد إلى هذا الفعل، فإن العيش ضمن نظام تسود فيه مجموعات عرقية مختلفة تتفاوت في القدرات والصفات، أمر وارد ومؤسس على قواعد نفسية أو اجتماعية طبيعة نابعة من صميم ذات الفرد، فهي ميل ونزعة تُقبل منطقيا وعقليا، وتستند على مبدأ الشعور بالمغايرة أو التفرد ومن ذلك نجد الحديث عن الأصول الأولى أو السكان الأصليين، أو الثقافة الأصيلة في مقابل الدخيلة أو السكان النازحين أو المقيمين الجدد، وفي هذه الحالة نجد أن الأفراد أو الجماعات الاجتماعية يتبنون خطاب العرق الصافي والأصلي في مقابل الأعراق الجنيسة، سواء عن وعي أو لا وعي، مثلما عبر عنها "فرويد" باعتبارها ميل إلى إبراز النرجسية الجماعية الكامنة في لاوعي الأفراد.

تدعم نظرية المركزية العرقية وتنوع الإثنيات عبر التاريخ، فرضيات معللة أخرى، أهمها: "الفرض الديني"؛ ويقصد به تأثير المواقف الدينية على تشكيل مركزية عرقية وتجسيد نظرية الهوية الاجتماعية، التي تزعم أن النعرة العرقية تنشأ من منطلقات: الهوية الاجتماعية، ونظرية الصراع بين المجموعات، التي ترى بأن المنافسة بين المجموعات تؤدي إلى التعصب المتزايد داخل المجموعة الواحدة، والتضامن، والفخر من ناحية، والتحيز والعداء خارج المجموعة من ناحية أخرى. وهذا التمييز بين "نحن" و "هم" يمكن أن يتم لأسباب عديدة، منها على سبيل المثال، الأساس الجنسي والأفضلية السياسية، والانتماء الديني، والخلفية العرقية، وما إلى ذلك، كما يُفترض بأن الدين، على مستوى أكثر تحديداً، له تأثير قوي على المواقف العرقية بين الشعوب، كما تكشف عنه بعض الدراسات الاجتماعية [2]، ومع ذلك، فلا يجب أن نتغاضى عن العلاقة القوية بين الدين والعرق، ومظاهرها الدافعة إلى تفضيل جنس معين على أساس ديني أو متقبل

[1]Ibid, p8.
[2]Dave Dean Capucao: Religion and Ethnocentrism An Empirical-theological Study, Library of Congress Cataloging-in-Publication Data, LEIDEN - BOSTON, 2010, p219.

للسِّمة الدينية في مقابل عرق آخر رافض لدين الأول فيوصف بأنه همجي ومتوحش الرافض، هذا التفضيل لا على أساس حضاري ولكن على أساس ديني.

غير أن، الحجة العرقية للهيمنة والمركزية الغربية، تظل محل انتقاد واسع، على أساس أن هذه النزعة(المركزية العرقية) هي وجه آخر لحركات الاستعمار في العالم، وتبحث عن مبرر لانتهاكاتها واقصاءاتها لباقي المجموعات العرقية، وتصادر حقها المشروع في صنع حضاراتها ونشر ثقافتها، وممارسة حقها في الاستقلالية والتميز، بعيدا عن تلك الأنماط والتصنيفات الجامدة التي وضعها فيها العرق الأبيض، فمن حقها تطوير مهاراتها وذكائها وصفاتها، فتلك الخصال المتدنية التي وُسمت بها، ليست حتمية طبيعية كما يُعتقد ويُروج له من طرف واحد، مثلما فعل الاستعمار الاستيطاني التقليدي، واعتبر بأن الشعوب المستعمَرة، شعوب بدائية وهمجية، جاء الرجل الأبيض ليُمدِنها، ولهذا واجهت رفضا صريحا لأنها عبّرت عن ممارسات استعمارية وحشية مدفوعة بهاجس التفوق العرقي، هذا الرفض الصارخ لكل أشكال التمييز العرقي والتعصب الشديد لجنس من الأجناس على حساب الأجناس الأخرى، أخذ مساحة واسعة من كتابات أصحاب التيارات اليسارية والماركسية المدافعون عن حقوق السكان الأصليين، المستعمرة بلدانهم في العالم الحديث، عندما أخذت النزعات الكولونيالية تنتشر شرقا وغربا، وتبرر ممارساتها القمعية بتصنيفات عرقية وعنصرية مشينة، ومن تلك الانتقادات، نذكر ما كتبه الطبيب النفسي والثائر، فرانتز فانونFanon Frantz(1925-1961) في مصنفه "معذبو الأرض" سنة 1961م، حينما برّر تلك الصورة النمطية عن المجموعات الاثنية الأخرى، التي تشكلت بمخيال الرجل الأبيض والتي تنطوي على مغالطة مصدرها تحايل بيولوجي للذات، يقول:*"كم من مرة رأينا، في باريس أو في أي مكان، في مدينة الجزائر أو في الأرض المستوطنة، أناسا مستعمَرين يحتجون احتجاجا شديدا على الادعاء بأن الزنجي أو الجزائري أو الفيتنامي، إنسان كسول. ونحن لا ندّعي على حال أن الفلاح الذي يتحمس في العمل والزنجي الذي يرفض أن يستريح في ظل النظام الاستعماري، إنما هما شخصان شاذّان مريضان. ولكننا نقول إن كسل المستعمَر إنما هو تخريب مقصود للآلة الاستعمارية. إنه على المستوى البيولوجي، نوع واضح من حماية الذات، وهو على كل حال تأخير أكيد لسيطرة المحتل على البلاد بكاملها"* [1]، إن التمركز العرقي نوع من التحيز لعرق المستعمر، وهو مغالطة زرعها المستعمر (الأوروبي) في أوساط الشعوب الأخرى غير الأوروبية (المستعمَرة)، يعد هذا التمييز نوع من *"الأشكال التافهة والمبتذلة من المركزية العرقية التي تتقاسمها جميع الشعوب في جميع الأوقات، والجهل وعدم الثقة*

[1] فرانتز فانون: معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط 2، 2015، ص ص 236-237

بالآخرين، حتى في الشوفينية وكره الأجانب، لا يدلان على شيء سوى حدود تطور جميع المجتمعات التي كانت قائمة حتى الآن" [1] .

2-التمركز الثقافي، وهيمنة الثقافة الغربية:

بادئ ذي بدء، إن لفظ الثقافة Culture كان معناه في أوروبا (قبل العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر ميلادي) هو النمو الطبيعي للنبات. لكن معناه تغير عبر عدة مراحل وصلته بجملة من المفاهيم، إلى أن أصبح لكلمة "ثقافة" تعريفات عديدة؛ "*ولقد أحصى عالما الأنثروبولوجيا الأمريكيان كروبير Kroeber*وكلوكهون Kluckhohn**، ما لا يقل عن 160 تعريفا "للثقافة" جعلاها في سبعة أصناف: وصفية، وتاريخية، وتقييمية وسيكولوجية، وبنيوية، وتكوينية، وجزئية غير كاملة*" [2]، كما لا ننسى أقدم وأشهر التعريفات انتشارا لمعنى "ثقافة" هو تعريف الأنثروبولوجي الإنجليزي" إدوارد تايلور "Edward Taylor (1832-1917)،الذي قدمه في كتابه (الثقافة البدائية) عام 1871، ذهب إلى أن "*الثقافة أو الحضارة بالمعنى الإثنوغرافي الواسع هي مركب يشتمل المعارف والمعتقدات، والفنون، والقوانين، والأخلاق، والتقاليد، وكل القابليات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان في مجتمع معين*" [3]، غير أن ميزة تعريف كروبير وكلوكهونKluckoh & Kroeberأنه يحمل أبعاد جديدة إذ "*يعتبر أن الثقافة تتكون من نماذج ظاهرة وكامنة من السلوك المكتسب والمنتقل بواسطة الرموز والتي تُكوّن الإنجاز المميز للجماعات الإنسانية، والذي يظهر في شكل مصنوعات ومنتجات، أما قلب الثقافة فيتكون من الأفكار التقليدية، وبخاصة ما كان متصلا منها بالقيم، ويمكن أن نعدد الأنساق الثقافية نتاجا للفعل من ناحية، كما يمكن النظر بوصفها عوامل شرطية محددة لفعل مقبل من ناحية أخرى*" [4]، فالثقافة بهذا المعنى هي بنية تتألف من تراث من المعارف والإبداعات التي ترتبط به، وهي تشمل الفنون والعلوم والمعرفة والتقنية والانفعالات الجمالية، وبهذا تغدو الثقافة قيمة داخلية بالنسبة للحضارة.

---

[1] Samir Amine: Eurocentrism, tra Russell Moore James Membrez, monthly review press, New York, 2009, p177-178.

*ألفريد لويس كروبرAlfred Louis Kroeber (1876-1960) هو عالم في الأنثروبولوجيا الثقافية، اهتم بدراسة علم الآثار واللسانيات الانثروبولوجية ساهم في إيجاد صلات بين علم الآثار والثقافة.

**كلايد كلوكهون Clyde Kluckoh (1905-1960)، هو عالم أنثروبولوجيا ومنظّر اجتماعي أمريكي، اشتهر بعمله الإثنوغرافي الطويل وإسهاماته في تطوير نظرية الثقافة داخل الأنثروبولوجيا الأمريكية.

[2]كروبر وكلوكهون، نقلا عن عماد عبد الغني: سوسيولوجيا الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 2016، ص 26.

[3]ادوارد تايلور: الثقافة البدائية، نقلا عن عماد عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة، مرجع نفسه، ص 28.

[4]عماد عبد الغني: سوسيولوجيا الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 2016، ص 30.

أما المركزية الثقافية، فتعني وجود نظام ثقافي كوني تحتل فيه بنية ثقافية ما مكانا مهيمنة وانتصب نفسها مركز الانبعاث الثقافي والحضاري والقيمي، وتضع ثقافتها فوق كل الثقافات الأخرى، وتتسلل في لاشعور أفراد الثقافات الهامشية، أو الأقل تأثيرا فتجد ثقافة المركز بمثابة المحور ومركز الثقل، التي تستعير منه باقي الثقافات هياكلها وبُناها لما لها من جاذبية، كما نلمس حركية دياليكتيكية من لدن المشتغلين بقضايا التثاقف بين الأخذ بها أو تركها في رد فعل يسعى جاهدا إلى صد ذلك المجال المغناطيسي المنبعث من ثقافة المركز. وتعتبر ثقافة المركز قوة صانعة للتاريخ، تمارس ضغطا وحربا، تغزو فيها باقي الثقافات وتسعى إلى احتوائها، هذه المكانة المركزية هي نتيجة آلية لمركزية المركز الحضارية وهي عملية استبعاد آلية للمضامين الثقافية للهامش، التي تحمل هوية ثقافية ومنظومة من القيم والعادات واللغة والتقاليد والمعتقدات والتاريخ المشترك. فمركزية الثقافة كذلك، "*هي ما يشكله في ثقافة ما، تَرَسُّخ العقائد والفلسفات والعادات وقوانين الملكية والمؤسسات الاجتماعية، التي تعطي التميز الحاسم بين الذات والآخر مضمونة، ويمكن أن نقول باختصار هي الثابت في ثقافة ما بالمعنى النسبي لمفهوم الثابت، الذي لا يجوز التنازل عنه للآخرين على الأقل في زمان ومكان محددين*" [1].

على هذا الأساس فإن المتأمل في التضاريس الخريطة للعالم اليوم، يتبين له أن الثقافات الغربية المعاصرة إنما نبعت من التراث اليوناني والروماني أو امتزجت بتعاليم المسيحية واليهودية المحرفة التي وصلتها...؛ وبالتالي فإن معظم الثقافات السائدة في هذا العصر، تعبر بصور متعددة عن روح الحضارة الغربية الحديثة، التي تتسم بالتركيز الشديد على التكنولوجيا بدلا من التركيز على التفسير، وتوسيع نطاق التفاهم والتواصل بين الناس، ولأجل هذا تم تهميش الاتجاهات الحداثية التأملية والنقدية والجمالية في النفس البشرية[2]، ومن هنا يمكن تعريف مناطق الثقافة الهامشية بأنها: "*منطقة ثقافية متاخمة لمنطقة أخرى تتميز في الغالب بالفقر العام أو بكونها ذات طراز عتيق، أو جماعة ثقافية هجرت بعض تقاليدها المميزة لها، وتقبلت قيم وأساليب الحياة في جماعة أخرى. أما الثقافة الهامشية فهي ثقافة تقطع على تخوم حضارة متقدمة، ثقافة تقطع بجوار ثقافة أخرى، أغنى منها في الموارد والتقنية والثقافة، العامة*" [3]. وفق هذا المنظور فمركز الثقافة هو ذلك الجزء من مجال ثقافي ما، حيث يكون مركب من سمات ثقافية منتهى القوة والكثافة تتجمع في محيط واحد مقارنة بغيرها من الثقافات، ولهذا فإن "*المركز الثقافي فهو المكان الذي تسود فيه سمة أو مركب ثقافي معين*

[1] أبكر آدم إسماعيل: جدلية المركز والهامش قراءة جديدة في دفاتر الصراع في السودان، د م، د ط، ص 10.

[2] عبد العزيز عثمان التويجري: الثقافة العربية والثقافات الأخرى، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو)، ط2، 2015، ص ص37-38.

[3] صالح مصلح أحمد: مرجع سابق، ص 322.

في صورته الأكثر انتشارا" [1]. يعني هذا التعريف أن انتقال الفيض الثقافي من بلدان المركز ليجتاح باقي الكرة الأرضية وذلك بوسائل وتمظهرات بارزة منها تدفق الصور والكلمات، والقيم الأخلاقية، والقواعد القانونية، والاصطلاحات السياسية، بالإضافة إلى معايير الكفاءة، من الوحدات المبدعة على البلدان الهامشية من خلال الإعلام (صحف، إذاعات، وتلفزيونات، أفلام، كتب اسطوانات، فيديو) ويرتكز الجانب الأكبر من الإنتاج العالمي للعلامات في الشمال، أو يصنع في معامل يسيطر عليها أو حسب معاييره[2].

يمكننا الحديث بهذا الخصوص عن سيادة ثقافية للبلدان العظمى بشرط أن نفهم آلياتها جيدا؛ إذ توصف بأنها هبة وليس اغتصاب، على أساس أن المركز يجد نفسه متمتعا بقدرة استثنائية على الهيمنة ثقافيا، فجلي أن "*سوق المعلومات شبه محتكرة لأربع وكالات: اسوسيتيد برس Associated press ويونايتد برس United press (الو.م.أ) رويترز البريطانية Reuters فرانس برس France press وتشترك هذه الوكالات في كافة إذاعات العالم وكافة شبكات تلفزيون العالم، وصحف العالم، ويتدفق 65% من المعلومات العالمية من الولايات المتحدة الأمريكية ومن 30% إلى 70% من البث التلفزيوني مستورد من المركز، وعلى أية حال يستهلك العالم الثالث السينما أقل 5 مرات، الإذاعة أقل 8 مرات، التلفزيون أقل 15 مرة، الصحف الورقية أقل 16 مرة مقارنة بالمركز*" [3]، توضح هذه النسب مسار تدفق المعلومات في اتجاه واحد إلى حد كبير انطلاقا من المركز إلى المحيط أي من موطن القوة إلى التخوم، كذلك الأمر فيما يتعلق بترويج انتشار لغة واحدة على مستوى العالم هي "اللغة الإنجليزية"، وتبذل تلك الدول جهودا حثيثة من أجل إيجاد واكتشاف تكنولوجيا اتصالية تكون سريعة وشاملة، يتم استخدامها لتوحيد بنية وتلبية احتياجات القوى المهيمنة في مركز النظام الحضاري.

كما يمكن قياس حجم التمركز الثقافي وتقديره كميا، من منظور أن فعل التمركز في قلب العالم ليس مسألة مجردة أو خيالية بل هي واقع جلي، يمكن الكشف عنه عدديا واستنطاقه رقميا، هذا ما تبينه الإحصائيات والمنصات الرقمية الغربية، وهو ما لا يمكن إنكاره أو تجاهله، إذ تغيب عن هذه المعادلة ثقافة الهامش لتواضع نسب إسهاماتها في الرصيد الثقافي العالمي، وبالتالي تحولت إلى مجرد متلقي ومستقبل لكل منتجات الحضارة الغربية، هذا ما دلّت عليه النسب والأرقام السابقة. "*من هنا يجد المركز نفسه متمتعا بقدرة استثنائية على السيطرة؛ على أن هذا المنطق الخانق للهبة*

---

[1] المرجع نفسه، ص 81.

[2] سيرج لاتوش: تغريب العالم، ترجمة خليل كلفت، دار العالم الثالث، القاهرة، ط1، 1992، ص 27.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يعمل فيما يتعلق بكافة عناصر الثقافة بالمعنى الواسع وليس فقط فيما يتعلق بالسلع الثقافية بالمعنى الضيق، بل نجده فيما يتعلق بالتغذية والتكنولوجيا كذلك" [1].

واضح أن الثقافة الغربية بسطت سلطتها على المجالين الزماني والمكاني على الأرض، وضبطت آليات حسابهما وتداولهما، فلا ننكر أن الإنسانية بأسرها أصبحت تعيش على التقويم المسيحي وعلى أساس توقيت غرينتشGMT، بالرغم من أن هناك تقاويم أخرى، كالتقويم الهجري الإسلامي، والتقاويم البوذية، وتقويمات أخرى، وهناك تقسيمات أخرى للسنة غير تقسيمات السنة الغربية، غير أن هذه المواقيت ليس لها تأثير على جداول مواعيد الطائرات، والبورصة وحركة الموانئ...وغيرها،*"فالتنظيم العملي يسير لضرورات تقنية على النظام الواحد...ويغدو المثل الأعلى إعادة تسطيح الكرة الأرضية وإلغاء المناطق الزمنية. ولهذا يضبط أعضاء هيئات بعض الشركات المتعددة الجنسيات Multinationalساعاتهم على توقيت مركز شركاتهم، أي على توقيت نيويورك...هكذا يعمّ النموذج الثقافي الغربي الكوكب، فيمكن لك أن تسمع فوق مرتفعات غينيا الجديدة آخر أسطوانة رائجة في نيويورك تنطلق من ترانزستور Transistorوأن ترى في أعماق أدغال جنوب آسيا فلاحا يشرب كوكاكولا، أو أن تلتقي في أدغال إفريقيا بسيارة تويوتا Toyotaيقودها وجيه محلي"* [2]. كما تملأ مطاعم "برغركينج""Burger King"كنتاكيKentucky" "ماكدونالدز""McDonalds"، الشوارع التي تؤدي إلى ميدان الكعبة، وهذا جانب آخر لموجة مكة كولا التي لاحظها كثيرون في مجالات كثيرة ومختلفة، وفي أثناء الشهر المقدس تضاعف كنتاكي مبيعاتها في اندونيسيا أكبر دولة مسلمة في العالم ولا يوجد شهر أكثر ربحية لكنتاكي من شهر رمضان، قد يكون هذا مناقضا لمشاعر الاندونيسيين تجاه الحكومة الأمريكية، لكن منافذ بيع الوجبات السريعة مثل كنتاكي وماكدونالدز تبقى رموزا قوية للتأثير الغربي في اندونيسيا وماليزيا والعالم الإسلامي عامة[3].

من اللافت للنظر كذلك أن *"مفهوم الحدود الثقافية، أتى مع التعليم الكلاسيكي للنخب الأوروبية وتقديرها للتراث الإغريقي اللاتيني؛ وتقسيم العالم إلى شرق وغرب هو جزء من الإرث الكلاسيكي الغربي"* [4]، إذ أن الحديث عن الآخر غير الغربي أصبح يكشف بوضوح، تمركز الأنا الغربية حول جملة من الثوابت أو الطبائع المتناقضة، فيما يختزل

[1] سيرج لاتوش، مرجع سابق، ص 28.

[2] المرجع نفسه، ص ص 28-29.

[3] جان نيدرفين بيترس: العولمة والثقافة المزيج الكوني، ترجمة خالد كسروى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2015، ص187.

[4] المرجع سابق، ص 174.

الآخر سعت الثقافة الغربية الحديثة في كثير من معطياتها، إلى الإعلاء من شأن الذات حينما انصرفت لرسم صورة الآخر[1].

إن العبقرية اليونانية تلقي بظلالها على مفهوم المركزية الثقافية، كونها منبع صدور الفكر الحر والوعي الخلاق بالمشكلات الإنسانية الوجودية والمعرفية والمعيارية، التي أنتجها العقل اليوناني القديم وأبدع في دراستها وتحليلها، ليستطيع بعد ذلك الفكر التنويري الغربي أن يبدأ مسيرة التحديث والحداثة، هذا ما دفع بفلاسفة المركزية الغربية مثل هيجل إلى تمجيد العرق الأبيض وإعلاء هذه الناحية من العالم (الغرب) في مقابل عالم الشرق، مصدر الشعاع الأول. وبالعودة إلى تاريخ الحضارات القديم، نلاحظ أن تأثير وسيطرة أوروبا مرّ بمرحلتين: الأولى امتدت فيها الثقافة الغربية على نطاق كوني كبير بعد 1800م سنة فقط، وذلك منذ ازدهار الصناعة والتجارة وتحسين الملاحة وتنامي القبضة العسكرية، والاستعمار، والامبريالية، كما شمل التأثير الغربي على العالم، ميادين أخرى متمثلة في العلم والقومية وتشكيل مؤسسات الدولة مثل الدساتير والبيروقراطيات الحديثة[2].أما المرحلة الأخرى والتي ازدهرت فيها الثقافة الغربية، فتبدأ ما بعد العولمة المعاصرة سنة 1950 م إلى غاية سنة 2000م، حينما *"أحيت الحرب الباردة تعبير الحرية الغربية (أو العالم الحر) في مواجهة الشيوعية، وبعد نهاية التاريخ وتراجع الحرب الباردة أعيدت للحياة مرة أخرى لكن في مظهر جديد، حيث عادت في صدام الحضارات لبرنارد لويسBernard Lewis(1916-2018)وصمويل هنتنجتون، وقد أخذ المحافظون الجدد الدوليون وإدارة جورج بوشGeorge Bushبهذا الأمر على أنه المعركة الإيديولوجية لجيلنا والحرب الكبرى للقرن الواحد والعشرين"* [3]، لقد حققت الثقافة الغربية والأمريكية بالخصوص؛ على المستوى العملي والفعلي، وعلى المستوى النظري، استحواذا بارزا جدير بالنظر والتحليل. لقد غدت بنية الغرب الثقافية وبخاصة الأمريكية منها نهاية القرن العشرين، أنموذجا متشعبا يتشكل من مزيج من الثقافات الغربية الأخرى (الانجليزية والاسبانية والهندية...) اجتمعت وانصهرت في بوتقة ثقافة جديدة هي ثقافة المجتمع الأمريكي الجديد، فسعت إلى إذابة كل الفوارق والحدود وتوحيد التنوعات الثقافية على أراضيها، فألّفت بين ثقافة السكان الأصليين والمهاجرين واللاجئين والمستقدمين من المستعمرات القديمة.

[1] عبد الله إبراهيم: مرجع سابق، ص 241.

[2] جان نيدرفين بيترس: مرجع سابق، ص190.

[3] جان نيدرفين بيترس: مرجع سابق، ص 191.

لا أحد إذن ينكر أن سلطة الأمر الواقع العالمي، تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الثقافة السائدة ومركز الإشعاع الثقافي، سواء بالمعنى الفيزيائي، الذي قد يحيل إلى التهديد بالخطر أو القتل، أو بمعنى الإشعاع في المجاز الأدبي الذي يعنى انتشار النور الذي يبعث على الأمل وانتظار إضاءة ظلمة الهامش، الواقع في منطقة الظل من العالم، ينتظر بكل صبر وشوق أن تدور ناحيته مصابيح الثقافة الأمريكية لتضيء ما حوله، مثل الشمس التي يستمد منها الكون الحياة. بهذا تنتقل براديغمات المعرفة الأمريكية وأنساقها ومنطقها وقيمها وأخلاقها إلى أطراف العالم، دون أن ننسى خلفيات ومرجعيات هذا التمركز التاريخية الذي هو العبقرية اليونانية كما أسلفنا الذكر وأبعادها الأوروبية التي وصلت إلى المارد الأمريكي. فالمركزية الثقافية تشير إلى الثقافة التي تمتلك هيكلا قيميا ثابتا ونقيا ومتجانسا يعد مصدر الكل الثقافات الأخرى بوصفها ظواهر تشكلت تاريخيا، ومن ثم فهي بنى قابلة للتعديل (أي جدل الأصل والفرع)[1]، إذن إن التمركز الثقافي يتعارض مع مفهوم التنوع الثقافي الموجود، ويتجاوز فكرة الثقافة الموازية أو المساوية لها في القوة والشدة، بل إنها مركز الثقل والشدة ومبدأ القوة والفعل، ومصدر الإلهام والطاقة الفكرية التي تنتشر على نطاق واسع ويصل مداها إلى أبعد نقطة في العالم. وعلى هذا الأساس فإن الثقافة المركزية تشكل إمبراطورية فكرية ونموذج إمبريالي فريد، ومنه فإن *"مفهوم الإمبريالية الثقافية في حدود هذا المعنى يصف اليوم خير وصف، مجموع العمليات التي تستخدم لإدخال مجتمع ما إلى النظام العالمي الحديث وكيف تتم استمالة الطبقة المهيمنة فيه والضغط عليها وإجبارها ورشوتها أحيانا كي تشكل المؤسسات الاجتماعية في اتساق مع قيم المركز المهيمن في النظام وبناه أو حتى الترويج لها"* [2].

إن الثقافة المتمركزة حول نفسها تعد مصدر إلهام لباقي الثقافات والشعوب، فتجدها تنتشر بين ثنايا الثقافات المحلية دون وعي أصحاب تلك المنظومات، بل هي بمثابة "القوة الناعمة" أو الساكنة والخفية التي تنتقل دون إحداث ضجيج أو جلبة، وهكذا فالحديث على هذا النمط المركزي لمفهوم بنية المركز ومفهومه لن يستقيم إلا باتخاذ نموذج ثقافي سائد تُستخرج منه شروط التمركز الثقافي والحضاري، أو قل "قوانين التمركز الثقافي"، فمركز العالم الثقافي اليوم هو أمريكا التي تحمل سمة العالمية والانتشار الواسع المتجاوز للحدود، ما وراء الجغرافيا، وهنا تفرض مقولة العولمة نفسها، لأن الحديث عن ثقافة مركزية معناه ثقافة عالمية سائدة تدور حولها جميع ثقافات العالم، ولا يستقيم وجودها واثبات ذاتها إلا في مقابل مركز ثقافي آخر مغاير لها. إنه الصراع من أجل إثبات الذات في مقابل الآخر، سواء

[1] سمير الخليل: مرجع سابق، ص279.

[2] هربرت شيلر: الاتصال والهيمنة الثقافية، ترجمة وجيه سمعان عبد المسيح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 2007، ص 25.

بمحاكاتها ومجاراتها أو بمقاومتها، فكلاهما يساهم في تشكيل ثقافة الذات الأخرى الهامشية بالنسبة للثقافة المركزية، *"لكن عملية التجانس الثقافي والإيديولوجي للعالم لا تنتجها أمة واحدة بل يمارسها نظام متكامل من قطاعات وطنية مختلفة، يرافقه الالتزام بشكل محدد من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي"* [1].

إن المركزية الثقافية هي نسق ثقافي ما، محمل بمعاني ثقافية دينية، فكرية، وعرقية تكونت تحت شروط تاريخية معينة، وتعني أيضا اعتبار معطياته الثقافية على إنها الأفضل، استنادا إلى معنى محدد للهوية قوامه الاستمرارية وإنتاج ذات وهوية اجتماعية وثقافية متجانسة، في مقابل الثقافات الأخرى، فتقوم هوية الثقافة المتمركزة بطمس كل المعالم التي تتعارض مع مفهوم الهوية كما أنتجتها تلك الثقافة واستبعادها بحيث تجعل الهوية أسيرة شبكة من المفاهيم الخاصة بها، فتعمل على حمايتها من المتغيرات التاريخية.

ثالثا: مركزية الكوجيتو من الإنسان إلى العقل

1-مركزية الإنسان في الكون Anthropocentrism

مركزية الانسان هي نزعة فلسفية تجعل من الإنسان مركزا للعالم وغاية قصوى في منظومة القيم والغايات، وتجد هذه النزعة الفلسفية أساسها الكوسمولوجي في مركزية الأرض مثلما وجدت في الفكر الإنسي تسويغها الفلسفي، كما يقول توماس كون: *"نلاحظ أن فكرة كروية أو استدارة الأرض وأجسام الكون كانت هي السائدة، وأن الإنسان هو مركز الكون على هذه الأرض حيث أنه أرقاها وأكرمها خلقا حسب الاعتقاد الشائع"*[2]، وفق هذا التصور أصبح الإنسان في فكر رواد هذه النزعة، *يتمحور حول الاهتمام بالإنسان، أي حول الخبرة الإنسانية باعتبارها نقطة البداية في معرفة الإنسان لنفسه، ولله، وللطبيعة. فأصبحت الحياة الإنسانية والارتقاء بها وممارستها على نحو يلبي الاحتياجات البشرية، هدفا في ذاته -تبلور هذا الموقف تاريخيا في عصر النهضة الأوروبية-. لقد كان مشروع النزعة الإنسانية، إذن*

[1] المرجع نفسه، ص 21.

[2] توماس كون: بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة 168، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1992، ص 262.

موجها للتحرر من أسر عالم العصور الوسطى وقيوده وخرافاته، دفاعا عن حق الإنسان في أن يمتلك الحرية لتحديد مشروع حياته بطريقة مستقلة"[1]. تأسس إن هذا الاتجاه على الفكرة القائلة بأن الإنسان أعلى قيمة في الوجود إلى جانب رغبته في الانطلاق نحو فهم الوجود الإنساني، فبرزت هذه الحركة الفكرية مع توجهات الفلسفة القديمة، وأخص بالذكر الفلسفة اليونانية التي شهدت منذ القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد تحولا جذريا في موضوعات الفلسفة، عَدَّت الإنسان موضوعا معرفيا وانطولوجيا في آن واحد فاحتل الإنسان مركزية الفكر الفلسفي وأصبح هو الموضوع الرئيسي، بل والمعيار الذي تقوم عليه الفلسفة وهذا بدءًا من تصورات الفلاسفة السوفسطائيين، حينما أعلن بروتاغوراس بأن الإنسان مقياس الأشياء جميعا، وهو تأكيد على مكانة الإنسان ومركزيته الفكرية بعدما كان البحث متمركزا حول الطبيعة ونشوء الكون مع الفلاسفة الطبيعيين؛ هذا التوجه تَدعم أكثر مع سقراط الذي وُصف بأنه هو من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، أي تحول الفكر من السؤال عن العلة الكامنة وراء تنوع الموجودات، إلى السؤال حول قدرات العقل البشري على الكشف عن الحقيقة، ليستمر الاهتمام بالإنسان في الفلسفة الهلنستية التي واكبت التوسع الروماني في العالم القديم، من خلال بحث فلاسفتها عن السعادة وسبل تحقيقها فجعلت من الإنسان غاية في حد ذاته. ولهذا جاء تعريف مركزية الإنسان في المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية، بأنها: "*كل نظرية تجعل الإنسان مركزا للعالم وغاية يخضع لها كل شيء وتختلف عن مركزية الذات أو الأنا التي تجعل صاحبها ينظر إلى الأمور من وجهة نظره وحدها*"[2]، عدّ الإنسان حسب هذه النزعة محور الوجود مصيره وسعادته بيديه، إنه تاج الخليقة وسيد الكائنات نفس التصور لمفهوم مركزية الإنسان أشار إليه "اندريه لالاند" و "جميل صليبا"، حينما اعتبر الأول أن "*المذهب المركزي الإنسانوي هو الذي يجعل الإنسان مركز العالم، ويعتبر خير الإنسانية بمنزلة العلة الأخيرة لباقي الأشياء*"[3]؛ أما الثاني فيرى أن "*مركزية الإنسان هي المذهب الذي يجعل الإنسان مركز العالم ويعد خير الإنسانية علة غائية لكل شيء، والإنسان المركز* Anthropocentric *هو الذي يميل إلى تبني هذا الاتجاه*"[4]،على هذا الأساس فإن النزعة التي تجعل من الإنسان محور ومركز الوجود تقوم على الاعتراف بأن الإنسان هو مصدر المعرفة وموضوعها.

---

[1] عاطف أحمد: النزعة الإنسانية في الفكر العربي (دراسات في النزعة الإنسانية للفكر العربي الوسيط)، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، القاهرة، د ط، 1999، ص ص 10-11.

[2] إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي (مجمع اللغة العربية)، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، دط، 1983، ص ص 180،181.

[3] أندريه لالاند: مرجع سابق، ص 74.

[4] جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، ج2، دط، 1982، ص 365.

أما في عصر النهضة، فلقد ظهر فلاسفة كثر يجعلون من الإنسان مركزا فكريا أمثال: بترارك Pétrarque (1304-1370) أب الإنسانية -كما يدعى-،وبوغيو Boghiu، ولورنت فالا Laurent Valla (1407-1457)،ايراسم Érasme (1466-1536)،وبوديه*...، الذين يعودون بالأسس الفكرية للنزعة الإنسانية إلى فلاسفة اليونان من أمثال: طاليس وكزينوفان وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأبيقور...وغيرهم، كما لا ننكر عودتهم إلى الإرهاصات الأولى لهذه النزعة في الفكر الشرقي القديم والبحث في تراث الآسيويين كالهنود والصينيين والفرس أمثال: بوذا وكونفوشيوس وزرادشت، يقول "لالاند" في هذا السياق: "*ليست الإنسانوية حب العصر القديم وحسب، إنها عبادته، العبادة المدفوعة بعيدا لدرجة أنها لا تكتفي بالعبادة بل تبذل جهدا في سبيل التكاثر، وليس الانسانوي هو الإنسان الذي يعرف القدامى ويستوحي منهم بل إنه ذلك الذي يكون منبهرا منسحرا بنفوذهم وسحرهم لدرجة أنه يقلدهم حرفيا، يحاكيهم، يكررهم، يتبنى نماذجهم، أمثلتهم، ألهتهم، روحيتهم ولغتهم*"[1].يتبين لنا من هذا التعريف، أن هذه النزعة الإنسانية كان الغرض منها صرف النظر عن الدين كمركز للعالم وللمعرفة وللقيم، وجعل الإنسان هو المركز بغرض إلغاء التوجه نحو السلطة الدينية متمثلة في المسيحية، -كما يقول لالاند-فهذه الحركة مدفوعة إلى أقاصيها المنطقية لا تنزع إلى شيء أقل من إلغاء الظاهرة المسيحية[2]. إن الإيمان بمركزية الإنسان في إطار النزعة الإنسانية يعني تشكل تصور عام للحياة السياسية والاقتصادية والأخلاقية، يقوم على الاعتقاد بخلاص الإنسان بقوى البشرية وحدها عكس الاعتقاد في المسيحية أن خلاص الإنسان بقدرة الله وحده وبالإيمان. ولعل هذا ما عناه فرنسيس بيكونFrancis Bacon(1561-1626) لما قال: "*أريد في النهاية...أن أسلّم الناس ثروتهم، عندما يكون فهمهم قد تحرّر من الوصاية وبلغ سن الرّشد، ويترتب ضرورة عن ذلك تحسن حالة الإنسان وبسط سلطانه على الطبيعة، ذلك أن الإنسان إثر سقوطه خسر حالة البراءة وخسر في الوقت ذاته سيادته على الخلائق، وبقدر كبير كلتا الخسارتين يمكن تعويضهما في هذه الحياة، الأولى بالدّين والإيمان والثانية بالفنون والعلوم*"[3]، بهذا يكون إنسانيو عصر النهضة قد دافعوا عن حرية الفكر والنشاط الإبداعي، ودعوا إلى استقلال السياسة والمجتمع والثقافة والعلم عن الكنيسة ورجال الدين. وجعل الدين على هامش الساحة الفكرية والمعرفية والدفع بالتيار الإنساني ليكون في طليعة المصادر القيمية وبذلك يصبح الدين نوعا من المراحل المتأخرة عن الانطلاقة الجديدة لتفرد وتميز الذات الإنسانية،

* ورد ذكرهم في المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية، إشراف إبراهيم مدكور، ص 174.

[1] أندريه لالاند: مرجع سابق، ص 566.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] Francis Bacon: Novum Organum, Nouvelle Traduction en Français, Par Loriquet, Librairie de L'Hachette et Cie, Paris, 1857, P 215.

والذي ظل يرمز إلى مرحلة قمعية تتميز أفكارها بالاستبداد ومصادرة حرية الأفراد .كما إن الباعث الرئيس لجعل الإنسان مركز المعرفة والقيم ومحور التنظير السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي أو الاستناد إلى الإنسان الفرد كذات ذو قيمة ثابتة في الوجود، هو سعي هذه النزعة الحثيث نحو البحث عن السعادة وتحقيق الوعي الكامل والدفع بالإنسان إلى استقلالية إبداعاته بعيدا عن سلطة الديني.

لقد اكتسبت النزعة الإنسانية معنى فلسفيا ومذهبيا أكثر*، تحديدا أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وأصبحت تدل على تيار فكري وثقافي عام يمثل مختلف ميادين الآداب والفنون والفلسفة، ثم تحول إلى نوع من الثورة الثقافية نشأت عن الاهتمام بالموروث القديم أي التراث الاغريقولاتيني، فأصبح المفكر الإنساني يقصد به الباحث عن نموذج الكمال والمعتنق لمذهب المركزية الإنسانية؛ إن هذا المعنى التاريخي السالف الذكر يعد بمثابة أول نسق إيديولوجي محوره الإنسان عبّر من خلاله رواد هذه النزعة والأيديولوجيا على تمردهم على ثقافة القرون الوسطى ونظرتها إلى الثقافة والكون والإنسان وكذا مجمل العلاقات الاجتماعية. وهنا نشير إلى إسهامات فلاسفة النزعات المعاصرة، وأخصها الوجودية في ألمانيا وفرنسا أمثال كارل ياسبرز*Karl Jaspers*(1883-1969)، وغابريل مارسيل *Gabriel Marcel*1889-1973)، وإلى جانب هذه النزعة الإنسانية المؤمنة نجد نزعة إنسانية ملحدة، مثلها كل من جون بول سارتر*Jean-Paul Sartre)* 1905 -1980)، ومارتن هيدجر *Martin Heidegger* (1889 -1976)، والتي تعني التمرد على الله من أجل العناية بالإنسان.

إن فكر "مركزية الإنسان" يجعل الإنسان محور الفكر والثقافة والقيم بعد أن كان مهانا ومهمشا وكرامته منتهكة باسم التفويض الإلهي، فهذه الايديولوجيا استطاعت التحرر من مركزية الدين وسلطة رجاله وظلم محاكمه والتوجه إلى اعتبار الإنسان مركز الوجود ذو قيمة سامية ومن ثمة البحث في المجال المعرفي عن مصادر أخرى للحقيقة غير شُراح الوحي المأذونين، فساهمت هذه النزعة في وضع أولى لبنات ميثاق حقوق الإنسان[1]. هذه النزعة اليوم أصبحت تتغنى بمضامين سياسية واجتماعية جديدة بفضل ما أصبح يوفره العلم من إمكانات للبشرية، فبعد أن كانت تتصف بالعموم وحمل هموم الإنسانية جمعاء والتعبير عن آمال الإنسان ونبذ التمييز، في مرحلة سابقة من التنوير

* أشار إلى هذا عبد الرحمان بدوي في كتابه "الإنسانية والوجودية في الفكر العربي" في شرحه لمصطلح النزعة الإنسانية وجد أن له معنيان: الأول تاريخي، والآخر مذهبي وهو ما تردد كثيرا على ألسنة وأقلام المذهب الوجودي ، وميزته أنه لا يعتمد على تجربة روحية تاريخية، بل على مذهب قائم برأسه في فهم الوجود على أساس أن مركز المنظور فيه هو الإنسان، وأن الوجود الحق أو الوحيد هو الوجود الإنساني، حتى صار شعاره: من الإنسان وإلى الإنسان بالإنسان" عبد الرحمان بدوي: الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1982، ص ص 15،16.

[1] عبد الرزاق الدواي: موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر (هيدجر، ستراوس، فوكو)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1992، ص ص 189-191.

والحداثة، إلا أنها اليوم جدّدت وحدّثت خطابها، فغذى خطاب مركزية الإنسان، جزءا من المشروع الحضاري الذي تحمله القوى العظمى من الدول ودليل على قوتها، إذ أصبحت هذه الدول تخص مواطنيها بمكانة أساسية ومرتبة رفيعة في سلم الجنس البشري سواء من خلال الحقوق أو الحريات أو الأولويات، فأصبحنا نتحدث اليوم عن الفرد الأمريكي والفرد الياباني والصيني والألماني...الخ، وأصبحت كل دولة تتغنى بحماية مواطنيها سواء على أراضيها أو خارجها، كما قال المسيري: "...فبدلا من مركزية الإنسان في الكون، تظهر مركزية الإنسان الأبيض (أو الأصفر، أو البني...)في الكون، وبدلا من الدفاع عن مصالح الجنس البشري بأسره يتم الدفاع عن مصالح الجنس الأبيض، ومن ثنائية الإنسان /الطبيعة /المادة، تظهر ثنائية الإنسان الأبيض/الطبيعة/المادة، وبدلا من الاحتكام للقيم الإنسانية، تستخدم القوة، ويصبح همّ هذا الإنسان الأبيض هو غزو الطبيعة المادية والبشرية وتوظيفها لحسابه واستغلالها بكل ما أوتي من إرادة وقوة"[1]، فهذا المخرج للمركزية الإنسانية، ينم عن تحيز عرقي ضيق يزيح الإنسان النوع ويضع الفرد بخاصة الأبيض محله، وما هذا إلا نتيجة حتمية لمشروع العلمانية الشاملة حسب المسيري، التي لا تختلف عن المشروع الامبريالي الغربي الذي بدأ –كما ذكرنا سابقا– بإزاحة الإله عن مركز الكون ووضع الإنسان في مكانه.

2-مركزية العقل في الإنسانLogocentrisme:

يعود الأصل الاشتقاقي لمفهوم اللوغوسنتريزم "logocentrisme"إلىlogosويعني في الأصل الكلمة أو العقل، والخطاب. و centrum والتي تعني في اللاتينية نقطة الارتكاز التي تقع بين المسافة نفسها قياسا إلى الحواف؛ مضافا إليهماism أوisme والذي يفيد النزعة أو المذهب. هكذا فإن كلمة"logocentrisme"تعني في دلالتها الأولى نزوع خطاب ما للانغلاق على ذاته، وعَدِّ مسلماته ومقدماته مرجعا لصلاحية ومشروعية هذا الخطاب، وتستخدم كلمة "logocentrisme"أو "مركزية العقل" بهذا المعنى في وصف كل خطاب يدور على نفسه ويجعل مما يقدمه مضمونا، هذا المضمون هو ذاته مرجعا لإثبات وتأكيد ذاته. ورغم أن نحت هذا المفهوم وتوليده قد تمَّا في عشرينيات القرن الماضي؛ إلا أن ذيوع استعماله لم يبدأ إلا في السبعينيات وتحديدا مع الفيلسوف الفرنسي جاك دريداJacques Derrida1930-2004 الذي اعتمده لنقد وتحليل التراث الفلسفي والأخلاقي الغربي، غير أنّ المفهوم مع "ديريدا" لم يبق بالمعنى القديم، بل تحوّل ليصير دالاً على معنى أعمّ، إذ أصبح وصفاً يُستعمل للدلالة على

[1] عبد الوهاب المسيري وعزيز العظمة: العلمانية تحت المجهر، دار الفكر، دمشق، ط 1، 2000، ص 125.

البنية العميقة التي تحكم تمثّل الفكر الغربي لماهيّة اللّغة والخطاب*،وهي البنية التي تعتبر في اللّغة أنها الكلام الحي، في حين لا تعدّ الكتابة إلّا تعويضاً عن هذا القول الحيّ، فقيمة المكتوب –وفق هذا التصوّر– لا تأتي إلّا من كونه محاولة حفظ قول لم يكن من الممكن الإبقاء عليه حيّاً، حين غاب صاحبه. في هذا الإطار، وبهذا المعنى فإنّنا لا نقرأ النصّ المكتوب ذاته، ولا نعدّه مادة، تحمل قيمة في ذاتها، بل نقرأه بِعدِّه وسيطاً، تمّ التوسل به لأجل شيء يتجاوزه؛ إذ هو مجرّد نسخة عمّا قاله الكاتب، ولم يجد سبيلاً لحفظه إلّا الكتابة. هناك –إذن–تراتب قيمي وزمني بين الفكر والكتابة، فالكتابة لا تأتي إلّا بعد الفكر والكلام، والمكتوب مجرّد نسخة عن القول، نسخة ميتة، ميزتها الوحيدة هي قدرتها على الحفظ، ولكنّه حفظ ناقص، حفظ قد يخون؛ لأنّه يضيّع جزءاً كبيراً من حياة المعنى[1]. وعموما فإن تشكل هذا التصور لدى هاته النزعة كان نتاجا للمنعطف اللغوي الذي أحدثه الفلاسفة ونتج عنه استبدال مركزية الإنسان باللغة**[2].

هكذا نشأت مركزية الكلمة في الفكر الغربي، وهي أطروحة تبناها البنيويون خاصة "دي سوسير Ferdinand deSaussure(1857– 1913)، يُقصد بها أن الكلام متميز ومتفوق على اللغة المكتوبة وأسمى منها، ذلك لأن الكلام طبيعي ومباشر وغني بالدلالات، وهو الأداة الأساسية للتواصل والتبليغ، أما اللغة المكتوبة أو الكتابة فأقل طبيعية وأكثر اصطناعية منه؛ لأنها لاحقة عليه. يقول دريدا :" *إن ما نطلق عليه "اللغة" لم يكن في أصله وغايته إلا لحظة، أو نمطا، أو ظاهرة، أو مظهرا، أو نوعا من الكتابة... وهي مغامرة تختلط بالتاريخ الذي يربط*

* كما ورد في كتاب " La vérité en peinture" لـ جاك دريدا سنة 1978، نقلا عن موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة، محمد سبيلا ونوح الهرموزي، مرجع سابق، ص 447.

[1] محمد سبيلا ونوح الهرموزي: مرجع سابق، ص ص 447-448.

**حسب ميشال فوكو*Michel Foucault*، نتج عن هذا الانعطاف المعرفي، أن تحول الاهتمام من دراسة أوجه التماثل بين الأشياء، وهي الميزة التي شكلت المحور الأساسي لإبستيمي عصر النهضة، إلى دراسة العلامة في العصر الكلاسيكي، لذا أصبحت الإشارات ذات أهمية بالغة مقارنة بما كانت عليه في السابق. إذ يقول: "*لقد كانت فيما مضى وسائط معرفة، ومفاتيح من أجل المعرفة، وقد امتدت الآن لتشمل التمثيل (التصور) أي للفكر بأجمعه، فهي تسكنه لكنها تجوبه في كل امتداده، فما أن يكون تمثيل مرتبط بآخر، وتمثل في ذاته، هذه الرابطة تكون هناك إشارة*". ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صفدي، سالم يافوت وآخرون، مركز الإنماء القومي، لبنان، د ط، 1990، ص75.هذا التحول إلى الخطاب عبر عنه كذلك "رولان بارت Roland Barthes" في كتابه (عناصر الدلالة) بقوله: "أننا أكثر من الأزمان السابقة نعيش حضارة الكلمة المكتوبة". نقلا عن كريستوفر نوريس: التفكيكية النظرية والممارسة، ترجمة صبري محمد حسن، دار المريخ للنشر، الرياض، ط1، 1989، ص71.

التكنيك بميتافيزيقا قائمة على مركزية اللوغوس، منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام. وهي الآن على وشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة...وهو ليس إلا مثالا بين أمثلة أخرى، في موت حضارة الكتاب"[1].

أما من وجهة نظر دريدا فإن التوجه الذي يرى بأنّ الكلام الحيّ أهم وأسمى من الكتابة، توجه لصيق بالثقافة الغربيّة منذ أن وجدت، إلا أنه تطور مع أرسطو حين اعتبر أن الأصوات دوالا ورموزا مباشرة عن أحوال النفس فالصوت عنده موصول بالروح عكس المكتوب ذو الشكل الميت والجامد[2]. إذ يرى دريدا أن هذا التعصب للتمركز الصوتي Phonocentrique" *إنما يرتبط ارتباطا وثيقا بالبنية التحتية للمعطيات التي تربط مشروع ديسوسير بالميتافيزيقا الغربية، ولما كانت الكتابة تُعامل بأنها مجرد تحقيق كتابي أمين لا أكثر ولا أقل لعناصر الكلام، فإن آثار الكتابة يمكن احتوائها بسلام وأمن داخل إطار ذلك التقليد الشامل"* [3].

هكذا يتجلى لنا أمر التفكير داخل المركزيات فاستحواذ فكرة أو نظرية ما على اعتقاد الفيلسوف جعل منها محور الحقيقة، وما خلفها مجرد محاولات ثانوية للفهم لا ترقى إلى درجة المركز أو الأصل. وعلى هذا المنوال عبّر أفلاطون عن استصغار وذم الكتابة بوصفها وسيلة اتصال مُهجّنة، "*إذ أنها بانفصالها عن أبيها أو عن لحظة الأصل تتيح المجال لكل أنواع سوء الفهم وسوء التفسير لأن المتكلم ليس موجودا ليفسر للمستمع ما يدور بذهنه"* [4]،إن إشارة أفلاطون إلى الكلام أو الصوت بأنه أبو الكتابة يعكس توجه أفلاطون نحو مركزية الصوت واعتباره الأصل والحامل لكل سمات الكلام أما الكتابة فهي الابن أو الفرع الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون صورة تامة ومطابقة للأب، ومن اللافت للنظر هنا، أن أفلاطون تأثر بمنهج المحاورات وتوليد المعرفة السقراطي الذي جاء تراثه المعرفي سمعيا تناقله عنه محاوروه. ساهمت هذه الطريقة–الحضور أثناء الكلام–في نظر أفلاطون في إيصال المعنى الحقيقي من وراء فلسفة سقراط، وقد حاول أفلاطون في محاوراته محاكاة هذا الضرب من نظام الإرسال والتلقي، مفترضا ثنائية المرسل/المتلقي التي تنظم الفعل الاتصالي: سقراط بوصفه مرسلا في مقابل مجموعة من المتلقين أي المحاورين، الذين يتغيرون حسب المقام والحاجة التي يريدها المحاور.

---

[1] جاك دريدا: في علم الكتابة، تر أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2008، ص 68.

[2] محمد سبيلا ونوح الهرمزوي: مرجع سابق، ص 444.

[3] كريستوفر نوريس: مرجع سابق، ص 76.

[4] جون ستروك: البنيوية وما بعدها، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1996، ص 193.

وإذ يؤكد "دي سوسير" تأكيدا قويا على مركزية الكلمة، فيعطي الكتابة مكانة ثانوية مقارنة مع الكلام ويرى أن هدف التحليل اللغوي ليس هو الأشكال المكتوبة والمنطوقة فقط، وبالتالي فما الكلمة إلا مجرد وسيلة لتمثيل الكلام، ووسيلة تقنية وواسطة خارجية، لذا فلا حاجة لأخذها بعين الاعتبار عند دراسة اللغة. يقول دي سوسير: *"اللغة والكتابة نظامان متميزان من الإشارات والهدف الوحيد الذي يسوغ وجود الكتابة، هو التعبير عن اللغة؛ لمن هدف علم اللغة هو الأشكال المنطوقة, بيد أن الشكل المنطوق يرتبط ارتباطا وثيقا بالصورة المكتوبة، ويهتم الناس بالصورة المكتوبة للإشارة الصوتية أكثر من اهتمامهم بالإشارة نفسها وهذا خطأ؛ إن هذا الوهم موجود منذ أقدم الأزمنة ينعكس في الآراء، التي كثيرا ما نسمعها الآن عن موضوع اللغة"*[1]. إن "دي سوسير" يؤسس إلى مركزية الكلام في مقابل هامشية الكتابة، بناءً على عدة اعتبارات يراها كافية لجعل الكلام محوريا في الدراسات اللغوية، كون الكتابة تؤدي إلى سوء الفهم ويغيب عنها الصدق كما أنها تطمس بعض معالم اللغة الطبيعية المحكية، هذا ما جعله يتكلم عن مخاطر الكتابة، وأنها تخفي وتغتصب أحيانا دور الكلام الذي كان يمكن أن يكون وسيلة اتصال مباشرة بين المتكلم والمستمع، فيفهم الأخير ما يدور في ذهن الأول بالضبط.

هذه النظرة لموقع الكلام في الدراسات اللغوية عند "سوسير" يراها "دريدا" نظرة تفكيكية، ضاربة في القدم في التراث الغربي من الفكر اللغوي، فعادة ما اعتبر الكلام وسيلة اتصال طبيعية مباشرة بينما الكتابة هي واسطة غير مباشرة، فالمتكلم والمستمع حاضران كل منهما للآخر حضور فعلي في الحاضر، فيصل المعنى مكتملا غير منقوص، أما الكتابة فتتكون من علامات فيزيائية منفصلة عن الفكر الذي أنتجها، وهي تؤدي مهمتها في غياب المتكلم والمستمع بهذا قد تكون الكتابة شكلا من أشكال التحريف والتشويه وهذه النظرة قديمة قدم الفلسفة[2].

تكشف أعمال "جاك دريدا" التفكيكية أن الحضارة الغربية نهضت حول العقل والمنطق، ومن مقولاتها الأساسية التمركز حول العقل Logocentrisme، أما الهدف من هذا البرنامج التفكيكي هو نقد سلطة العقل والمنطق في الفلسفة الغربية. يذكر "عبد الله إبراهيم" في المركزية الغربية، أن عناية دريدا بالفكر الفلسفي وكشوفاته اللسانية والبنيوية جعلته ينهض بمهمة تدشين مشروعه في تفكيك بنية الفكر الغربي مستعينا بالوسائل المنهجية القادرة على كشف تناقضات تلك البنية، وتركها تكشف عن تناقضاتها بنفسها، معتمدا على شبكة مقولاته الأساسية ومنها

[1] فرديناند دي سوسير: علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، د ط، 1985، ص 42.

[2] جون ستروك: مرجع سابق، ص 221.

الاختلاف الذي يمارس من خلاله نقدا لمطابقات الفكر الغربي ونزعته التمركزية[1]. إن هدف دريدا من وراء هذه الدراسة هو كشف جملة الممارسات الإقصائية التي تعرضت لها الكتابة في الفكر الغربي والإعلاء من شأن الكلام، بذلك احتل العقل في الميتافيزيقا الغربية مكانة سامية في البنية الثقافية المحايثة للثقافة الغربية، والواقع أن الأمر لم يقف عند الحد المباشر لهذا المفهوم باعتباره آلة التفكير، إنما تجاوزه إلى كونه القوة المنظمة للعالم، فنظر إليه بوصفه مبدأ ثم بوصفه نظاما متغلغلا في الظواهر الكونية ثم بوصفه خالقا، وبهذا نُظر إليه على أنه مفهوم يحكم العالم فجعلت الممارسة الفكرية العقل هو المركز وما العالم إلا أحد تجلياته اللانهائية، بمثل هذا النظام أنتجت الممارسة الفكرية حول اللوغوس تمركزا عقليا صلبا جدا أقصى كل ممارسة فكرية لا تمتثل لشروطه[2].

استنتاج:

مجمل القول، أن العلاقة التفاعلية والتصادمية بين المركز والهامش، سواء على مستوى النظام الكوني الطبيعي سواء اللّامتناهي في الكبر أو اللّامتناهي الصغر، أو على مستوى النظام الإنساني الحضاري والثقافي والمعرفي، أقل ما يقال عنها أنها متوازنة، ومنتظمة، يساهم فهمها العلمي في توصيف تلك الظواهر وسبر أغوارها بالتحليل والاستقراء، كما يمكن استجلائها من خلال الإحاطة بجملة القواعد والشروط، وكذا الأسس العلمية، التي تمكننا من المقاربة المنهجية والعلمية بين الظواهر الفيزيائية، والظواهر الإنسانية. إن هذه الثنائية جعلت من الشمس مركز المجموعة الشمسية، تدور حوله الكواكب في مدارات بيضاوية هامشية على شكل قطوع ناقصة بفعل القوة الثقالية، كما جعلت من النواة داخل الذرة هي الكيان الأهم الذي يضبط منظومة الجسيمات في مسارات محددة، قد تُقذف خارج مداراتها وتهيج في انشطار نووي، مكتسبة طاقة محررة. هكذا إذن نجد في قوانين الفلك والفيزياء أساسا رئيسا في إدراك وفهم محددات التمركز الكوني وسحبها على مختلف النظم المعرفية والإنسانية، التي ما فتئ يشكلها الإنسان على منظور محوري يكون هو أساسه بيولوجي في المركزية العرقية، وثقافي من منظور الانثروبولوجيا الثقافية، دون أن ننسى النزعة الإنسانية التي جعلت من الإنسان مركزا في الكون مستبعدة سلطة اللاهوت ومزيحة القداسة عن الإله. كما يحتل العقل أو الكلمة (اللوغوس) مكانة مركزية في فلسفة اللغة في مقابل الكتابة. لتنطلق بعد ذلك فكرة المركزية وتخرج من النطاق الطبيعي إلى الظواهر الإنسانية المختلفة التي بات يشكلها الإنسان باستمرار في أنساقه المعرفية. وعليه فإن فرض المركزية الحضارية، نراه يتحقق تباعا، داخل كل تلك الأحداث الجيوسياسية، وبناء الأحلاف والتكتلات، فقلب

[1] عبد الله إبراهيم: مرجع سابق، ص 321.

[2] المرجع نفسه، ص 325.

العالم يأبى أن ينبض في أكثر من مكان، بل لا يمكن أن يكون للجسد الواحد قلبان، كذلك النظام الكوني المتناظر بالنسبة إلى نواة طبيعة واحدة، سواء كان النظام فلكيا أو فيزيائيا أو حتى بيولوجيا؛ فالطبيعة تأبى إلا أن تكون منتظمة ومتناظرة، كذلك عالم الأمم الحضاري والثقافي، فعادة ما نجد الأمم تتجه وتتكتل حول مركز حضاري أقوى.

الفصل الثاني

فرضية المركزية الأمريكية المعاصرة

تقديم:

نسعى في هذا الفصل إلى عرض القراءة التحليلية لفرضية المركزية الحضارية، بالنظر إلى مفاهيم ونظريات فلسفة التاريخ والحضارة، وجعل هذه القراءة مرجعا وقاعدة لفهم منطق المركزية الأمريكية، الذي يتحكم في العلاقة بين المركز وأطرافه، من خلال توظيف التحليل المقارن للأسس التي تقوم عليها المركزيات العالمية من منظور فلاسفة الحضارة، إذ أننا نفترض أن يكون خطابا وجيها وفاعلا، يستمد فاعليته من الضرورات والدوافع التاريخية التي تفرضها التحديات الاجتماعية أو السوسيوثقافية. ولا شك أن موضعة المركزية الحضارية لكل أمة في أطرها الزمكانية المحددةّ، يرتكز ولابد على منظومة شروط وأسس وقواعد بنيوية تعتبر ثابتا أساسيا من ثوابت التسيد والهيمنة التاريخية، وكذا نعتبر المركزيات العالمية المعاصرة ذات ملامح متماثلة مع منظومة الأسس والقيم النهضوية التي تشملها، وترمي باستمرار في احتلال مركز ثقل العالم. ويعتبر القرن العشرين بحق قرن التحديات والوثبات الثورية التي طبعت الحضارات المعاصرة وأخصها الحضارة الأمريكية، التي أبانت عن نظام عالمي جديد، كانت فيه هي محور الإشعاع الفكري والحضاري. كل هاته التحولات في خصوصية استراتيجية الهيمنة أثارت عددا من السجالات الفكرية وأبانت عن مقاصد النزوع الحضاري الذي تمخض عن صراع أنظمة الحياة، واستراتيجيات منطق التمركز الكوني. ومن خلال قراءتنا لما يقتضيه منطق التحليل الإشكالي لمحور البحث لا يسعنا إلا أن نثير تساؤلات إشكالية ذات الصلة: ما هي المقومات النظرية التي تجعل من حضارة ما مركز ثقل حضاري في عصر من عصور التاريخ الإنساني؟ هل يجوز إدراج مصطلح المركز الحضاري، لنرمز إلى الحضارة الرئيسة في كل حقبة زمنية ماضية؟ ومن ثمة جواز استخدام مصطلح المركزية كمثيل للإمبراطورية، لأن كلاهما يستوجب وجود مركز وأطراف أو توابع؟ ثم كيف شكلت المركزية الغربية باعثا لتولي حضارة العالم الجديد كرسي قيادة العالم؟

المبحث الأول: فرضية المركزية الحضارية في مقابل مفاهيم الحضارة والإمبراطورية:

1-فرضية المركزية الحضارية، وشروط تحققها:

إن التأسيس لفرضية المركز الحضاري يستوجب منا مقاربة مفهوم المركزية مع مفهوم الحضارة العالمية ظنا منّا بأنه لا يمكن الحديث عن أمة مركزية أو حضارية، إلا إذا كانت مكتملة النمو والنضوج والتفوق العلمي والثقافي والديني والأخلاقي...، قياسا على التماثل القائم بين خصائص المركزية الطبيعية الكونية (الفلكي أو الذري) وبين خصائص المركزية الحضارية الإنسانية، إذ ثمة ما يستوجب قيام شروط طبيعية في المركزية الكونية كالجاذبية والقوة، بالإضافة إلى الأدوار الهامة التي يكتسيها في تشكيل نظام عام، تستمد منه التوابع واللواحق(الأطراف) العناصر الحيوية ومقومات الوجود والطاقة، كذلك بالنسبة للحضارة المركزية أو العالمية، يُفترض أن يمارس مركزها مهاما إحيائية وتنموية، فيكون مصدر إشعاع واستقطاب يجذب ما يحيط به من الأطراف والهوامش؛ ولبلوغ هذا المرام وجب توفر مرتكزات معرفية ضرورية، لاستقطاب نسب عالية من الدول المحيطة بمركز العالم والتكتل حوله لخلق نظام متناسق شبيه بالنظام الكوني؛ إلى جانب هذا يبسط المركز نفوذه على دول الأطراف من خلال توسيع الحدود الجغرافية، وتحقيق السيطرة على البحار والمحيطات والبحث عن أجناس من نفس الثقافة، والدين، لتسهيل عملية الاندماج، ومن ثمة تسهيل ممكنات التثاقف والتواصل معها وللسيطرة عليها ودمجها في فلك الحضارة المتسيدة. ومن المؤكد أنه توجد دلائل تاريخية عديدة تؤكد قيام حضارات سابقة عن الحضارات المعاصرة تميزت بفردانيتها وإنّيتها، واستقلت بوعيها الذاتي، فقد *"كانت هذه الحضارات-بدرجات متفاوتة-تعي منزلتها، بل تعي تفوقها على المجموعات الأخرى غير المتحضرة، غير أن هذه الفكرة لا تنال من سمعة الحضارات الأخرى وإنما تسعى ببساطة إلى وضع مفهوم الحضارة في إطاره التاريخي وتسمح بالنظر إليه على أساس شامل"* [1]. وعلى حد تعبير هنتنغتون فإن كل حضارة ترى نفسها مركزا للعالم، وتكتب تاريخها، وكأنه الدراما الرئيسية في التاريخ الإنساني، وربما كان ذلك ينطبق على الغرب-اليوم-أكثر مما هو على أي ثقافة أخرى[2].

[1] بروس مازليش: الحضارة ومضامينها، ترجمة عبد النور خراقي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2014، ص 98.

[2] صامويل هنتنغتون: صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي)، ترجمة طلعت الشايب، مكتبة سطور، ط2، 1999، ص 90.

وما تجدر الإشارة إليه، هو أن مفهوم الحضارة غير منفصل عن مفهوم المركز، وقد يوجب أن تكون الحضارة شرط للمركزية؛ فثمة تجاور، وجذب يجعل مفهوم الحضارة متماثلًا مع مفهوم المركز. حينئذ يستوثق مركز الحضارة من توافر شروط النهضة التي هي في الأصل مصادر قوة الحضارات العالمية السابقة؛ بمعنى أن ثمة تدافع حضاري قد يبرز في شكل صدام، أو في شكل حوار. وما يؤكد هذا أبحاث فلاسفة الحضارة، إذ جلهم تقريبا، توقفوا عند حضارات توصف بالكونية في التاريخ القديم، من أمثلة ذلك الحضارتين: الصينية، والإسلامية والحضارة الغربية. يقول صامويل هنتنغتون: *"الحضارة العالمية تحتاج إلى قوة عالمية، القوة الرومانية صنعت حضارة قريبة من العالمية، داخل حدود العالم الكلاسيكي، القوة الغربية متمثلة في الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر والهيمنة الأمريكية في القرن العشرين، نشرا الثقافة الغربية في معظم أنحاء العالم المعاصر"* [1].

إذ لا يمكن فصل صفة الكوني، عن معناها الطبيعي (الكوني، العالمي، والشامل)، فإذا كان الكون ينتظم في قوانين طبيعية تحدد العلاقة بين مركز ثقل وجذب، وما حوله من توابع، فإن الحضارة الكونية هي كذلك تشتمل على أكبر نطاق وأقصى حدود، وتستحوذ على نطاقات ضعيفة، متأخرة ومتخلفة تحيط بها. وهنا حقَّ لنا إسقاط التفسير الطبيعي لأسس التمركز الكوني والمادي على العلاقة بين أقطاب العالم ومحاوره على مرّ العصور، مع ما هو خارجي ومنفصل عنها. وكما حاكى "هيجل" رمزيا حركة الشمس، التي يراها تبدأ من الشرق وتنتهي في الغرب في تعليله لنظريته حول التقسيم الجغرافي والعقلي للأعراق، ليعني بذلك بأن الغرب سيكمل قوته ويحقق كماله في أقصى مراحل تجليات الروح المطلق[2]؛ فإننا سوف نبين تلك العلاقة بين ما هو فيزيقي من قوانين الكون (في التمركز) مع فكرة شمولية حضارة وسيادتها على الحضارات الأخرى.

وإذا كانت النظريات الحضارية التاريخية التي فسرت التاريخ وفلسفته مع ابن خلدون وهيجل وفولتير، معروفة ومتداولة في الدراسات والكتب، فإننا لن نقصر فهمنا على مضمون القراءات المألوفة لدى المؤرخين أو مفسري التاريخ بقدر ما يتوجب علينا مراجعة الأسس الابستيمولوجية من جهة ما هي مرتكزات قاعدية للمركزية الحضارية ومن ثمة الكشف عن قانونها الذي يجلّي طبيعة العلاقات الجدلية بين المركز والأطراف، أو بين الأنا الحضاري وبين الآخر المتخلف البربري، فذلك هو الأساس لفهم مرتكزات التموقع في مركز ثقل الوجود الإنساني على غرار المركز الطبيعي الكوني. *"لأن الإنسان بدوره ميكانيزم مكون من أجزاء جسمانية، وإذا كان متميزا عن سائر الأجسام الموجودة في الطبيعة،*

[1] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 151.

[2] هيجل: العقل في التاريخ، مرجع سابق، ص 189.

فإن ذلك لا يعني أن بعض استجابات جسم الإنسان تخضع لقوانين أخرى غير القوانين الميكانيكية. ومن ثمة فإن علاقة الدولة بأفراد الناس هي كعلاقة هؤلاء الناس بأجزاء أجسامهم المادية، أي مثل كل نسق فيزيائي في علاقته بعناصره المادية" [1]. هكذا مارست الحضارات القوية سيطرة وقهرا في حق الأمم الضعيفة، حيث بدا سلطان الذكاء مكسبا مفصليا بين الحضارة والبربرية. يقول غوستاف لوبون: *"على الدوام سيطرت الأمم ذوات الخلق القوي على الأمم ذوات الخلق الضعيف أو المتردد، مهما كان ذكاؤها، ومن ذلك أن الرومان قهروا الإغريق بسهولة، وذلك في زمن كان الرومان فيه قليلي التمدن، وكان الإغريق فيه أرقى بدرجات من قاهريهم، ذكاء وثقافة"* [2]. وثمة فرضية أخرى، مؤداها أن النزعة المادية تحيلنا إلى الاعتقاد بأن الإنسان لا يعدو أن يكون جزءا من الطبيعة المادية، يخضع لنظام كوني مطرد، والإنسان جزء من العالم يمثل نظاما من النظم الطبيعية، وجزء كبير من نشاطاته تخضع بدورها لقوانين حتمية مماثلة لذات القوانين الحتمية التي تحكم العالم الطبيعي الكوني. لهذا نفترض أن ما يبنيه الإنسان من حضارة، سوف لن يخرج عن منظومة الشروط والقوانين الكونية، التي هي بالأصل قوانين التمركز، التي نستبطن من متنها دينامية بنية الحياة، والتي يجري من خلالها فهم العلاقة بين المركز والأطراف في النظام الحضاري، على غرار النظام الكوني. وكما تُعتبر الطاقة حجر الرحى في العلوم الفيزيائية، فإن رغبة الإنسان في المجد والقوة هي صانع الحضارة ومحركها، ودافعها نحو البقاء والاستمرارية والهيمنة على باقي الحضارات الأقل قوة وطاقة منها.

إن البحث في المرتكزات أو الأسس الحضارية المشتركة يؤول إلى الإقرار بأن البيئة الإنسانية تحكمها نواميس محددة تماهي القوانين الكونية، وتؤكد على طابع المجهود البشري في تجاوز مختلف العقبات والعراقيل التي تحول بينه وبين تحرره من عقال التخلف والجهل والبربرية. ونحن نؤمن بأن هذا التشكل السامي للثقافة والفكر والعلم والسلوك والأخلاق، لم يكن عشوائيا أو محض مصادفة، إنما هو نتاج جهد متواصل لتحقيق الغلبة والتفوق، وإلا بقي البحث عن أسس الحضارات وتدوينها محض أساطير مدونة على سجلات التاريخ، أو ذكرى جميلة عن حياة الأسلاف والأجداد؛ *"فمثلما أن بخار الماء المتصاعد إلى الأعلى يحتاج إلى عوامل مساعدة تتحول بفضله حُزم البخار من غاز إلى قطرات ماء، تغيث أهل الأرض، كذلك المجتمع به حاجة إلى عامل مساعد يوفر للإنسان فرصة جيدة لاستثمار الطبيعة واستغلال الزمن، للانتقال بالمجتمع من حال إلى حال أفضل ومرتبة أعلى، هذا العامل عدّه هيجل (المطلق)،*

[1] ماكس هوركهايمر: بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية، تر محمد علي اليوسفي، دار الفارابي، بيروت، د ط، 2006، ص 38.

[2] غوستاف لوبون: فلسفة التاريخ، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، مصر، دط، 1954، ص 127.

وعدّه كاسيرر (البطل)، وعدّه ماركس (الاقتصاد)، وعدّه فرويد (الجنس)..."[1]. ولا ريب أن الدور الريادي لهذه العوامل الحضارية يتجلى من خلال المساهمة في إعادة تشكيل ثقل وقوة المركز في كل بناء سياسي، أو كما عرف في الحاضر بالدولة؛ ونحن على يقين أن هذه الرؤية تظل فرضية تحتاج إلى مزيد من التأكيد والإثبات، إلا أن معيارها هنا ليس في كونها صحيحة، بل حسبها أن تكون -كما أوضح "توماس كون" في مؤلفه "بنية الثورات العلمية"، إن النظريات العلمية تكون مقبولة كنموذج أو براديغم معقلن، ولذلك فلابد أن تبدو أفضل من النظريات التي تنافسها، وليست في حاجة إلى أن تفسر كل الحقائق التي يمكن أن تواجهها، وهي لا تستطيع أن تفعل ذلك في الواقع. إن نزوع العقل الحضاري إلى المركزية يحكمه سجال ثنائي: يبتدئ من الوحدة إلى الكثرة، ومن نقاط التقارب إلى صلب الاختلاف؛ فنظرية التعاقب الدوري للحضارة، أو النظرية الحلزونية، أو النظرية اللولبية، أو نظرية الاستقامة (المستقيمة) نحو الماضي، أو نظرية المستقبل، جميعها تشترك في الغاية، وهي تحقيق شروط الرقي والتقدم للحضارات، أي تحقيق مرتكزات الحضارة الثلاثة وهي: العلم، الفلسفة، والدين. في إطار من التكافؤ والتوازن الذي يؤول إلى العلمنة المادية والعقلنة الفلسفية؛ مثل تلك الرؤية ستنتهي حتما إلى تصادم عوامل قوة الحضارة بدلا من تفاعلها وتكاملها، أي تفاعل العلم والفلسفة والعقيدة لتتشكل الايديولوجيا[2].

وتجدر الإشارة في ذات المقام، إلى أن في نظريات تفسير مسار تاريخ الحضارات والشعوب، ما يدعم فرضية التمركز الحضاري، من خلال تقاطع تلك النظريات في القول بأن بناء الحضارة واحتلال مركز الأحداث الإنسانية العالمية، ليس محض مصادفة، وإنما هو فعل ممنهج، وأكثر تنظيما مما يتصوره البعض، ففكرة الروح المطلق لهيجل مثلا، تسود في الوجود وتهدف إلى قيادة الكون وجعل مسار التاريخ منطقيا، أو معقولا، وذلك من خلال صنائع عظماء التاريخ، الذين منحتهم بصيرة نافذة، وجعلتهم أداة لها، وهكذا، *"وإن بدت أحداث التاريخ فوضى عابثة، غير هادفة، تُعبر الروح عن وعيها خلال التاريخ، ومن ثم فكل شيء يتم وفق مخطط مرسوم، تتخذ الحوادث بموجبه مجراها، لا مجال إذن للقول بالمصادفة في التاريخ، كما لا يصح تفسير وقائعه بعلل جزئية، فهذه ليست إلا أسبابا عرضية ظاهرية"*[3].

2-فرضية التمركز الحضاري في مفهوم الحضارة عند ابن خلدون:

[1] علي عبود المحمداوي وآخرون: فلسفة التاريخ (جدل البداية والنهاية والعود الدائم)، دار الروافد الثقافية، بيروت، ط1، 2012، ص 27.

[2] المرجع نفسه، ص 29.

[3] أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، دط، 1975، ص 205.

تمثل الحضارة عند "عبد الرحمان ابن خلدون (1332م-1406م)" مرحلة نهائية في عمر الدولة، وغاية مؤذنة بانهيار العمران البشري، وهي حسبه صفة تطلق على النمط المعيشي لأهل المدن والحضر، كما تعد مرحلة تقل فيها النزعة العصبية وتضعف، لما فيها من ترف العيش واهتمام بالكماليات والتوسيع على النفس في الملذات ولذلك فإنها نقيض للبداوة، يقول ابن خلدون: *"لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة"*[1]، وهذا التصور العربي لمعنى الحضارة، يختلف عن المنظور الغربي أو الأوروبي لها. إذ تمثل الجانب المادي، أو المدنية وهي في نظر ابن خلدون، مجلبة للشر والانحطاط، أما الحضارة عنده، فهي مرادفة للمدينة وهي على خلاف البادية، فلم أما المفهوم الغربي لها، فيطرح مسألة الحضارة من منظور ثنائية: الهمجي والمتوحش، فتعد الحضارة بذلك، مرتبة رفيعة بلغها الإنسان، بعد تحرير العقل والفرد والمعرفة من ربق التخلف والكهنوت المستبد؛ يقول "ابن خلدون": *"الحضارة كما علمت هي التفنن في الترف، واستجادة أحواله، والكَلَفُ بالصنائع التي تفوق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيأة للمطابخ أو الملابس، أو المباني أو الفرش، أو الانية ولسائر أحوال المنزل وللتأنق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة، لا يحتاج إليها عند البداوة، وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات"* [2].

غير أننا نروم في الرؤية الخلدونية لفلسفة التاريخ منبعا لفكرة المركزية الحضارية، في تلك المرحلة التي تبلغها الدولة لحظة الأوج، قوة عصبية الدولة، التي تمثل بحق محور التفوق والغلبة، أو نقطة القمة، قبل منعطف السقوط والهوان، وهذه المرحلة عند ابن خلدون تبلغها الأمم، بجملة من الأسباب والشروط، يمكن عدها قانونا حضاريا أساسيا، ندعم بها فرضنا عن التمركز الحضاري وفق مسببات عامة، تستوحى من علاقات العلية في الطبيعة. تخضع حركة التاريخ، والحضارة إلى مقولات أساسية منها: التعليل أو السببية، والكلية*. يقول "ابن خلدون":" إن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال؛ في باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق،

[1] عبد الرحمان ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار الشعب، القاهرة، 1950، ص 339.

[2] المرجع نفسه، ص ص 334-335.

* الكلية: المقصود بها هو إرجاع الكثرة إلى العلة، وجمعهم مع بعضهم لوجود بعض التشابه فيما بينهم، وهوما يعبر عنه في المنطق بالجنس، أو النوع وهو أقل من الجنس وبالتالي فإن ما يسري على الجنس يسري بالضرورة على أحد أفراده، أي أن ابن خلدون يرجو من وراء ذلك إلى وضع نظرية عامة في التاريخ انطلاقا من الحقائق الاجتماعية وتقلبات الدول والأمصار والملوك والأمراء. أي محاولة العثور على قانون عام يحكم هذا التطور من الصعود إلى النزول، فالكلية إذن هي تلك المقدمات المتعلقة بالتاريخ العالمي في كل الدول والأمصار لأنها تتشابه فيما بينها من حيث وجودها واضمحلالها. نقلا عن علي عبود المحمداوي وآخرون، فلسفة التاريخ جدل البداية والنهاية، مرجع سابق، ص 132.

وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق"[1]. تؤكد نظرية ابن خلدون في الحضارة على أن الطبيعة الإنسانية واحدة رغم اختلاف الشعوب وتنوعهم من حيث العادات والتقاليد وغيرها، لهذا فإن النتائج الكلية المستخلصة من مجتمع ما يمكن تطبيقها على مجتمعات أخرى، باستخدام الاستقراء وقياس الغائب على الحاضر لوجود علة بينهما. وهذا ما أشرنا إليه في موضع فرضية التمركز الحضاري وعلاقتها، بوحدة الطبيعة البشرية، والكونية.

إن مقولة ابن خلدون، التي عادة ما تتردد على كثير من الألسن، محاولة لشرح العلاقة بين القوي والضعيف، «المغلوب مولع بإتباع الغالب"، نعتبرها سندا قويا، في توضيح ودعم فرضية التمركز الحضاري أو المركزية، إذ يعتقد بأن المغلوب (الهامش) يستمد وجوده واستمراره بتقليد الغالب (المركز) ومحاكاة نمط حياته وعيشه، ومن ثمة ثقافته وتفكيره، أين يمثل الغالب مركز الحضارة، والنموذج المناسب لبلوغ مرتبة رفيعة، تسمو على وضع المغلوب الراهن.

وحتما فإن هذا الغالب لن يكون إلا الحضارة السائدة، بكل مقوماتها الثقافية والاجتماعية والأخلاقية، وغيرها؛ هذا ما أكدناه في تحديد معنى المركز الكوني، وكيف حاز هذه الصفة لما يتميز به من قوة الجذب والتأثير على ما يحيط به والخارجي عنه.

كما يمكن استعارة تلك القاعدة السيكو–حضارية، في سياق تفكيك العلاقة بين المستعمَر والمستعمِر، وبين الغالب والمغلوب. أو بين المركزي والهامشي. وإذ نعتبره قانونا أو قاعدة نضطلع بها ونعرف من خلالها تصنيف المركزي والهامشي، وإذ ذاك يصبح الهامش مؤثرا، وقبلة للإتباع والمحاكاة، جاز لنا حينها القول أنه أضحى غالبا، وبالتالي مركزا، وغيره طرفا؛ إن هذه العلاقة تحيل إلى بعد نفسي عميق، نعبر عنه بالأسس النفسية والأبستمولوجيا لعلاقة المركز بالهامش، فهي بحق تدرج ضمن فرضيات علم النفس التحليلي، وليست مجرد توصيف حالة واقعية، وهو ما تجلى فيما بعد في فلسفة "غوستاف لوبون ***Gustave LeBon***(1841–1931)" التاريخية، كما سنرى لاحقا. يقول ابن خلدون في هذا الصدد إن: *"النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء أو لما تراه، والله أعلم، من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله"* [2]. على هذا النحو تتجلى علمية النظرية الخلدونية وهي تحاكي الثنائيات السجالية المتصلة بتجديلات الفعل

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، مرجع سابق، ص 07.

[2] عبد الرحمان ابن خلدون: مرجع سابق، ص 133.

الحضاري من حيث النشأة، ومن جهة فهم الصلات الجدلية القائمة بين الازدواجية الحضارية القوي والضعيف، المستعمَر المستعمِر، ...

المبحث الثاني: حضارة أم حضارات أو سجال في المركزية

1- المفهوم الغربي للحضارة وانبثاق المركزية الأمريكية:

لا بد لنا أن نستوضح بدقة جذور مفهوم الحضارة من منظور غربي، لمعرفة الحيز المفاهيمي المكون لمضمون البنية الإنسانية التاريخية، التي تميزت بها أقوام وشعوب عن غيرها عبر التاريخ، ونحن نراها حاسمة لفهم أسس التمركز في الوقت الراهن، وإذ نبحث عن المسار الكرونولوجي لمفهوم الحضارة، نجد أنفسنا قبالة حوض البحر المتوسط في أوروبا قبل الميلاد، اذ كان لليونانين دورا حاسما في ظهور مصطلحي الهمجي والمتحضر؛ ويبدو أن هوميروس هو أول من استخدم هذه الصفة استخداما فريدا من نوعه، وتؤكد الدراسات التاريخية أن *"النظرة اليونانية لثنائية(نحن/هم) وثنائية(المتحضر/الهمجي) تأكدت نتيجة الانتصار في الحروب الفارسية خلال الفترة الممتدة ما بين 480-479 ق.م، وكانت تقوم هذه النظرة بشكل لافت على مفهوم المدينة(polis)، التي كانت تمثل الفضاء الوحيد الذي يُمَكّن المرء من الكلام أمام الجمهور على نحو متحضر، عوض الغمغمة بلسان فظ أحمق"* [1]. وقد استمرت نزعة الاستعلاء والتميز في التعمق والتوسع، طيلة قرنين من الزمن، لدى الجنس اليوناني، *"وبذل في ذلك اليونانيون والرومان وأوربيو العصر الوسيط جهودا استغرقت ألفيتين من الزمن لتمييز أنفسهم عن "الهمجيين" Barbarians، بواسطة أفعال وصفات تشير إلى "الكياسة" Civility وإلى المراعاة الأدبية "Cultivation"* [2]، قبل أن تظهر لفظة الاسم المجرد "الحضارة" كما هي عليه اليوم في المعاجم والقواميس.

أما المعنى القديم لمفهوم الحضارة ومعاييرها، وصفاتها، فنراه يعبر عن وجهة نظر أحادية اقصائية، وُضعت من قِبل مجتمع دون آخر، مجتمع حدد منذ الأزل من هو المتحضر، ومن هو المتخلف؟ وضَبَط صفات الحضارة على مقاسه، فأدخل ضمن دائرتها من تتطابق عليه صفات معينة، وأخرج إلى الهامش من كان مختلفا، سواء في الفكر أو اللغة أو الثقافة أو الدين والعادات...الخ، وأوهمه بأنه لا يرقى إلى تلك المنزلة، وسنده في ذلك هيمنة منطق الأسبق والأول، لهذا نفترض أن تصنيف الأقوام إلى متمدن، وآخر متخلف، أو إلى متحضر، وآخر همجي، سببه أن ثمة أقواما

[1] بروس مازليش: مرجع سابق، ص ص 20-21.

[2] المرجع نفسه، ص 22.

ائتمنوا أقواما أخرى للتشريع لهم وتصنيفهم، ونُشَبِّهه إلى حد ما، مع كيفية نشوء المجتمع المدني وبداية الملكية الخاصة في نظرية العقد الاجتماعي بنسختها لدى "جون جاك روسو" إذ أرجع بداية تشكل مفهوم الدولة في كتابه "أصل التفاوت بين الناس" إلى نقطة بداية افتراضية فقال:*"كان مؤسس المجتمع المدني الحقيقي هو الإنسان الأول الذي سوّرَ أرضا فرأى أن يقول "هي لي" وقد وجد من البسطاء من يصدقونه، فكان مؤسس المجتمع المدني الحقيقي"* [1].إن فكرة "المركزية"، تبدأ من تحديد ضوابط ومعايير غربية أو لمن هم ضمن الحضارة(المركز)، ومن هم خارج الحضارة في المحيط والأطراف(الهامش). هكذا أضحت الحضارة تعبر عن *"إيديولوجية تفوق أوروبي سامٍ قائم على جوهر ثابت: هو الجنس، ومن ثم فإن أَورَبَة الحضارة، أو على الأقل التي يعتد بها، أي نموذج غربي أُغلق بإحكام في وجه الهمجيين؛ وهكذا تم الإبقاء على الفرق بين الحضارة والهمجية في شكل جديد، شكل يسلم به معظم الأوروبيين، وإن السبيل الوحيد للقضاء على همجية الآخرين يتمثل في إلغائه باسم الحضارة الأوروبية، وهي ملكية يمكن أن تكون فقط بحوزة الأوروبيين"* [2].وعليه فإن التحكم في المفهوم، يمثل بداية دلالات المركزية الغربية، من خلال استحواذها على سلطة التصنيف والتقسيم إلى مركز وأطراف، فيُمسي التحضر شكلا من أشكال التمركز الغربي وحكرا عليه.

إنَّ الشعور بالتفوق الروحي والديني والحضاري لدى الغربي يفترض مسألة تجاهل الآخر، ولا يرى أي بدٍ لتفعيل سبل الحوار معه، خاصة إذا كان هذا الآخر يملك مقومات التمركز، هذا التجاهل والتهميش كان ممارسا من قبل، في الإمبراطوريات القديمة، وفي أوروبا في العصر الحديثة، كما ذكر "بروس مازليش" في "الحضارة ومضامينها": *"إذا كانت حضارة ما تدعي أنها متفوقة ولا نظير لها، فسيكون من غير المرجح أن ترغب في الدخول في حوار مع المجتمعات الأخرى التي تدَّعي وضعا مماثلا؛ ومن ثم فإن الصين- إلى حدود القرن التاسع عشر- لم تكن لها حاجة أو رغبة في مقارنة نفسها بالمجتمعات التي لم تعترف بها باعتبارها مجتمعات مساوية لها، وقد تبنى الإسلام في العصر الوسيط بعد القرن الثاني عشر موقفا مماثلا، إذ كان مهتما في الأساس بحضارته الخاصة، وكانت أوروبا ترى حضارتها كما مر بحلول القرنين التاسع عشر والعشرين، منقطعة النظير بسبب التفوق العنصري الذي أضافته إلى الأساس المسيحي لتصورها الذاتي"* [3].

[1] جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر عادل زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2011، ص67.

[2] بروس مازليش: مرجع سابق، ص 80.

[3] بروس مازليش: مرجع سابق، ص ص 115-116.

إن تاريخ المصطلح وكيفية تشكله، يحيلنا إلى تأكيد مسألة تاريخية راسخة، منطوقها أن: "الغرب هو نبع الحقيقة ومركز الحضارة"، لأن التاريخ يصنعه الأقوياء، فتظل فيه المنطقة الغربية من العالم ممسكة برواية التاريخ والتنظير له، بما يتماشى مع توجهاتها الاثنية والإيديولوجية، *"فمفهوم الحضارة، بالمفرد، تاريخيا كان اختراعا أوروبيا ينتمي إلى القرن الثامن عشر، وقد وفّر هذا المفهوم أساسا للنقاش عن معيار حضاري، ولا يغيب عنا أن معيار الحضارة بين الدول الأوروبية كان متجذرًا في عنصر الانتماء العرقي، وفي الدين، وكثيرا ما كان الإيمان بتفوق الحضارة الأوروبية، مدعوما بعقائد مستمدة من العنصرية العلمية؛ فقط المسيحيون الأوروبيون البيض كانوا متحضرين"* [1]. كما ارتبط بوهم التقدم ونتج عنه نزعة أخرى، هي نزعة التمركز حول الذات، تشكلت لما اتخذ الأوروبي حضارته مركزا ثابتا يدور حولها التاريخ، فقسمه إلى قديم ووسيط وحديث، فكان التاريخ القديم عنوان مجده الغابر، وجذر الأحياء والأنسنة، أما الوسيط فهو فترة سباته وتقهقره، ليحل العصر الحديث، عصر التنوير والاستفاقة الأوروبية. هذا ما دفعه إلى أن يتجاهل ويختزل تاريخ حضارات عريقة كالمصرية الذي امتد إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة، والصينية والإسلامية، في بضعة أوراق، بينما أخذ تاريخ قياصرته وإمبراطوريه، مساحة مجلدات من الكتابة والتأليف والتوثيق والتأريخ، في حين أن تاريخهم لم يتجاوز البضع سنين، كتاريخ نابليون، أو الحملات الصليبية، أو عصر النهضة، وغيرها. فتاريخ العالم يشمل ستة حضارات رئيسية على الأقل (هي المصرية2400-205 ق.م، الهندية1500-1100 ق.م، الصينية 1300-200ق.م، الكلاسيكية: اليونانية والرومانية 1100-400م، الإسلامية 700-1250م، الغربية 900-2400م؛ كما يحددها شبنجلر) وكل حضارة اتخذت دورة نمو كاملة أي من البداية (الولادة) ثم شباب ونضج ثم شيخوخة، أعقبها فناء*. فمفهوم الغرب الأوروبي لمعنى الحضارة يتضمن نزعة تمركزية غالبة على نظرياته، ومعاييره للتحضر، حينما جعلوا التحضر في القرن التاسع عشر هو المقياس الحقيقي للحضارة، أي أن المركزية هنا هي مركزية تنظيرية (أي ظلت خطابا عقلانيا خالصا) قبل أن تكون مركزية فعلية (أنا المركز والمحور، أي أنا من يحدد شروط من يدخل ضمن دائرة المتمدن ومن يخرج عن الدائرة أي الهامشي)؛ هذا ما أكده هنتنغتون في تمييزه بين مفردة الحضارة ومفردة الحضارات. وهنا يقول تودوروف: *" لا يمكننا السير في طريق الحضارة، إذا لم نعترف مسبقا بتعدد الثقافات"* [2]،

---

[1] بيتر جي كاتزنشتاين: الحضارات في السياسة العالمية، ترجمة فاضل جتكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2012، ص 12.

* تقسيم وضعه شبنجلر، نقلا عن أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص 245.

[2] تزيفيتان تودوروف: الخوف من البرابرة (ما وراء صدام الحضارات)، ترجمة ماجد جبور، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية، ط1، 2009، ص 39.

فلا يمكن للحضارة أن تقتصر على شكل واحد من الثقافة والعادات والتقاليد، لأن التنوع والتعدد سمة كونية، ويرفض "تودوروف" رفضا قاطعا فكرة الانصهار في حضارة نموذجية واحدة، لأن فكرة الوحدة يجب أن تراعي خصوصية الحرية والسيادة لكل حضارة، وإلا فقدت الحضارة مقومات وجودها. ومنه فالبربرية –حسبه–هي إنكار التعددية الإنسانية، أي التمركز حول الذات ونفي الآخر، ومن ثمة فإن قمة الحضارة هي الاعتراف بهذه التعددية والقبول بها.

لقد أضحى التاريخ بحاجة إلى ثورة كوبرنيكية تصحح وهم المؤرخ الأوروبي، حين يتصور حضارته مركزا ثابتا للحضارة كما توهم الإنسان قبل كوبرنيك، أن كوكبه الأرض، ثابت وأنه محور دوران جميع الكواكب. فالمؤرخ الأوروبي يتبنى النظرية البطليموسية الخاطئة بعد تطبيقها على التاريخ، إذ يتصور أوروبا الغربية قطبا لشتى الحضارات، لا لشيء إلا لأنه يعيش فوقها، والثورة الكوبرنيكية في التاريخ هي التي تستبدل بتصور الحضارات الأخرى دائرة في فلك أوروبا الغربية، بوصفها مركز الأحداث العالمية[1]، يشكل هذا الطرح في نظر "شبنجلر" وهم المركزية الذاتية بالنسبة للمؤرخين، إذ عند كتابتهم للتاريخ يُهملون كل الأحداث والوقائع التاريخية البعيدة عنهم والتي تدور رحاها خارج الجغرافيا الأوروبية، في حضارات ربما تفوق الحضارة الأوروبية في عدتها وعتادها، أو حتى في عظمتها الروحية والثقافية. على هذا النحو يشكل هذا التمركز تقسيما كرونولوجيا وإقصائيا لتاريخ الحضارات العالمية الأخرى من منظور غربي، وفق تسلسل العصور من: القديم إلى الوسيط، فالعصر الحديث؛ وذلك أن المشكلة فيما يرى شبنجلر هي *"في الانتظام الطبيعي للأشياء، التي تقابلها مشكلة (متى؟) وهي المشكلة التاريخية الخاصة بالمصير، الماضي والمستقبل، فجميع هذه الأشياء مستوعبة في كلمة كرونولوجي (المتسلسل)، والتي يفهمها الإنسان البسيط فهما تاما لا لبس فيه أو إبهام"* [2].

إن الأساس الإيديولوجي لخطاب الحضارة في خضم النزوع العقلاني المعاصر غرضه تكريس منطق المركزية الحضارية، يُستتبع بتأييد قومي أو أممي لتفعيل أبجدية التمركز وضرورة الإقصاء. إن التنظيرات التاريخية التي تجيز الولاء للانتماءات العرقية والثقافية والدينية، يراد من خلالها إحداث تقطعات في سلم التدافع الحضاري، وإن كان جزء منها يرجع إلى ضعف أدوات البحث في الكشف التاريخي في بعض الأحيان، إلا أننا لا ننكر تأثير الإسقاطات الإيديولوجية والنزعات العرقية كما للمعتقدات الدينية من جهة تغييب حقيقة الفعل الحضاري وإسهامات الآخر في إثرائه وتقدميته من جهة، وتغلغل الذاتية التي تؤدي إلى تشويه الحقيقة التاريخية وكذا الواقعية من جهة أخرى. وهذا ما نستشفه من خلال قراءتنا في الأبحاث الابستيمية التي عرضها فلاسفة الحضارة بينهم: ابن خلدون، شبنجلر، توينبي غوستاف

[1] أزوالد شبنجلر، نقلا عن أحمد محمود صبحي: مرجع سابق، ص 246.

[2] أسوالد شبنجلر: تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج1، دط، دس، ص247.

لوبون...، وغيرهم، ولهذا فإننا نحاول الخروج من دائرة التمركز على الذات والانكفاء عليها، لتحديد نظرية علمية أكثر معقولية وأكثر موضوعية.

2-المركزية الغربية من منظور هيجل

ساهم هيجل -أكثر مما فعل أي فيلسوف غربي حديث-في تعميق صورة التمركز الغربي القائم على أساس التفاوت بين الغرب الأسمى والأرفع عقليا وثقافيا ودينيا وعرقيا والعالم الآخر الأدنى والأحط في كل ذلك. فصاغ بذلك غربا يتربع على قمة هرم البشرية، ويدفع باتجاه تثبيتها في وضع يمكّنه أن يظل إلى الأبد في القمة فما هي أسس ذلك التفوق؟

يؤسس هيجل المركزية الأوروبية بناء على تقدم الروح والحرية عبر التاريخ، من المرحلة الشرقية إلى المرحلة اليونانية وصولا إلى المرحلة الجرمانية، بالنسبة إلى المرحلة الجرمانية (البروسية)، ويعتقد هيجل أن الحرية بلغت في الدولة البروسية مرحلة الوعي والنضج الكامل من خلال مزجها بين القوانين الدستورية ومبادئ الدين المسيحي وبعد أن مرّت عبر مراحل تاريخية شرقت فيها شمس الوعي والحرية ثم غربت واستقرت في الغرب. يقول هيجل في هذا السياق:" *... وما تاريخ العالم إلا تدريب الرادة الطبيعية الطليقة، بحيث تطيع مبدأ كليا وتكتسب حرية ذاتية، فالشرق لم يعرف إلا شخصا واحدا هو الحر، أما العالم اليوناني، والروماني فقد عرف أن البعض أحرار، في حين أنّ العالم الجرماني، عرف أن الكل أحرار، ومنه نتجت نظم الحكم (الاستبدادي، والديمقراطي الارستقراطي، والحكم الملكي*"[1]. وحسب عبد الله إبراهيم فإنه لا يختلف اثنان في تأكيد أن الفكر العقلي والعلمي والفلسفي، ظهر عند الإغريق وظل يتراكم إلى غاية الجرمان، ليعلن انتصاره النهائي في كشف حقيقة الكون وحقيقة المطلق، قاد هذه الانجازات الغربيون، وعلى رأسهم الجرمان، وعندهم أخذ الفن معناه وأخذ الدين قيمته[2].

مثّل الغرب من وجهة نظر الفلسفة الهيجيلية، نهاية الروح وكمالها، فقد عرف الحرية، واليونان مملكة الحرية وهي مرحلة المراهقة، مرحلة رجولة الغرب هم الرومان، بلغوا بالعقل مملكة الكلية المجردة، ثم تنصهر كل هذه الانجازات في مرحلة أخيرة، مرحلة الشيخوخة، موطنها العالم الجرماني بالمفهوم العقلي حيث التجسد الكامل للنضج والقوة. يقول هيجل:" *ويظهر العالم الجرماني عند هذه اللحظة من لحظات التطور بوصفه المرحلة الرابعة من تاريخ العالم. وإذا ما قارنا بين*

[1] هيجل: مرجع سابق، ص 189.

[2] عبد الله إبراهيم: مرجع سابق، ص ص 144-145.

هذه المرحلة وبين مراحل الحياة البشرية لوجدنا أنها تقابل مرحلة الشيخوخة. وإذا كانت الشيخوخة في الطبيعة تعني الضعف والهرم، فإن شيخوخة الروح تعني نضجها وقوتها الكاملة التي تعود فيها الوحدة مع نفسها" [1]. هكذا أعيد إنتاج نظرية الكيوف الطبيعية لأرسطو، أين قام الأوربيون باحتكار السمات المتفوقة لأسلافهم، بينما عممت باقي الطبائع السيئة على العالم لتشمل إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وطبقا لسياقات تاريخية مختلفة، فيُصار إلى ترتيب العلاقات بين عناصرها بما يضاعف نزعة التمركز العرقي الكامنة فيها. ودعم الأوروبيون مضامينها بعلوم معززة كعلم اللغة المقارن، ونظرية تطور الأنواع، وتُقدم إلى العالم على أنها نظرية علمية كاملة لا يمكن إبطالها. كما أدى إلى تعظيم الجغرافيا التي قيل إن فيها يتركز التفوق، وهو مكان يشكل قلب أوروبا والعالم[2].

لا يمكن الحديث عن وجهة نظر هيجل، دون التعريج على تصور كارل ماركس، الذي وقدّم تفسيرا مقلوبا لتفسير هيجل للتاريخ، على غرار المنهج الجدلي الصاعد، بديلا عن دياليكتيك هيجل النازل. إذ يعتقد ماركس أنه عوّض مخطط هيغل من خلال تفسير التطور الجدلي للتاريخ كان نتيجة للتبادل بين الإنسانية والطبيعة، ليس من خلال العمل الفكري، ولكن من خلال وسائل محددة للإنتاج[3]. لقد جعل ماركس من الصراع عنوانا له، مقدما تفسيرا ماديا جدليا، قوامه الظروف الاقتصادية التاريخية، التي تتحكم في بنية التاريخ، وتحرك صيرورته إلى الأمام، فوجد أن المادة كانت سببا مباشرا في تشكيل العلاقات الاجتماعية، وأن العوامل الاقتصادية هي من أهم عوامل التطور؛ وسنده في ذلك المجتمعات البدائية حيث كانت الملكية مشاعية، فلا وجود لطبقات اجتماعية أو صراع وتنافس على الملكية، التي بظهورها بدأ الصراع وتطورت أنظمة الاقتصاد من الإقطاعي إلى الرأسمالي، لتنتهي بالاشتراكية هنا يتجلى لنا أن ماركس جعل من عملية التطور مادية لا عقلية وجعل من الواقع التاريخي المادي معطى يشكل وعي الإنسان؛ هكذا تتولد فلسفة البراكسيس أو الممارسة العملية، بالمفهوم الماركسي والتي تتجلى في الصراع الطبقي المحرك الجوهري للتاريخ، كبديل للذات الفاعلة في التصور المثالي لدى هيجل.

3-المركزية الحضارية من داخل صدام الحضارات:

[1] هيجل: مرجع سابق، ص 194.

[2] عبد الله إبراهيم: مرجع سابق، ص ص 234.

[3] Andrew Kirk: The Future of Reason Science and Faith (following modernity and post-modernity), AshGate e-Book, England, 2007, P144.

شكلت أطروحة صدام الحضارات في نهاية القرن العشرين، مرحلة جديدة في السياسة العالمية القائمة على الهويات الحضارية، وعلى الصراعات الثقافية، والإيديولوجية، وعرف العالم أنماطا كثيرة للتفرقة والصراع ما بعد الحرب الباردة، نحاول أن نستخلص من هذه الوضعية العالمية في القرن الماضي قيما معرفية، تؤسس لفرضية وجود مركز فعلي في السياسة العالمية، ومنها في باقي التوجهات الإثنية والإيديولوجية والعقائدية، إذ أن نمط الصراع البشري في الكون تحكمه قوى متباينة من حيث الشدة والضعف أو الكثرة والقلة، هذا الصراع له ما يماثله في قوانين الفيزياء الكونية الميكانيكية على نحو ما تجسد في الفيزياء النيوتونية الكلاسيكية المفسرة لعلاقات القوة بين الأجسام أو القانون الثالث لنيوتن، القائل أن لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار، ومعاكس له في الاتجاه، ولو بصورة رمزية.

لقد قدَّم "صامويل هنتنغتون" تعريفا شاملا لمفهوم الحضارة جاء فيه ما يلي: *"هي الكيان الثقافي الأوسع الذي يضم الجماعات الثقافية، مثل القبائل والجماعات العرقية والدينية والأمم. وفيها يعرف الناس أنفسهم بالنسب والدين واللغة والتاريخ والقيم والعادات، والمؤسسات الاجتماعية، بدرجات متفاوتة وفقا للجماعات الثقافية الداخلة تحت حضارة واحدة"* [1]. إذن الحضارات وفق منظور "هنتنغتون"، عبارة عن كيانات متماسكة ثقافيا ومتوافقة، مؤهلة لامتلاك مقومات الاتحاد والتكامل؛ ومتجانسة فيما بينها، تجمعها مقومات متعددة، تساهم في تشكيل رابطة متينة، ولحمة قوية في نطاق واحد، كرابطة الدم والعرق والدين، فالحضارة إذن هي بمثابة أسرة كبيرة ممتدة، أو قبائل كبرى؛ أين تساهم علاقات القربى هذه في تعزيز قدرة الدولة المركزية، ومساعدتها على حل الصراعات وفرض النظام داخل تلك المجموعات، وعليه تتجمع دول وتتكتل معا في ظل تماثل ثقافاتها، وفي نفس الوقت تتوازن وتتوحد ضد الدول التي تختلف معها ثقافيا، حيث أن قوة دول المركز قد تجذب أولئك الذين يشبهونها ثقافيا وتطرد المختلفين عنها، فتتشكل قوة طاردة مركزية، تنفر بواسطتها التوابع عن مركز النظام؛ حينئذ *"تنبثق تجمعات حضارية تضم دولا مركزية، ودولا أعضاء، وأقليات سكانية تشترك ثقافيا مع الدول المجاورة...، وتنزع الدول في التكتلات الحضارية إلى أن تُكوّن دوائر متَّحدة المركز حول دولة أو دول المركز"* [2]. فيتشكل ما يصطلح عليه بالدولة العالمية. كما كانت حضارة المركز قديما، تفرض هوية اجتماعية على أفرادها، حدث ذلك قبلا في الصين، *"أين كانت هذه الحضارة تمنح الفرد الشعور والإدراك بأنه ينتمي إلى دائرتها، وأنه من حامليها"* [3]. وهو شعور بالانتماء يعتقد فيه الإنسان بأنه جزء من هذه الحضارة وليس منفصلا عنها، ونميز هنا بين الانتماء الحضاري والانتماء العرقي، الأول يكتسب أما الثاني فإنه فطري.

[1] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص10.

[2] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 253.

[3] يان اسمان: مرجع سابق، ص 281.

هذا النوع من الانتماء المبني على التجانس العرقي والثقافي، كان النموذج السائد في الحضارات القديمة، والأمر يختلف اليوم في العالم الجديد، إن أمريكا نفسها فيها من الاختلاف والثراء الثقافي مالا حدّ له (الاسبان، الفرنسيين، الانجليز، البرتغاليين، والهنود، والمكسيكيون والأفارقة...وغيرهم.

يشكل الاختلاف جوهرا حضاريا بارزا، تنشأ عنه بؤر نزاع وصراع على نطاق عالمي، إذ يؤكد هنتنغتون أن *"الحضارات هي القبائل الإنسانية الكبرى، وصدام الحضارات صراع قَبَلِي على نطاق عالمي، والفروق الثقافية هي التي تحتل الأساس والمركز في التصنيف، والتمييز بين البشر اليوم"* [1]، لهذه الأسباب وحدها وجب تأسيس مركز حضاري، قوي يحمل على عاتقه فض الخلافات والنزاعات، وهذا ممكن جدا إذا أمكن توحيد مختلف الشعوب والأقوام في إطار نظام عالمي واحد تتجانس فيه الأفكار والعقائد، ونحن نشير في مقصدنا إلى ضرورة العولمة كرؤية موحدة لمختلف بلدان العالم، التي انتشرت فيها الحروب والنزاعات، بسبب افتقادها إلى مركز قيادة حقيقي، ولهذا فإن، *"غياب دولة مركزية في كل من إفريقيا والعالم الغربي، عقَّد -إلى درجة كبيرة- مساعي حل مشكلة الحرب الأهلية في السودان، كما أن العوامل الرئيسة للنظام العالمي الجديد القائم على الحضارات توجد حيث توجد دول المركز"* [2]. من هذا المنظور يعتقد هنتنغتون أن دول المركز في الحضارات الرئيسة، مثلت القوى الكبرى في الحرب الباردة، فأصبحت هي أقطاب الجذب والطرد بالنسبة للدول الأخرى، وهذه التغيرات في الخريطة الجيوسياسية العالمية، تتضح بجلاء في الحضارات الغربية والصينية.

هكذا تدعم نظرية صدام الحضارات، تلك الرؤية الثنائية لمستقبل العلاقات الدولية، بين الحضارات والثقافات المختلفة، وتقوي ذلك الميل إلى التفكير وفق النموذج الثنائي أو تقسيم المجتمعات الإنسانية إلى عالمين (نحن وهم، المتحضر والبربري، الشرق والغرب، الشمال والجنوب، والمركز والأطراف)، فالصراع تجدد في العالم بعد نهاية الحرب الباردة مناقضا ومسقطا أطروحة فوكوياما، حول نهاية التاريخ، في ظل النظام العالمي أحادي القطب؛ إلّا أن التاريخ الإنساني ما فتئ يعيد نفسه، ضمن معادلة المركز والهامش، إذا لا يمكن أن يستقيم الوجود البشري، التاريخي والحضاري والثقافي، إلا في ظل القسمين مركز وهامش، وهنا مفهوم آخر وموازي للحضارة أو مركز الثقل والجاذبية، وتدفعنا أطروحة فوكوياما إلى الاعتقاد بنهاية التاريخ وأن العالم بعد الحرب الباردة أصبح أحادي القطب يجسد قوة الطبيعة،

[1] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص10.

[2] المرجع نفسه، ص ص 253-255.

وذكاء الإنسان الأبيض، وهنا تلميح ببقاء أمريكا مركزا حضاريا إلى جانب كتلة أخرى مشكلة من الأطراف تمثلها باقي الحضارات والثقافات الآسيوية والإسلامية.

كما يمكن فهم صراع الحضارات على نحو مغاير للانحلال والتصدع، حيث يؤول إلى التماسك والتوحد، أكثر مما يؤدي إلى الانقسام، إذ أن الصراع يعمل على تحديد الهوية الثقافية (بالحروب والتضاد مع الآخر)، وبالتالي يتحقق التماسك الاجتماعي، بدلا من الانقسام الذي يزول بوجود عدو مشترك، قد يكون هذا العدو فكرة أو دين أو عرق أو كيانا سياسيا مستقلا ومختلفا، فمآل صراع الحضارات وصدامها أو حتى تثاقفها أو تلاقحها يتحقق بالاستناد إلى شروط أو علل كونية، تدفع بالأطراف إلى البحث عن ملاذ ومآل؛ أو لنقل إلى مركز ثقل جاذب لكل مقومات الشعوب، سواء كانت ثقافية، أو عرقية أو دينية، هذا ما يؤكد فرضية المرجع العالمي أو قلب العالم، كمرجع جغرافي أو علمي أو لغوي واحد. فالتنوع مآله التجانس كما دافع عنه تشومسكي، وتودوروف، وغوستاف لوبون، الذي يرى أنه يمكن رأب صدع الانقسامات داخل الدول المنقسمة على نفسها ممكن، إذا ما وُجدت قوة جذب مركزي تستطيع أن تذيب تلك الفوارق والاختلافات، وحسب اعتقاده فإن سبب بقاء كل من ايطاليا وألمانيا منقسمتين إلى أكثر من ثلاثة قرون، هو أنه لم تكن هناك قوة ما بداخلهما، تستطيع أن توحدهما، أي تصبح مركز جذب للمختلفين[1].

من جهة أخرى تؤسس أطروحة "صامويل هنتنغتون"، لنهاية الحقبة الأوروبية الأولى، مع نهاية القرن الثامن عشر، والذي شهد تراجعا للنفوذ الأوروبي المباشر، أولا في الولايات المتحدة، ثم هايتي، ثم معظم أمريكا اللاتينية وكلهم تمردوا على الحكم الأوروبي، وحصلوا على الاستقلال...، إلا أن الاستعمار الغربي الجديد في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر بسط نفوذه على معظم إفريقيا تقريبا، ودعم السيطرة الغربية على شبه القارة، وفي أماكن أخرى من آسيا. ومع بداية القرن العشرين، كان قد اخضع كل الشرق الأوسط تقريبا، سواء للسيطرة الغربية المباشر أو غير المباشرة...وقد اتسع نطاق الهيمنة الاستعمارية الأوروبية ابتداء من القرن التاسع عشر، إلى غاية تقسيم الإمبراطورية العثمانية، بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، وإعلاء كلمة الغرب، وبسط سلطته العسكرية بفضل تطوير العلوم وتنوع استراتيجيات الحرب المنظمة، وكان من نتائج ذلك تبعية الحضارات الضعيفة لسلطة الأقوياء[2]. فإذا كانت القوة هي قدرة فرد أو جماعة ما على تغيير سلوك فرد، أو جماعة أخرى والسلوك يمكن أن يتغير عن طريق الإقناع، أو القسر أو النصح، والذي يتطلب

[1] غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 154.

[2] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص ص 84-85.

بدوره أن يكون لدى مستخدم القوة، مصادر اقتصادية وعسكرية ومؤسسية وديموغرافية وتكنولوجيا واجتماعية؛ فإن نصيب الغرب من معظم (وليس كل) مصادر القوة المهمة وصل إلى أعلى مستوى له في بدايات القرن العشرين.

لقد خرج الغرب أواخر القرن العشرين، كحضارة معاصرة من حالة حرب إلى حالته العالمية، وإذا كانت الديمقراطية هي الشكل السياسي للحضارة الغربية فإن الدولة العالمية الناجمة عن الحضارة الغربية، ليست إمبراطورية، وإنما هي تركيبة من فيدراليات وكونفدراليات وأنظمة ومؤسسات دولية. والغرب اليوم هو الحضارة الوحيدة التي لها مصالح أساسية في كل حضارة أو منطقة أخرى خارجة عنها، ولها القدرة على التأثير على سياسة وأمن واقتصاد كل الحضارات الأخرى، فالمجتمعات التي تنتمي إلى حضارات أخرى محتاجة دومًا إلى مساعدة غربية لتحقيق أهدافها وحماية مصالحها[1]. هنتنغتون جعل من القوة الاقتصادية والعسكرية أساسا ضروريا للهيمنة الحضارية، بالإضافة إلى مشروع الدولة العالمية الغربي، أو النظام العالمي الجديد، الذي تتبناه وتدافع عنه أمريكا، وبتكليف نفسها بمهمة حفظ السلام، كانت بداية صعود أمريكا إلى الواجهة العالمية من بوابة أوروبا، فاستحوذت بذلك على نواة الحضارة الغربية، وأنقذت أوروبا من براثن السقوط والانحلال، ما جعلها تكون المركز في العالم أجمع، وهذا بفضل نفوذها الاقتصادي المتنامي، وجبروتها العسكري المتعاظم، منذ الحربين العالميتين، وبهذا برز الغرب الأمريكي من خلال إيديولوجيات ذاع صيتها وانتشرت على نطاق عالمي، وكانت أمريكا حقبة جديدة في تاريخ المركزية الغربية غدت فيها مركز جذب لبقية بلدان العالم، واعتبرت مهمة قيادة العالم عبؤها. في هذا الصدد يقول "جيوفري باركر": *"إن صعود الغرب كان يعتمد على ممارسة القوة إلى حد كبير، وعلى حقيقة أن التوازن العسكري بين الأوروبيين، وخصومهم فيما وراء البحار كان يميل باطراد لصالح المجموعة الأولى...مفتاح نجاح الغربيين لإقامة أول إمبراطورية كونية بحق، كان يعتمد تحديدا على تلك التحسينات في القدرة، على شن الحرب"* [2]. فالتفوق العسكري عنصر مهم في تحقيق الوضع المهيمن من قبل دولة معينة من دول المركز. ومع ذلك حتى لو كان لدولة واحدة في المركز تفوق عسكري على الدول الأخرى، يجب الإقرار–حين ينظر إلى الأمر من منظار النظام العالمي ككل–بأن لدول المركز –بشكل أعم–قدرة عسكرية أعظم بكثير من دول شبه الطرف أو الأطراف[3].

[1] المرجع نفسه، ص ص 133-137.

[2] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 85.

[3] جون بيليس وستيف سميث: مرجع سابق، ص 293.

بناءً عليه، نستنتج أن التأسيس لتمركز الغرب الحضاري وهيمنته على بقية الشعوب والثقافات التي تتقاسم معه الجغرافيا العالمية، يختلف من فيلسوف إلى آخر، فقد تمثلها هيجل في حرية الفكر، بينما عزاها ماركس إلى تطور العمل أو البراكسيس، أما صامويل هنتنغتون فيرى أن القوة الاقتصادية والعسكرية هي التي تجعل من حضارة ما تعتلي عرش السيادة.

المبحث الثالث: خصائص المركز الحضاري وأسسه المادية والايديولوجية

أولا: خصائص مركز النظام الحضاري

توافقت تصورات "ابن خلدون" و"ماركس" وغيرهم من علماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ، على القول بأن التاريخ الإنساني لا ينتقل بالمجتمع من طور إلى آخر إلا في ظل وضع يحقق فائضا في الإنتاج المادي الاقتصادي، والعطاء الفكري الثقافي والعقدي، وتلك هي أوجه الحضارة الكاشفة عن صيرورة الازدهار الحضاري للمجتمع بشكل تدريجي، يتصاعد بتصاعد عناصر الحضارة أو ديمومة أسباب قوة البناء الحضاري[1]. وعليه فإن كل تفوق في عزائم الأمم الغابرة يرتكز على مقومات مادية وأخرى معرفية، تصنع من تلك الأمة قلب العالم ومركزه ومنبع الحضارة فيه، وبها تتسيد الحقبة الزمنية التي ظهرت فيها، بفضلها ينتقل الفعل التاريخي من السلبية إلى الإيجابية، بموجبها ينتقل المجتمع إلى مستوى جديد من التقدم العلمي والتطور الفكري والاجتماعي والعقدي، حدث هذا التطور على نحو مشابه في الحضارات الشرقية القديمة، عند البابليين والسومريين والصينيين والمصريين، أعقبه تطور في حضارات أخرى هيمنت ماديا وثقافيا، وكان لها وجود فاعل في دينامية التطور التاريخي، أما تلك المقومات المعرفية فتتشكل من ثلاثية رئيسية هي: العلوم والفلسفات والأديان. ينشأ عن تكاملها نموذج حضاري متين لذلك انطلقت سريعا قاطرة العولمة اليوم في آفاق رحبة قائمة على مبدأ (المعرفة قوة)، ملهمة أفكار العباقرة التي أثمرت بتشكيل مجتمعات المعرفة، مستفيدة من عوامل مادية وأخرى فكرية، متسلحة بقوة العلم والعقيدة، والإرادة والمعرفة، والدولة والوطنية...الخ، ليتبارى فيها الجميع من أجل الأحسن والأصلح والأقوى.

أما عن خصائص تلك الحضارة التي تحتل قلب العالم، فإنه لا تكون لها حدود معلومة كالدولة، إلا أنها تُخضع الأطراف حولها إلى نقاط قوة جاذبة، اقتصاديا وثقافيا أو معرفيا، "*فمواطنو الولايات المتحدة الأمريكية مثلا يسيحون ويعملون في كل أنحاء العالم؛ بيد أن من لا يتوفر على الجنسية الأمريكية لا يجوز له دخول الولايات المتحدة الأمريكية*

[1] علي عبود المحمداوي وآخرون: مرجع سابق، ص 26.

من دون قيد أو شرط" [1]؛ وهناك فرق آخر، في المنزلة الاجتماعية للأفراد المنتمين إلى المركز فالأطراف المتاخمة له لا تتمتع بذات القيمة الموضعية التي يتمتع بها المنتسبون إلى المركز الحضاري. كما نجد أن المركز يتدخل باستمرار في شؤون الأطراف (الهامش) السياسية والاجتماعية والاقتصادية، إذ أن مركز النظام الحضاري لا يعترف بوجود جيران متساوين، يتفق معهم في الحقوق، كما هو الشأن في العلاقات المعروفة بين الكيانات السياسية المستقلة أو الدول. إذ لا يتحدد للدولة مركز إلا بموجب تأصيل لوحدة الهوية. إذ لا يتقرر منطقيا افتراض وجود مركزيتين اثنتين في آن واحد، بل توجد الحضارة المركزية بصورة فردية، فإذا كانت الدول توجد بأعداد كبيرة فالمركزيات غالبا ما توجد فُرادى، وأفول الأولى هو إيذان بظهور الثانية وصعودها. أما سلطان هذه المركزيات ونفوذها فلا يرتبط بمساحة الأراضي الخاضعة لها، بل يكمن في هيمنته على حركة السلع والأموال والمعلومات بين مختلف بلدان العالم (المحيط)، وعلى قيامه بدور المحور الذي تدور في فلكه العلاقات الاقتصادية الدولية[2]. ها هنا يسعنا الإقرار بأن مركزية الولايات المتحدة الأمريكية هي المركزية العالمية الأولى، أو الحضارة العالمية في عالمنا المعاصر اليوم، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي انهيارا تاما.

إن عالمية التاريخ تنبع من تصورات فلاسفة التاريخ لتحولات مجتمعاتهم وانتقالها من طور إلى آخر، من النمو إلى النضوج والأوج ثم إلى التدهور والانحطاط، فتكون الأمم في الحالتين الأولى والثالثة تعيش على هامش الحضارة والتاريخ، كما هي بعض المجتمعات اليوم: العربية والآسيوية والامريكو-لاتينية، وحتى الأوروبية، في مواجهة المارد الأمريكي. أما في الحالة الثانية، حالة القوة والأوج، فتكون تلك الأمة قلب العالم ومركز ثقله، حضاريا وفكريا وماديا، كما كانت من قبل اليونان والرومان، والحضارة العربية الإسلامية في الأندلس والمغرب، وأوروبا في العصر الحديث. لهذا نقول بأن تصورات الحضارة يمكن توحيدها ضمن مفهوم "المركزية" أو "التمركز" أو لنقل الحضارة العالمية أو الكونية.

ثانيا: اسس للتمركز الحضاري المادية والايديولوجية

1-العرق واستعداداته الفطرية

بادئ ذي بدء، يقول غوستاف لوبون: *"في الصف الأول للعلل الكثيرة التي تعين التاريخ تبرز العوامل الموروثة من الأجداد، أي مجموع القابليات التي تولد مع الإنسان، فمن روح الأموات تكونت روح الأحياء، وفينا لا في المقابر*

[1] هيرفريد مونكلر: الإمبراطوريات منطق الهيمنة العالمية من روما القديمة إلى الو.م.أ، تر عدنان عباس علي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ط1، 2008، ص 20.

[2] المرجع نفسه، ص 29.

يرقد من زالوا بالحقيقة، ويوجد كثير من القرون خلف كل موجود، أتى إلى النور، ويبقى هذا الموجود متأثرا بماضيه" [1]؛ تلك هي القاعدة الأولى التي تعد من أهم الأسس النظرية، للمركزيات الحضارية عبر التاريخ، فالصفاء العرقي وتجانسه شرطان ضروريان لرؤية مجتمع أكثر تجانسا، وتماسكا؛ وكما سبق وأن أشرنا إليه في موضع سابق، أن الأمم والحضارات، تنقسم وتصنف على حسب الأعراق السائدة فيها، إلى ثلاثة مستويات، فنجد منها المتقدمة وتشتمل على أعراق عليا، وأخرى متوسطة، ومنها ما هو بدائي، أما المكونات الوراثية ضمن هاته الأعراق فتظهر في الصفات الذهنية والوجدانية لكل عرق أو مستوى، وحسب "لوبون"، فإن تجانس المستوى النفسي هو ميزة الأعراق الدنيا – حسب اعتقاده– أما التفاوت الذهني فإنه ميزة الأعراق العليا[2]. ووفق هذه التراتبية تنشأ الحضارات وتتوسع، عن طريق احتواء الأعلى منها الأدنى أو الأقل مرتبة، وهو صراع اثني يحرك التاريخ، بغرض تحقيق التجانس العام داخل المركز، ومن ثمة سهولة التحكم في أولئك الأقوام، وتحقيق استقرار واستمرارية الهيمنة العرقية، والقدرة على قيادتهم ودمجهم في ثقافة المركز.

إن أهمية تجانس الأعراق، تكمن كذلك في الحفاظ على نقاء وصفاء الدين الأولي، الذي يعد الرباط الوجداني الأساسي الذي يجمع الأفراد والمجتمعات، لأنه إذا انتقلت الأديان من شعوب وأقوام إلى أخرى تحولت تلك الأديان كثيرا، وشُوهت بسرعة، كما حدث للبراهمية (البوذية) عندما انتقلت إلى الصين، والإسلام لما انتقل إلى بلاد فارس أو الهند...وغيرها[3]. أي أنه وجب أن تُمنح الأمة مجموعة من الأخلاق والروح القومية المشتركة المستمدة من التركيبة العرقية، والدينية واللغوية للشعب الواحد، فينشأ الولاء وعبادة الأرض الأم، كما كانت عبادة روما في العالم القديم، والكنيسة في القرون الوسطى، وعلى العكس من ذلك تتفكك الأمم بضياع روحها القومية، فتكون عرضة للغزاة، وفريسة سهلة في أيديهم. يقول غوستاف لوبون:" *وأشد الأهوال التي يمكن أن تصاب بها الأمة هو ضياع روحها القومية، فلم تكن غزوات البرابرة المسلحة هي التي قضت على عظمة روما، بل امتزاجات الشعب الروماني الطويلة بالأجانب"* [4]. هكذا إذن يحدد "لوبون" مبدئا أساسيا في تكوين كتلة متراصة، تكون مركز ثقل الأمة، وهو مبدأ التجانس والصفاء العرقي كأساس لديمومة الحضارة واستمراريتها.

---

[1] غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 122.

[2] المرجع نفسه، ص 123.

[3] غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 124.

[4] المرجع نفسه، ص 126.

ويعتبر "جورج لوكاتش" أن كتاب "جوزيف دو غوبينيو Joseph Arthur de Gobineau " "محاولة عن تفاوت الأعراق البشرية"، *يُعد أول محاولة عميقة لإعادة بناء التاريخ العالمي بمساعدة النظرية العرقية، حيث وجد أن كل الأزمات التاريخية، وكل الفوارق الاجتماعية، والنزعات الناتجة عنها، ترجع إلى مسائل العرق، الأمر الذي يعني عمليا أن أي تغيير للبنية العرقية والاجتماعية إنما هو ضد الطبيعة الأولى، والأصيلة، سيقود البشرية حتما إلى هلاكها، ويؤثر على تقدمها*[1]. من جهة أخرى يعتقد غوبينو*، بأنه لا يمكن أن تنشأ حضارة في ظل اختلاط الأجناس المتحضر مع المتدني، إلا إذا تم دمج الأقليات العرقية في الأغلبية المهيمنة وتمدينهم، أو في الغالب القضاء عليهم أو إبادتهم**، هكذا فإن "غوبينيو" يعزو دمار الحضارات الإغريقية والرومانية إلى فكرة.

الاختلاط بالشرقيين. فبالنسبة له لا يوجد سوى تاريخ للعرق الأبيض، إذ يقول: *"...التاريخ لا يخرج إلا من تماس العروق البيضاء وحده"* [2]، فالعرق الأبيض في نظره مثقف، ويمتلك العناصر الرئيسة لكي يصبح مالكا حضاريا، ويمتلك قابلية الارتقاء والسمو، وهو ليس مرحلة بدائية تتطور، بل هو كامل ومكتمل النمو والصانع الأساسي للحضارة.

2-المعتقد الديني

إن التساؤل الموقظ للفكر المعرفي وتحفيزه هاهنا، هو: هل من الممكن أن نفترض وجود أمة مجردة من معتقدات دينية؟ طبعا لا، فلقد مثَّل سَرَيَان المعتقد الديني في اللاشعور الجمعي، بفعل التربية والتلقين، والمشاركة الاجتماعية والأسرية، دورا هاما في حياة الشعوب، أعلى من ذلك الدور الذي مثَّله العقل أو المنطق فيها، فالأمة تنمو إذا ما حازت دوافع دينية أو سياسية قادرة على تحريك جهودها في النهوض، وفي الحين نفسه ، تميل إلى الزوال

---

[1] جورج لوكاتش: تحطيم العقل(ج4)، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1982، ص 70.

*يقول "غوبينيو" في هذا الصدد: "لقد أقيم سابقا أن كل مجتمع إنما يتأسس على ثلاث طبقات أولية بدائية تمثل كل منها نوعا إثنيا سلاليا: أولا، النبالة وهي صورة تشبه العرق المنتصر، ثانيا، البرجوازية وهي مؤلفة من خلاسين يقتربون من العرق العظيم، ثالثا، الشعب وهو عبد أو على الأقل هابط بقوة، كأنه ينتمي إلى نوع بشري منحط"، جوزيف غوبينيو، نقلا عن جورج لوكاتش، تحطيم العقل (ج4)، مرجع سابق، ص 70.

**يقول في كتابه (ثلاث سنوات في آسيا)، نقلا عن عبد الله إبراهيم: "يدور كلام كثير عندنا منذ ثلاثين حولا عن تمدين سائر شعوب العالم وعن نقل الحضارة إلى هذه الأمة أو تلك، وإنما أرى أنه حتى الآن لم نحرز أية نتيجة من هذا القبيل، لا في الأزمنة الحديثة ولا في الأزمنة القديمة، وعندما يكون سكان بلد ما من البلدان قليلي التعداد، يجري تمدينهم في الغالب، ولكن لا يكون ذلك إلا بمحوهم من الوجود، أو بخلطهم مع غيرهم" نقلا عن عبد الله إبراهيم، مرجع سابق، ص 274.

[2] جورج لوكاتش: مرجع سابق، ص 71.

والتفكك، إذا ما أخذ سلطان هذه الدوافع في الذبول والتلاشي، لأن الدين من السمات الأساسية المحددة للحضارات والمحركة لها، كما يقول "ميكيافيلي": " على كل من يرغب في البقاء في نجوة من الاحتلال من الأمراء والجمهوريات، أن يحتفظ بنقاء طقوس الديانة التي يؤمن بها، وأن يحلها محل الإجلال دائما، إذ لا دليل أصدق على انحطاط أي بلد من البلاد، من رؤية العبادة السماوية فيها موضع الإهمال وعدم الاكتراث"[1]. لذلك نجد أن غالبية الحضارات تستند إلى الدين، كالحضارة الهندية التي استندت إلى الديانة الهندوسية والحضارة الفرعونية التي استندت إلى الديانة المصرية القديمة، كما ارتكزت الحضارة الصينية على العقيدة الكونفوشيوسية، واعتمدت الحضارة الغربية على الديانة المسيحية، وتأسست الحضارة العربية الإسلامية على الديانة الإسلامية. وفي هذا الصدد نستحضر، آراء فيلسوف النهضة الجزائري، "مالك بن نبي" عن مدى تأثير الفكرة الدينية، وقوة المعتقد والإيمان بالرسالة الدينية العقيدية، ودورها في دفع عزيمة الشعوب، لتحريك إرادتهم نحو النهوض والعمل، إذ يقول "بن نبي": *"دور الدين الاجتماعي منحصر في أنه يقوم بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة لحضارة...، فهو مُرَكِّب القيم الاجتماعية، ويقوم بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره وحركته، عندما يعبر عن فكرة جماعية"* [2]؛ تتكرر هذه الصورة في العالم المعاصر اليوم، لدى الشعب الأمريكي، الذي دفعه المذهب البروتستانتي للعمل والاجتهاد ووضع أسس إمبراطورية الثروة. وغدت بلادهم مركز العالم المعاصر، وكما قيل، بأن معظم تاريخ الأمم مؤلف من تاريخ آلهتها؛ فلم يُعرف في العالم أمة قامت دون مكون ديني وعقدي تتبناه وتدافع عنه، ولن يُرى مثل هذه الأمة على ما يُظن، *"فالاحتياج الوجداني إلى دين مثبت أمر لا تبديل له"* [3]، لأن المعتقد يمنح المؤمنين به قوة هائلة، خلاقة دافعة إلى الارتقاء، تتحقق بتوافق وتضامن المصلحة الشخصية، وغريزة البقاء والخوف من الألم أو العقاب، بغض النظر عمّا إذا كان هذا المعتقد صائبا أو خاطئا. وفي هذا الصدد يقول "غوستاف لوبون": "بلغ الدور الذي تمثله الآلهة في التاريخ من القوة ما لم تستطع أمة أن تغيره، من غير أن ترى حياتها تتحول تحولا تاما؛ كما أن بلاد العرب البدوية وُحّدت بالإسلام، فلم تلبث أن بلغت من القوة ما أقامت به إمبراطورية عظيمة"[4]؛

---

[1] نيكولا ميكيافيلي: مطارحات ميكيافيلي، تر خيري حماد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1982، ص 265.

[2] مالك بن نبي: مشكلات الحضارة (وجهة العالم الإسلامي)، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط1، 1987، ص 32.

[3] غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 136.

[4] المرجع نفسه، ص 135.

ومعروف أن الحضارات عبر التاريخ تأسست على أديان بارزة، شكلت روحها التي استمدت منها دوافع وجودها وأسس تمركزها، أهمها: الهندوسية، والكونفوشية، الإسلام، والمسيحية.

3-النظم السياسية والسلطة

إن الأفكار السياسية لا تقل في درجة تأثيرها عن المعتقد الديني، لما لها من قوة التأثير على تشكيل الحضارية وإعلاء شعوب وتفوقهم على شعوب أخرى، فالإيديولوجيات السياسية تمثل منظومات فكرية لها من التأثير في الفعل الحضاري للأمة، ما يوازي قوة تأثير المعتقدات الدينية فيه؛ إذ ظلت قادرة حتى الآن على إلهام المشاعر وبعث الحياة في الأفكار الضرورية لثبات هوية المجتمعات وتماسكها، ومن أمثلة الدوافع السياسية التي لها الأثر العميق في تشكيل الحضارات، نذكر الإيديولوجية الاشتراكية، ذلك النشاط السياسي ذو الشكل الديني، والذي استطاع أن يؤثر على عديد الكيانات السياسية في أوروبا، وتقسيم دويلاتها إلى إيديولوجيتين مختلفتين داخل دولة واحدة. إن للنظام السياسي القوي تأثير بليغ على مسار الهيمنة الحضارية، إذ مثلت النظم السياسية دورا عظيما في ثبات الأمم وفي انحلالها أيضا.

يرافق هذا الأساس، عنصرا مهما في السياسة، هو مبدأ السلطة، الذي نراه لازما لقيام حضارة أو أمة وقدرتها على تشكيل مركز جذب وثقل للعالم والحضارة الإنسانيين، لأن وجودها قادر على تحقيق الوحدة الذهنية والثقافية للأمة، فإذا استطاعت الأمة أن تبلغ سلطتها من القوة ما يمكنها أن تصبح معه مركز جذب، حتما ستحافظ على وجودها واتساعها؛ *"لأن السلطة في تدل على علاقة بالآخر، لهذا علاقة تفترض توافر هامش من الحرية بين كائنات يستطيع بعضها أن يؤثر على البعض الآخر، فالسلطة تفرض وجود أفراد متفاوتون في الذكاء والحرية والإرادة"*[1]. وفي المقابل، إن ذبول أو ضعف سلطة المهيمن هو إيذان بتفككه وانحلاله، وهو من العوامل الأساسية في انحطاط الحضارات، إذ تعد السلطة وقوتها، العصب الذي يسند الدولة ويُديم الحضارة، فسلطة الأفكار وقُوَتها على فكر الشعوب يحفظ تجانس وانسجام الأمم. إن مبدأ عمل السلطة، هنا ينشأ عن كونه يشكل قدرة مهمة لتوحيد فكر الشعوب، وتحويل جماعة من الناس إلى جماعة متجانسة، ولذا فيمكن عدُّه مبدأ وقاعدة أساسية لحياة الأمة، وبه فُسِّرت طريقة نشأت المجتمعات في القديم؛ يقول برتراند راسل: *"إن حب السلطة سيجعل من الحكام يرغبون في الفتوح، ويقوى هذا الحافز*

[1] ريمون بولان: الأخلاق والسياسة، تر عادل العوا، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، ط2، 1992، ص 385.

كثيرا عندما يُتخذ المغلوبون عبيدا بدلا من إبادتهم، وبهذه الطريقة نشأت في مرحلة قديمة جدا مجتمعات"[1]. أمّاعن العوامل التي يتلاشى بها مبدأ السلطة، فذكر "غوستاف لوبون" أنّ تأليف الأحزاب ذات منافع متباينة ضمن المجتمع، يدفعها للمنافسة فيما بينها، لأنها تعتقد أنها بلغت من القوة ما تدخل به الصراع مع غيرها، ما يؤدي إلى ضعف مبدأ السلطة وبدأ دور الأفول؛ ومن الأدلة التاريخية التي تثبت ذلك أن العديد من الدول والإمبراطوريات القديمة، هلكت بسبب تراجع سلطتها على أراضيها وشعوبها مثل اليونان، التي هلكت عندما أضاعت استقلالها بعد ازدهار لا يزال يبهرنا، وهلاك الجمهورية الرومانية، عندما حملت سلسلة من المنازعات التي لا تعرف الرحمة على معاناة دكتاتورية الأباطرة المهيمنة، كما هلكت جمهوريات ايطاليا في القرون الوسطى، وبولونيا...وغيرها[2]. وإجمالا فإن قوة وحضور السلطة السياسية يمنح حضارة تفردا في القيمة والقوة بما يسمح لها ببسط سيادتها على محيطها وقدرة على التأثير في فكر وذهنية الشعوب والأمم.

قد تنوعت العوامل التي وجّهت نشاط الأمم في مختلف أدوار تاريخها من طور النمو إلى النضوج، إلى الأفول، فكانت عوامل عرقية، وعوامل دينية، وسياسية، وبين هذه العوامل المختلفة التي أثرت في مختلف مراحل التاريخ، ساهمت العوامل الاقتصادية كذلك بقدر كبير في تعزيز فاعلية الدينامية السياسية والمحافظة على التوازنات الإقليمية والعالمية التي من شأنها أن تعزز سيادة المركز، ولازالت تعظم أهميته إلى اليوم، نظير ما يصنعه النظام الليبرالي في شد عضد الدول الغربية أو قل الحضارة المركزية في الوقت الراهن.

[1] برتراند راسل: السلطة والفرد، تر شاهر الحمود، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1961، ص40.

[2] غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 229.

المبحث الرابع: المركزية الغربية الحديثة والمعاصرة

أولا: دلالات المفهوم، مركزية أوروبية أم غربية:

من دلالة المفهوم، الغرب أم أوروبا؟؛ ننطلق في التأسيس للحضارة المركزية المهيمنة في العصر الحديث والتي تمخضت عن تلك الحقبة الطويلة والمتقلبة التي يصطلح عليها بالعصور الوسطى، فبرزت حضارة في الجزء الغربي من العالم، وهنا وجب النظر في أصل التسمية أولا: أ هو الغرب أم أوروبا؟ في الحقيقة هما مفهومان متلازمان *"نتيجة تطور مجموعة العناصر الاجتماعية والدينية والسياسية والثقافية، في القرون الوسطى، فاندمجت لتشكل هوية أوروبا؛ وبانتهاء تلك الحقبة، ظهر للعيان مفهوم الغرب بأبعاده الدلالية الأولية"* [1]. يجتمع الغرب الأوروبي في مقاصد ثقافية، وسياسية، ودينية، ومجموعة من الصفات والخصائص العرقية والحضارية، نعتبرها ركائز ثابتة ومتفردة تشكل أسس هوية الغرب، التي يمتاز بها عن غيره، هكذا انجلى بوضوح مفهوم المركزية الغربية، وهي تلك المنطقة المحورية في الجغرافيا العالمية تتمتع بجاذبية كبيرة نظير مؤهلاتها العلمية، والإنسانية، ومستحوذة في الوقت ذاته على كل الإشعاعات الحضارية القديمة، بما فيها مكتسبات الحضارة الإسلامية وإرث الإغريق الثقافي والفلسفي، ومبعدة ما ليس غربيا عن مسار تقدمها، قاذفة به إلى خارج الفلك التاريخي. لقد أصبح الغرب هو مركز العالم وحقلا سائرا إلى التوسع خارج نطاق حدوده الجغرافية وتشكّل مفهوم التمركز حول الأنا الغربية، فأحال الآخر إلى مكون منفعل وهامشي. أما أوروبا فكانت "تغادر حقبة العصور الوسطى ولم تفلح بعد في إضفاء صفة على شعوبها، ولم تظهر كلمة "أوروبي" ولم تندمج الأعراق التي تستوطنها في هوية محددة، إلا بالشعور الديني الذي يشكل بطانة داخلية للتواصل الروحي، وكان هذا الشعور يتنازعه قطبان، هما البابا والإمبراطور"[2]. من هنا حملت أوروبا وقادتها على عاتقهم الاستثمار في القواسم المشتركة بين شعوب النصف الشمالي من الكرة الأرضية، وتطوير منظومة الممارسات والأفعال والأفكار المشتركة والمدمجة، للتفرد بكيان جديد في العصر الجديد وهو الكيان الأوروبي. ويمكن حصر أهم المقومات التي أظهرت أوروبا بوصفها مكونا متجانسا ومؤثرا، في خمسة هي: *"اللغة اللاتينية؛ والأدب القديم؛ والانتلجنسيا التي بدأت منذ القرن الثالث عشر تدرس في جامعات متماثلة؛ وطبقات حاكمة لها الميول والأذواق نفسها؛ وكذا البعثات الأولى إلى الشرق الأقصى في القرن الثالث عشر"* [3]. وفي هذه العوامل يقيم القاسم المشترك الذي تتمركز حوله الذات الغربية، وهو هوية علمية وعقلية

[1] عبد الله إبراهيم: مرجع سابق، ص 13.

[2] المرجع نفسه، ص 15.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

جديدة مخالفة لتلك التي كانت سائدة في العالم القديم، ومن ثمة التحرر من سلطة الماضي المتعلقة بالكنيسة، فأصبحت أوروبا مجالا للممارسة العقلية، وأصبحت الذهنية الغربية لا تقبل إلا المبادئ الواضحة التي تفضي إلى فرضيات واستنتاجات قابلة لأن تدافع عن وجودها وحقيقتها، وهذه هي اللحظة البيكونية والديكارتية، اللّتان أديتا إلى زحزحة الفكر السكولائي الظلامي، وإحلال محله مضمون عقلي وعلمي مركزه الفرد، يهدف إلى الهيمنة على العالم الحديث، وكان محفزا للنزعة الكولونيالية التي تغذيها الرغبة في التسيّد والقيادة؛ هكذا تشكلت حيوية أوروبا في مقابل خمول بقية العالم. وعُدّ ظهور النظام العالمي الغربي شكلا مغايرا للتطور التالي في السياسة الكونية، بعد سنة 1500م، بإخضاع الشعوب غير الغربية والسيطرة عليها وبالموازاة مع ذلك توحيد الشعوب الغربية، وتفاعلها مع بعضها على أساس تجانس ثقافي يتضمن اللغة، القانون، الدين، الممارسات الإدارية، الزراعة، ملكية الأراضي، وربما درجات القربى، فالشعوب الأوروبية كانت تشترك في ثقافة عامة[1].

إن الرؤية الأوروبية المركزية "Eurocentrism"، هي النسخة المعروفة من التاريخ الغربي –أي الانتقال من اليونان القديمة إلى روما إلى أوروبا المسيحية الإقطاعية إلى أوروبا الرأسمالية–وهي واحدة من أكثر الأفكار التي تم تلقيها شعبيا في كتب المدارس الابتدائية، والرأي العام هو الأكثر أهمية، أو حتى في خلق، ونشر هذا البناء بوصفها أكثر الأطروحات الأخاذة التي تم تطويرها لتبرير أصل الثقافة والحضارة الأوروبية[2]. إن فكرة السمو الأوروبي وامتدادية أوروبا في التاريخ، وتَشكل فكرة التمركز الأوروبي في العالم، ستفرض نفسها في القرن الثامن عشر، أين ستصبح أوروبا الوسيط للتقدم الكوني، والسيد المعطاء الذي ينبغي على العالم أن يكون معتمدا عليه سياسيا وتكنولوجيا. من هنا بدأ التفكير في جمع العالم كافة في مجتمع كوني واحد، عن طريق عولمة القيم الروحية والفكرية والسلوكية على باقي الأجناس والأعراق، فتبقى ممتنة لأوروبا؛ وبهذا تستعيد أوروبا ثنائية المؤمن والكافر التي شاعت في القرون الوسطى، وثنائية الإغريقي والبربري المتأصلة في التراث اليوناني القديم.

بشكل عام أصبح اصطلاح الغرب يستخدم للإشارة إلى ما كان يسمى عادة "بالعالم المسيحي الغربي"، وهكذا فإن الغرب هو الحضارة الوحيدة التي تتحدد باتجاه البوصلة، ليس باسم شعب أو دين أو مساحة جغرافية؛ ولكن ثقافيا ودينيا. وبالسند التاريخي تعتبر الحضارة الغربية حضارة أوروبية، وفي العصر الحديث هي حضارة أوروبية أمريكية، وشمال أطلنطية، ومؤدى اسم الغرب إنتاج فعل التغريب، كما أدى إلى الدمج المضلل بين التغريب والتحديث، فنقول على

[1] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 87.

[2] Samir Amine: Eurocentrism , trans Russell Moore & James membrez, monthly review press, new York , 2009, 5eme edition, p166.

سبيل المثال: اليابان متغربة، وليست متأمركة أو متأوربة[1]. أما "سيرج لاتوش" فيجيب عن سؤال ما الغرب؟ بعدة محددات: جغرافية ودينية وثقافية، وعرقية وفلسفية واقتصادية، تميزه عن باقي الأمم والثقافات، فإذا نظرنا إليه ضمن كيان جغرافي: فهو أوروبا، وضمن ديانة: فهي المسيحية، وضمن فلسفة: هو التنوير، وضمن عرق: هو العرق الأبيض، وضمن نظام اقتصادي: فهي الرأسمالية[2].

إذن لا يختلف اثنان في أن الحضارة البارزة منذ العصر الحديث، والجديرة بالغلبة والتسيّد هي الحضارة الغربية، والتي يسهل إدراك تمركزها بمجرد النظر حول العالم القديم والجديد، إنه أمر ظاهر للعيان كما دعا إلى ذلك كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss(1908-2009) بقوله: *"أنظروا حولكم، انتبهوا لكل ما يجري في العالم منذ قرن واحد، فتنهار كل تأملاتكم. وبعيدا عن انغلاقها على نفسها، تعترف جميع الحضارات الواحدة بعد الأخرى بتفوق واحدة منها، ألا وهي الحضارة الغربية"* [3]. إذا إن بروز ظاهرة شمولية الحضارة الغربية وتجلياتها، واحتواءها لباقي الثقافات الإنسانية، أرسى مفهوم التمركز، (تمركز الغرب حضاريا في العالم، ضمن الجغرافيا الطبيعية) والشاهد على ذلك، هو سيطرة الغرب على ما نسبته 80 %، من المستعمرات في العالم الحديث، واشتمالها على إرث وتاريخ الأمم؛ *"أ لا نرى أن العالم بأسره يستعير منها تدريجيا تقنياتها ونمط حياتها وأساليب لهوها وحتى ملابسها؟"* [4]-يتساءل ليفي شتراوس-ونحن نجيب بقولنا: بلى فنحن نتمثل ذلك في واقعنا.

تنقسم حضارة الغرب حسب المؤرخين، إلى حقبتين أساسيتين: الأولى هي الحقبة الأوروبية التي تزامنت مع عصر الحداثة الأوروبية الذي بدأ مع الثورات العلمية والتكنولوجية في القرنين السادس والسابع عشر مع غاليليو، وبيكون وديكارت، ونيوتن، وغيرهم، حيث أن هيمنة الغرب على العلم مكّنته من الهيمنة على العالم، والنهضة العلمية جاءت لتقوي من السيطرة على الطبيعة، وبناء قوة العقل المسيطر باكتشاف قوانين تضمن له تلك الهيمنة، بناء على مقولة "المعرفة، قوة"، أي معرفة أسرار وقوانين الكون، ومن ثمة تسخيرها في خدمة البشر في مملكتهم والسيادة على العالم وممارسة السلطة على الأشياء. أما عصر التنوير الحاصل في القرن الثامن عشر، فيعتبر منبع عظيم للحضارة الغربية، إذ أنه أكسب الحضارة الغربية منظومة مفاهيم وممارسات كالديمقراطية الليبرالية، والسوق الحرة، وتوظيف العقل

[1] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 78.

[2] سيرج لاتوش: مرجع سابق، ص 31

[3] كلود ليفي شتراوس: العرق والتاريخ، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، دط، دس، ص39.

[4] المرجع نفسه، ص 39.

والعلم من أجل إضفاء معنى على العالم؛ إلى غاية القرن التاسع عشر، وبروز إمبراطوريات أوروبا، كبريطانيا وفرنسا[1] وايطاليا وتوسع مستعمراتها. أما الثانية فهي الحقبة الأمريكية، التي تبدأ منذ نهاية القرن العشرين، لتعلن تفوق النموذج الغربي أمام الشرق. "*أما الحضارة التي نعيش في كنفها اليوم-أي الحضارة الكوكبية حضارة العولمة. وهي حضارة تمثل مد الحضارة الغربية إلى أقصى زوايا كوكب الأرض، بعيدا وراء نواتها الأصلية في أوروبا الغربية، ونواتها في أمريكا الشمالية* "[2].

بالنظر إلى مقومات المركزية الغربية السالفة الذكر، فإن التنوير في أوروبا أقصى أحد أهم الأسس المركزية لقيام وثبات الحضارة، وأفقدها صفة الشمولية والقدسية: إنه الأساس الديني، فالتنوير حارب الكهنوت المسيحي وجرد الحضارة الغربية من النصوص المقدسة، واستباح المقدس وقوض الكلمة (ركيزة الحضارة الغربية المسيحية) وأصبح التأويل هو الخطاب الجديد، حاملا بحرا من الكلمات أغرق أوروبا في بنيات وأنساق معرفية، نسفت أهم تواتراتها الكلاسيكية الخلاقة ألا وهو المقدس، هذا المنعطف فتح المجال للحضارة الغربية ما بعد القرن التاسع عشر فغيّر المحور، وشكل نواة جديدة أصبحت مركز العالم الغربي والشرقي، وهو ما استفادت منه أمريكا بعد ثورة الإصلاح الديني في الكنيسة الكاثوليكية، فما كان نقمة على أوروبا أصبح في أمريكا أحد أبرز أسلحتها للهيمنة العالمية. وهو ما أدى إلى انحسار نفوذ النواة الأوروبية. "*ففي بداية القرن العشرين تم ابتكار عنوان "الحضارة الغربية" وجاء العنوان تسجيلا لإدراك حقيقة أن هذه الحضارة ليست كمعظم الحضارات الأخرى، كفت عن علّ الدين جوهرا لها. بيد أنه كان أيضا تسجيلا لواقع، أن هذه الحضارة لم تكن إلا واحدة بين حضارات أخرى*"[3].

غير أن هذه الحضارة الغربية الأوروبية لم تعمر كثيرا، إذ دخلت في متاهات وصراعات كادت أن تعصف بها خصوصا بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكما عبر عن ذلك شبنجلر في كتابه (انحطاط الغرب) سنة 1918م، وهو ما أدى إلى تجريد هذه الحضارة (الغربية-الأوروبية) من هويتها المتماسكة في إطار نواتها الأوروبية الأصلية، فتحول ذلك التماسك إلى سلسلة ومجموعة قوميات جديدة، لهذا "*فلو تُركت عبارة الحضارة الغربية بأيدي الأوروبيين وحدهم أو لعقولهم بالأحرى، لما عاشت ربما إلا حياة وجيزة مثقلة بالبؤس. غير أن العالم الجديد كان هو العنصر الذي*

[1] ثورة بريطانيا سنة 1688 أعلنت عن مقولتي الحرية والدستور، ثم جاءت ثورة 1789 الفرنسية أكدت على مقولتي الديمقراطية والأمة (النزعة القومية-الوطنية)، نقلا عن، بيتر جي كاتزنشتاين، الحضارات في السياسة العالمية، ص 96.

[2] بيتر جي كاتزنشتاين: مرجع سابق، ص 95.

[3] المرجع نفسه، ص 99.

سيجري استنفاره لانتشال العالم القديم من درك تشاؤمه؛ فكان إحياء الحضارة الغربية وإعادة اختراعها، أحد مشروعات الولايات المتحدة العظيمة" [1]. بعد هذا المخاض العسير، وفي العام 1945 وبعد أن كانت النواة الأوروبية للحضارة الغربية قد تعرضت لقدر كبير وبالغ الخطورة من الخراب، حصلت الحضارة في النهاية، على دولة مركزية، تمثلت في الولايات المتحدة، فراحت الولايات المتحدة تدعي أنها صاحبة التمثيل الأفضل لجملة مثل الحضارة الغربية وقيمها، بما يجعلها لا الدولة المركزية فحسب، بل الدولة الحضارية للحضارة الغربية"[2]، وهنا نتساءل: هل للأمريكيين تصور مماثل للحضارة الغربية كما يتصوره الأوروبيون؟ أم أن تصورها للحضارة مخالف لرؤية العالم القديم لها؟ أي وفق أسس أمريكية، مستمدة من التجربة الأمريكية، بالبروتستانتية الكالفينية وعقيدة الهيمنة والنزعة الفردية في بلاد العم سام؟ وأي تمظهرات ستنجلي في المفهوم الحضاري الجديد؟

بالعودة إلى الحقبة الأوروبية من الحضارة الغربية، فإن المرتكزات المعرفية، التي قامت عليها المركزية الأوروبية نجملها في ثلاثة معالم مهمة، استمدت منها أوروبا مكانتها المحورية: الأول هو المصدر الروماني، وإرثها من مؤسسات بلدية، وحكم ذاتي وفكرة الدولة ذات سلطة سيادية؛ أما المصدر الثاني فيتجلى في المسيحية، وفكرتها القائلة بتفوق القانون الأخلاقي على القانون التشريعي، وفصلها الملازم بين السلطتين الروحية والدنيوية؛ والمصدر الثالث في جوهره يستمد من النظام الإقطاعي الذي تجاوز الهمجية التي أعقبت السلطة الرومانية، وأسس فكرة ألمانية للحرية والشخصية والدنيوية"[3].

أما في خطابات المستشرقين الأوروبيين، الذين آثروا أن ينفردوا بالعقل الفلسفي الإغريقي، دلائل على نزعة واحدية وتفرد النموذج الحضاري والثقافي، ينبثق عن مركزية إثنية أوروبية، لما أجمعوا على أن نهر الفلسفة اليونانية يجري فعليا في المصب الأوروبي الغربي؛ أبرزهم "أرنست رينان" صائغ أسطورة تفوق الجنس الآري ودونية الجنسين الشرقي والإفريقي في القرن التاسع عشر، في قضية الصراع على تاريخ العقل، سؤال متى وأين بدأت الفلسفة؟ ويقول "سمير أمين"، عن الجذور اليونانية لأوروبا: "إن أسطورة الأصول اليونانية تؤدي وظيفة أساسية في البناء الأوروبي المركزي. وهو ادعاء عاطفي حسبه، تم تصميمه بشكل مصطنع من أجل التهرب من السؤال الحقيقي ـ لماذا ظهرت الرأسمالية في أوروبا قبل أن تظهر في أماكن أخرى ـ من خلال استبدالها، وسط مجموعة كاملة من إجابات خاطئة مع فكرة أن التراث اليوناني

[1] بيتر جي كاتزنشتاين: مرجع سابق، ص 99.

[2] المرجع نفسه، ص ص 100-101.

[3] بروس مازليش: مرجع سابق، ص 65.

كان يبدأ بأوروبا العقلانية. في هذه الأسطورة، كانت اليونان أم الفلسفة العقلانية، في حين لم ينجح الشرق قط في تجاوز الميتافيزيقا[1].

ولهذا فإن عوامل تفكك المركزية الأوروبية، التي زحزحت أوروبا عن المحور، وأدت إلى فسح المجال للمارد الأمريكي من جهة، وموجة العملاق النائم القادم من الشرق من جهة أخرى، لخصها "روجي غارودي" بقوله: *"إن حضارة تقوم على إحالة الإنسان على العمل والاستهلاك وإحالة الفكر على الذكاء، وإحالة اللانهائي على الكم، هي حضارة مؤهلة للانتحار"* [2]. فإحالة الإنسان على العمل يعني، الأخذ بأولوية الفعل والعمل، بوصفه قيمة مطلقة ومن ثمة طغيان الجانب النفعي، وهذا ما يجسده ظهور المجتمع الاستهلاكي؛ أما إحالة الفكر على الذكاء، فتشير إلى الإيمان بقدرة العقل الجبارة على حل المشكلات، وبالتالي التأسيس لفكر عقلاني، وإحالة العقل إلى الذكاء المتصل بعالم الأشياء، فيصيرها إلى وسائل نافعة للإنسان، كما ورد هذا في فلسفة برغسون النفسية التي ترى في العقل تلك مجرد قوة مرتبطة بالمادة تعمل على حل معضلاتها، هنا لا يختلف عن الذكاء بل يماهيه؛ أما إحالة اللانهائي على الكم فيقصد بها ذلك النمو الكمي اللامحدود في الإنتاج والاستهلاك، فهو بمثابة الروح الخالدة والأبدية التي ينبض بها قلب الإنسان الأوروبي، لهذا فإن *"الشمس قد غربت منذ وقت طويل على أوروبا العجوز وأصبحت الحروب الصليبية منسية وشاخت الملحمة الكولونيالية...ولم يعد للرجل الأبيض سوى أثر مؤقت من الماضي"* [3]. إن هذه المكونات الثلاثة للثقافة الغربية، سوف تعصف بها في المستقبل حسب تحليل غارودي، ونحن نراها في نفس الوقت إحدى السمات الفلسفية التي قامت عليها المركزية الأوروبية، واختصت بها وكانت دافعا قويا لجعل أوروبا مركزا حضاريا للعالم منذ بداية القرن الثامن عشر.

بفعل عناصر جديدة للسيطرة الغربية بدءا من القرن التاسع عشر ظل الغرب في الكواليس يجذب الخيوط، إذ أضحى يمثل قوى رمزية، أكثر منها واقعية، فبالرغم من أن سيطرته أصبحت معنوية إلا أنها كانت أكثر ضررا على الهويات الثقافية للأمم، فامتلاك الغرب مقومات التمركز سوغت له مختلف صنوف الاستغلال والإقصاء باسم رفعة الجنس ومقدرته الفائقة على التفكير والإبداع، وبالتالي امتلاك أحقية قيادة العالم، والسيطرة على باقي الأجناس. لقد أوقفت المركزية الغربية عجلة التطور والحراك الحضاري، ورسّخت أطروحة مفادها: حتمية أن تظل الحضارات *"ثابتة*

[1] Samir Amine Op cit, p p 166,167.

[2] روجي غارودي: حوار الحضارات، تر عادل العوا، دار عويدات للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999، ص 37.

[3] سيرج لاتوش: مرجع سابق، ص 55.

ومتمحورة حول نواة واحدة من القيم التي لا تتغير بتغير الظروف" [1]. وقد ساهم في تكريس النزعة الفوقية الغربية للحركة الاستعمارية الواسعة التي قادها الرجل الأبيض، من هنا اكتسب الغرب وجوده وفاعليته في العالم. وتتمثل عناصر السيطرة الغربية الجديدة في العلم، والتقنية، والاقتصاد، وعالم الخيال الذي تقوم عليه هذه العناصر، أي قيم التقدم...فحق السيطرة لم يعد استبعادا للضعيف من جانب ذلك الذي تجعله التقنية قويا، بل هو الخاصية المباشرة للتقنية بحكم بداهة تفوقها، لقد غدت التقنية جزءا من عقيدة عالمية: وهي النتيجة الملموسة والحضور الجلي للإله الجديد: العلم[2]. أي انتشار إيديولوجية العلمانية وبهذا حدث تحولا في الأدوار بين سلطة الكنيسة وسلطة العلم، فحل العلم محل الإيمان واللّاهوت، هذا ما يؤكد ارتباط العلمانية بمرحلة الحداثة الغربية، لقد ساهم في ظهورها صعود العقل، والعلم وانجلاء الحقيقة وزحزحة مركزية اللّاهوت من أمام مركزية العقل. بهذا تتحقق الامبريالية الغربية التي تتمركز حول الذات وسلطة العقل الأوروبي وتحاول الظهور بأبهى صورة لها تجعل من غير الممكن إدراك خطرها وعدم التوجس منها خيفة، إذ تتمظهر في قالب الحريات والديمقراطيات والاستهلاك. "إن الغرب كيان ثقافي، وظاهرة حضارية لها خصوصيتها، إذ أصبح مفهوم الغرب في الوقت الحالي فكرة إيديولوجية أكثر منها جغرافية، وفي الجغرافيا السياسية المعاصرة يعني العالم الغربي الدول التي تقع في نصف الكرة الأرضية الشمالي وهي أوروبا الغربية واليابان والو.م.أ.

[1] عبد الله إبراهيم: مرجع سابق، ص 26.

[2] سيرج لاتوش: مرجع سابق، ص ص24-25.

ثانيا: المركزية الأمريكية البدايات والتأسيس:

1- الهوية الأمريكية، من الأمة الاستثنائية إلى المركزية العالمية:

إن إعادة النظر في تاريخ الهوية الأميركية الاستثنائي اليوم، ليس مجرد دراسة نظرية تاريخية، بل إنها تشكل محطة عملية ملحة فيما يتصل بمعرفة الاتجاه المستقبلي للزعامة العالمية التي أصبحت عليه الولايات المتحدة قبل الآن، فلقد كان خطاب الاستثنائية بارزا في صميم تصريحات السياسة الخارجية التي أطلقها "مِت رومني"Mitt Romneyعضو في مجلس الشيوخ الأمريكي (سنة 1994)، حين قال: *"يتعين على أميركا أن تقود العالم...وأعتقد أننا بلد استثنائي، له مصير ودور فريد في العالم...هذه هي لحظة أميركا...لن أعتذر أبداً عن أميركا "* [1].

ولكن ماذا تعني الاستثنائية الأميركية؟ إن الإجابة على هذا السؤال، ستحيلنا على تمثل تجليات فعل الهيمنة والنزاع الحضاري بين القوى العالمية، إذ تقرر لفظة "الاستثنائية" إرساء نزعة تمركزية تكون الولايات المتحدة فيها مركزا ناظما العالم، تشغل هي محور ثقله، وتعيد بذلك تشكيل علاقاتها مع العالم الخارجي الغربي الأوروبي والشرقي الآسيوي والإفريقي، على نحو استعلائي، حدّاه: مركز وهامش. إن أول من استخدم مصطلح "الاستثنائية"، هو السوسيولوجي الفرنسي "اليكسيس دوتوكفيل" كيف لا وهو الأوروبي الذي عاصر مرحلة الانحدار في منحى القيم والمثل والحقوق الفردية في أوروبا، والمنفتح على العالم الجديد. فلقد كان الأمريكيون الإنجليز حسب رأيه، *"أول أمة أسعدها الحظ، بالإفلات من سيطرة السلطة المطلقة، فقد أتاحت لهم أحوالهم الاجتماعية، وأتاح لهم أصلهم وذكائهم، ولا سيما عاداتهم الأخلاقية، أن يقيموا سيادة الشعب ويعملوا على صيانتها، والمحافظة عليها"* [2].

إن تأسيس الولايات المتحدة كان بمثابة انفصال عن التاريخ ذاته، وأن مواطنوها كانوا يؤسسون بداية جديدة ومجتمع جديد، يقف وراء استثنائية أميركا. لقد تأسست أمريكا على مبادئ الحرية وحقوق الإنسان وحقوق الشعوب في حكم نفسها وتقرير مصيرها، وهي سوف تتجنب أيضاً أخطاء الدول الغربية الأخرى في الحقبة الحديثة؛ ومن بين تلك الأخطاء الفقر الجماعي والصراع الطبقي الذي بدا أن الحداثة في بريطانيا تخلقه. لقد كانت حالة أوروبا في الفترة 1650م، تتسم بالملكية المطلقة والحريات المقيدة، فقلّ النشاط السياسي، وكانت مبادئ الحرية الصحيحة، أقل تداولا وانتشارا بين الشعوب، بل كانت موضع احتقار وجهل، بينما كانت تُعلن في العالم الجديد (أمريكا)، وكانت تُقبل

[1]James w. Ceaser: The Origins and Character of American Exceptionalism, American Political Thought: A Journal of Ideas, Institutions, and Culture, vol. 1 (Spring 2012), p 3.

[2] أليكسيس دوتوكفيل: الديمقراطية في أمريكا، ترجمة أمين مرسي قنديل، عالم الكتب، القاهرة، ج1و2، دط، دس، ص 59.

بوصفها عقيدة مستقبلية لأمة عظيمة[1]. أمّا هتنغتون، فيرى أن أمريكا كانت تمثل أرض الحرية والمساواة، والفرص، والمستقبل، أما أوروبا فقد كانت تُمثل الظلم، والصراع الطبقي والكهنوت والتخلف. بينما كانت أمريكا القرن التاسع عشر تُعرف نفسها بأنها مختلفة عن أوروبا ومضادة لها، إن أمريكا القرن العشرين لم تعرف نفسها كجزء، بل كقائد لكيان أوسع هو الغرب الذي يضم أوروبا[2].إذن وبالرغم من هذه التشكيلات المتنوعة من جميع صنوف المجتمع، إلّا أن حضارة أمريكا قامت من رحم دوامة الاختلاف العرقي والاجتماعي، لذلك كانت الفكرة الأمريكية عن الجنسية مختلفة عن العالم، فهي تستند إلى تاريخ مشترك وإلى أعراق متنوعة يعتز بها الأمريكيون على اختلاف أصولهم (بريطانيون، إسبان، هنود، هولنديون...)ومعتقدات متنوعة، فهؤلاء أصبح يحكمهم الحاضر والمستقبل.

إن ما يؤكد هذا التجلي لفكرة الاستثنائية الأمريكية إبان القرن العشرين، هو ظهور هذا المصطلح في منشورات الولايات المتحدة 457 مرة في الفترة من 1980م إلى 2000م، و2558 مرة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وهو ما بلغ بشكل كبير 4172 مرة منذ عام 2010م. والواقع أنه حتى في أعقاب الكوارث المزدوجة التي لحقت بالجيش الأميركي والاقتصاد الأميركي والتي ظهرت في أعقاب الاضطرابات المستمرة في العراق وأفغانستان والأزمة المالية العالمية في سنة 2008م[3].

بناء عليه يتضح أن معنى "استثنائية أميركا"، هو التميز والتفرد في مقابل الدول الأخرى؛ من خلال الإيمان بأن الولايات المتحدة وشعبها يحظيان بمكانة خاصة في العالم، ومن خلال ما تمنحه من تقديم الفرص والأمل للبشرية المستمد من التوازن الفريد بين المصالح العامة والخاصة، وهو ما تعلنه المثل الدستورية التي تركز على الحرية الشخصية والاقتصادية. ولقد استخدم بعض مواطني الولايات المتحدة هذا المصطلح لادعاء التفوق الأخلاقي لأميركا والأمريكيين كما يستخدمه آخرون للإشارة إلى مفهوم "الحلم الأمريكيAmerican Dream" باعتباره مثالياً واستثنائيا في حد ذاته؛ في مقابل ما كانت تعاني منه القارة العجوز في ظرفها التاريخي الذي شهد معاناتها مع الإقطاعية؛ إذ عرفت أمريكا ما يهدد الحضارات الأوروبية من مخاضات، فقد عايشت حربا أهلية، هلك فيها مواطنوها، وعرفت النزاع بين أرباب المال والعمال من جهة، واستبداد النقابات، ووعيد الاشتراكيين من جهة أخرى،

[1] أليكسيس دوتوكفيل: مرجع سابق، ص 47.

[2] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 77.

[3]Taesuh Cha : American Exceptionalism at theCrossroads, Three Responses, Political Studies Review, Vol 13, 2015, p351.

ثم خرجت من رحم الفوضى تماما، واهتدت بنخبة أبنائها، فحلّت المنافسة التي ما فتئ الاشتراكيون يهددون بها أوروبا، محل المساواة والتعاون بين جميع الطبقات[1].

وفي القرن العشرين عرف هذا المصطلح ظهورا علنيا في خطابات الزعماء الأمريكيون*، فلقد كان الرئيس الأمريكي الثامن والعشرين "وودرو ويلسونWoodrow Wilson(1856-1924)، أهم شخصية سياسية جمعت بين التوسع الاقتصادي والتوسع الفكري السياسي الأمريكي. شهد حلول الحرب العالمية الأولى والتي لم تشارك فيها الولايات المتحدة إلا في عام 1917م، ولكن عندما تحقق النصر في هذه الحرب أواخر سنة 1918م اعتبر "ويلسون" نفسه منتصرا رئيسيا في تلك الحرب، وقرر أن العالم أجمع يجب أن يُعاد بناؤه بموجب خطته هو. وبعد الحرب العالمية الثانية، كانت أميركا -طبقاً لويلسون-*"أمة عظيمة، تسير في مقدمة موكب عظيم، كان هدفه يتلخص في المرتفعات التي لا يستند إليها إلا الضوء النقي لعدالة الله"* [2]. ومثل كثير من قادة أمريكا قبله، دأب "وودرو ويلسون" على تأكيد أن مشيئة ربانية ما قد جعلت الولايات المتحدة الأمريكية أمة نوعية مختلفة، فقال: "*يبدو كما لو أن قارة من تدبير الرّب لم تستغل، هيفي انتظار شعب عشق التحرر، وحقوق البشر أكثر من أي شيء آخر، ليأتي ويشيد صرح كومنولث بعيدا عن الأنانية*" [3]. هكذا يزعم أنصار مقولة "الاستثناء الأميركي" أن الولايات المتحدة استثنائية من حيث أنها تأسست على مجموعة من المثل الجمهورية، وليس على تراث مشترك أو عِرق، أو نخبة حاكمة.

---

[1] غوستاف لوبون: مرجع سابق، ص 216.

* لم يستخدم قط مصطلح "الاستثنائية". وعلى الرغم من أن الدراسة العلمية للمفهوم ترجع إلى زمن بعيد، إلا أن التصرف وفقه لا يحدث حتى وقت قريب نسبياً. ويكشف البحث في قاعدة البيانات عن الكلمة في مؤشرات العلوم الاجتماعية أن "الاستثنائية"، في كتاب Max Lernerباستثناء واحد، لا تظهر في أي من الكتابات حتى أواخر الخمسينيات. ويعود الفضل إلى ماكس ليرنر بعنوان "أميركا كحضارة" (1957). يرجع هذا الاستثناء إلى أطروحة اقترحها زعيم الحزب الشيوعي الأميركي جاي ليفيستون. فقد استخدم ليفيستون المصطلح في عشرينيات القرن العشرين، وربما للمرة الأولى، لوصف مسار أميركا إلى الثورة المقبلة، والتي سوف تتأخر للأسف قليلاً بسبب تحقيق الرأسمالية لاستقرار مؤقت في هذه المرحلة تأخر بالمقارنة مع الدول المتقدمة الأخرى. ولقد أدت هذه النظرية إلى موجة من المقالات، أغلبها باللغة الروسية، حول الاستثنائية. ولم يلحظ موقف ليفيستون من جانب رئيس اللجنة الدولية، جوزيف ستالين، الذي طرد من الحزب لارتكابه خطيئة ماركسية كاردينال: الانحراف James w. Ceaser : The Origins and Character of American Exceptionalism, p p 5-6

[2] Michael Northcott: An Angel Directs the Storm (Apocalyptic Religion and American Empire), I.B. Tauris, New York, 1st published, 2004, P26.

[3] هنري كيسنجر: النظام العالمي (تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ)، تر فاضل جتكر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2015، ص 252.

لقد أصبحت أميركا أمة الحرية، وتكريس المساواة، بعد أن عايش الإنسان الأوروبي الطبقية والإقطاعية. وأصبح شعار الحرية والمساواة مسؤولية أمريكية عملت على تعزيزه في الخارج، وخاصة في الحرب الباردة والحرب في العراق.

كما نتمثل أثر خطاب الاستثنائية في مقطع من خطاب الوداع للرئيس الأربعون للولايات المتحدة "رونالد ريغن Ronald Reagan(1911-2004)، يوضح فيه السبب في استثنائية أمريكا، بقوله: *"لقد تحدثت عن المدينة المشرقة طيلة حياتي السياسية، ولكنني لا أدري ما إذا كنت قد أبلغت ما رأيته حين قلت ذلك على الإطلاق. ولكن في اعتقادي أنها كانت مدينة فخورة طويلة مبنية على صخور أقوى من المحيطات، وجرف الرياح ومباركة من الرب، وتعج بالناس من كل الأنواع الذين يعيشون في وئام وسلام، ومدينة تتمتع بموانئ حرة تتكافئ مع التجارة والإبداع، وإذا كان لابد أن تكون هناك جدران مدينة، كان للجدران أبواب وأصول وشخصية استثنائية أميركية، وكانت الأبواب مفتوحة لأي شخص لديه الإرادة والقلب للوصول إلى هنا. هكذا رأيتها، ومازلت أراها حتى الآن"* [1]. واستثناء خلال مرحلة لاحقة في عهد إدارة الرئيس "أوباما Obama" شهد مفهوم هذا المصطلح "الاستثنائية" مزيدا من التسييس وبدا الأمر وكأن الرئيس أوباما يتبنى وجهات نظر على هذا النحو في وقت مبكر من رئاسته. وعندما سُئِل من طرف أحد المراسلين في ستراسبورغ بفرنسا عما إذا كان قد اشترك –كما فعل أسلافه–في "مدرسة استثنائية أميركا التي ترى أن أميركا مؤهلة بشكل فريد لقيادة العالم؟ ردّ الرئيس الأمريكي: *"أؤمن بالاستثنائية الأميركية، كما لا أشك في أن البريطانيين يؤمنون بالاستثنائية البريطانية، واليونانيين يؤمنون باليونانية"*[2]. لقد كانت كلمات "أوباما" بعيدة كل البعد عن خطاب "لينكولن" الذي يصف أميركا بأنها "آخر أفضل أمل للإنسان على الأرض.

غير أنه يبدو لنا أن هذا المفهوم عن استثنائية أميركا، لا يزيد عن كونه تحيزا عرقيا ونزوعا إقصائيا للآخر، تحت ذريعة تمدين العالم أو إرساء سيادة القانون في جميع أنحاء المعمورة، واعتبارها مسؤولية وطنية. إلا أنه كان يهدف ببساطة إلى الهيمنة على العالم واستغلال وقهر ما يعتبره الأمريكيون أو الاستثنائيون شعوبا "أدنى مرتبة" منهم. كما تجدر الإشارة إلى أن ثمة من المشككين المنتقدين للسياسة الأميركية، من أقروا بأن هذه الصراعات كان الدافع إليها هو جلب المصلحة الذاتية الاقتصادية أو العسكرية أكثر من كونها رغبة حقيقية في نشر هذه المثل العليا، كما أن مقولة الاستثنائية لم تكن حكرا على الولايات المتحدة، فقد اعتبرت العديد من الدول أن ولادتها فريدة من نوعها ونصّبت نفسها بأنها أمة متميزة ومختارة، كالإمبراطورية الرومانية والصينية قديما، أو كبريطانيا وروسيا وألمانيا وفرنسا حديثا.

[1] James w. Ceaser, Op cit, p p5-6.
[2] Ibid, p p 2-3.

هكذا إذن تتأسس العقيدة الأميركية على قناعة مترسخة باستثنائيتها، إذ يعتبر الشعب الأميركي أن الولايات المتحدة باعتبارها قوة من الخير الإنساني، سوف تقود العالم، فالاستثناء الأميركي يشكل جزءاً من المشروع السياسي الأمريكي، كما أنه يحدد القيم الأساسية التي تجعل الولايات المتحدة، اكتشافا متميزا في هذا العالم، وقطب جذب مغناطيسي في مواجهة الدول الأخرى الواقعة على التخوم. وفي غالب الأحيان تم تقديم أساس حول السبب الذي جعل البلد استثنائياً بالمقارنة مع جميع البلدان الأخرى، معتمداً على الظروف الجيوستراتيجية، والخلفية الثقافية، والأسطورة، والنظرة الذاتية للأهداف الوطنية.

2-تأسيس المركزية من أيديولوجية الهيمنة إلى قيادة العالم:

يرى الاختصاصي الشهير في ميدان السياسة ورجل الدولة الأمريكية "زبيغنيو بريجنسكي"Zbigniew Brzezinski(1928م-2017م)، أن الهيمنة والسيطرة العالمية الراهنة لأميركا تتميز بسرعة ظهورها، وبحجمها العالمي، وبطريقة ممارستها مقارنة بهيمنة الحضارات القديمة التي عرفها الإنسان عبر تاريخه. *"فخلال قرن واحد حولت أميركا نفسها، وحُولت أيضًا بواسطة ديناميات دولية، من دولة معزولة نسبيا في نصف الكرة الغربي إلى قوة تصل سلطتها إلى أرجاء العالم كلها. وتمسك بهذه الأرجاء على نحو لم يسبق له مثيل قط"* [1]. إذ أنه حالما تأسست الولايات المتحدة الأمريكية، في أواخر القرن الثامن عشر، اِعتبر الأمريكيون أن النموذج الأمريكي هو النموذج المثالي للبشرية كلها، وطرحوا فكرة الكونية، وبحسب رأيهم أن النموذج الأمريكي يتصف بطابع كوني، ويمكن أن يناسب أي بلد وأي شعب من العالم، ويتكيف مع الظروف في أي بلد وفي أي نقطة من العالم. ولكن أمريكا آنذاك كانت لا تزال بلاد ضعيفة ولم تكن دولة عظمى بعد. فعدد الدول العظمى في ذاك الوقت خمسة، كما ينبغي التنبيه إلى أن مفهوم الدولة في حد ذاته ظهر في مؤتمر فيينا في عام 1815م، أين أجملت البلدان الأوروبية نتائج انتصار فرنسا على نابليون وسمت نفسها آنذاك بلدان عظمى. وأمريكا طبعا لم تكن في عداد تلك البلدان العظمى، ومع ذلك كانوا يرون أنهم باتوا يمتلكون المبررات الإيديولوجية للزعامة، وراجت إيديولوجية التفوق الأمريكي في أمريكا عام 1846م، عندما شنوا حربا ضد المكسيك[2].

[1] زبيغنيو بريجنسكي: رقعة الشطرنج الكبرى، ترجمة أمل الشرقي، مركز الدراسات العسكرية، ط2، 1999، ص 07.

[2] فلاديمير سوغرين: الجذور الدينية والفكرية لعقيدة الهيمنة الأمريكية العالمية Pax American، حوار لقناة RT بالعربية، 2017/06/21.

في هذا الصدد يمكن القول إن بداية صعود أمريكا إلى الواجهة العالمية كان من الغرب الأوروبي، فاستحواذ أمريكا أو الدولة الأمريكية على نواة الحضارة الغربية، وإنقاذ هذه الأخيرة من براثن السقوط والانحلال، جعلها تكون المركز في العالم أجمع، وهذا بفضل نفوذها الاقتصادي المتنامي، وجبروتها العسكري المتعاظم منذ الحربين العالميتين، ما أدى إلى نشر أفكار العقيدة الأمريكية شرقا وغربا، في أوروبا الغربية أولا، وفي أجزاء كبيرة من أوروبا الوسطى بعد ذلك. تتمثل هذه الإيديولوجية في أفكار النزعة الفردية، والأسواق الحرة، والديمقراطية، والحرية والمساواة، وفصل الدين عن الدولة، وهي إحدى إفرازات البروتستانتية الإصلاحية. ففي ظل الولايات المتحدة، عاشت الحضارة الغربية نوعا من العصر البطولي الملحمي منتصف القرن العشرين، ويقسم المؤرخون الغربيون هذا العصر إلى قسمين: *"العصر البطولي الأول: وتمثل في توسيع الحضارة الأوروبية أو الغربية إلى أن باتت هذه أو تلك من طبعاتها حاكمة في جميع مناطق العالم. أما العصر البطولي الثاني: فقد تمثل في تمدد أمريكا وتوغلها في أوروبا، وفي نفس الوقت انسحاب أوروبا من أجزاء كثيرة من بقية العالم"*[1]. هذا ما عبّرت عنه النخب الأمريكية فيما بعد من خلال إسهاماتها في مجالات الفكر والبحث العلمي والأكاديمي والأعمال والإعلام...وغيرها. لقد توقفت عن اعتبار نفسها نموذجا للحضارة الغربية، بل أضحت تتقمص النموذج الكوكبي والكوني في أفكارها ومثلها العليا، وأصبحت بذلك نظرتها أكثر شمولا وأكثر عالمية، وبهذا أصبحت الولايات المتحدة مع حلول العقد التسعين من القرن العشرين الدولة النواة، أي الدولة المركزية للحضارة، أو الحضارة الكوكبية، التي تميزت باعتناق سلسلة خاصة من المعتقدات الجوهرية، أهمها دين التنوير، وهو مغاير تماما للدين المسيحي.

لقد أصبحت الولايات المتحدة، الدولة المركزية والحضارية الأولى لدى الحضارة الغربية، بالطريقة ذاتها التي أصبحت بها روما الدولة المركزية والحضارية الأولى لدى الحضارة الكلاسيكية، بمعنى أن أمريكا الآن بالنسبة لأوروبا، تمثل ما كانته روما بالنسبة إلى اليونان في الماضي. وجدير بالذكر، الإقرار بتفرد الغرب–للمرة الأولى–بدولة مركزية منذ الإمبراطورية الرومانية. إلا أن الحضارة الغربية لم تبق في سياقها وشقها الجامع بين الأوروبية والأمريكية، بل حصلت لها عدة تحولات، وضعت حدًا لبعض الملامح المميزة والمتبقية للحضارة الغربية، وحلت حضارة كوكبية جديدة محلها، معززة بذلك هيمنة الدولة المركزية والحضارية الأقوى، ألا وهي الولايات المتحدة الأمريكية. هذا ما جعل "بريجنسكي" يصرح قائلا: *"لقد برزت عاصمة عالمية على ضفاف نهر بوتوماك River Potomac، إن واشنطن هي العاصمة*

[1] بيتر جي كاتزنشتاين: مرجع سابق، ص ص 102–103.

السياسية العالمية الأولى في تاريخ العالم، فلا روما ولا بكين القديمة (وكلتاهما عاصمتان لإمبراطوريتين إقليميتين)، ولا لندن الفكتورية، اقتربت حتى من أن تكون نظيرة لها من حيث تركز القوة العالمية " [1].

لقد ترسخ في عقول الأمريكيين ونخبهم وقادتهم *أن "المقارنة بين تاريخهم وتاريخ الرومان، أمر يتداعى في الخاطر بيسر، لأن الولايات المتحدة الأمريكية منذ تأسيسها إلى الآن تتخذ من الجمهورية الرومانية مرجعا، وسابقة تاريخية تعتَد بميراثها"* [2]،هكذا احتلت الإمبراطورية الرومانية، موقعا محوريا في وعي النخبة السياسية في الولايات المتحدة كما أنها ارتبطت كذلك بالإمبراطورية البريطانية، وهذا أمر مقبول، لأنها ورثت عنها نفوذا جغرافيا وفكرا علميا وعمليا واقعيا بالإضافة إلى أفواج الرحالة من المستعمرات البريطانية، وكذا من الجنس الأبيض الأوروبي. وكما لم يكن يقتنع المواطن الروماني بأن هناك حضارات عظيمة أخرى لا يمكن استبعادها، كذلك الفرد الأمريكي لم يكن يقتنع بذلك. غير أنه ثمة من يرفض هذه المقاربة والمطابقة بين روما والولايات المتحدة، لأن لكل مجتمع تاريخ فريد من نوعه، وكل حضارة من حضارات العالم رست على معالم قوة معينة، معرفية وثقافية وإيديولوجية.

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، أصبحت الولايات المتحدة في وضعية مركز ثقل النظام العالمي، ويمكن القول استنادا إلى بعض المعطيات، أن المركزية الأمريكية بدأت إبان الحرب الباردة، إذ يقول هنتغتون أنه*" أثناء الحرب الباردة، كانت الولايات المتحدة في المركز من تجمع يضم دولا متعددة الحضارات تشترك كلها في هدف منع زيادة توسع الاتحاد السوفيتي"* [3]. وقد حدث هذا التجمع تحت مسميات كثيرة منها: العالم الحر، الغرب، الحلفاء...وغيره، وهي صور للتكتلات التي أعلنت قيام كتلة أو مركزية غربية في مقابل كتلة ثانية شرقية، وهي الدول التي بُنيت على مبادئ الإيديولوجية الاشتراكية، والذين أصبحوا يمثلون هامشا بالنسبة للدول الغربية أو العظمى. فأصبح مفهوم السياسة الدولية متصلا بمنطق القوة المهيمنة، ومفهوم الصراع العالمي الجديد يتمحور حول التمييز بين معادلة ثنائية طرفاها "نحن/هم"، والصراع أصبح يتركز على تحالفات من نفس نمط الثقافة والعقائد، وأصبحت الدول تحدد مصالحها على

[1] زبيغنيو بريجنسكي: الاختيار (السيطرة على العالم أم قيادة العالم؟)، ترجمة عمر الأيوبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2004، ص ص 151-152.

[2] هيرفريد مونكلر: مرجع سابق، ص 16.

[3] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 256.

أسس حضارية، وتكتل الدول التي بينها صلات قربى ثقافية مشتركة حول المركز مثل الاتحاد الأوروبي، الذي أضحى أكثر نجاحا وفاعلية من تلك التي تحاول أن تتجاوز الثقافات المختلفة لمدة خمسة وأربعون عاما[1].

أضحت أمريكا منذ مطلع هذا القرن أمريكا القوة العالمية الأولى، ومع ذلك فإن سيادة أميركا عالميًا تذكرنا في بعض المجالات بالإمبراطوريات السابقة، بالرغم من الأبعاد الإقليمية التي ميزت هذه الإمبراطوريات. وهنا تتفق القوى الإمبراطورية على التصرف على نحو إمبريالي في كثير من الأحيان، فتُرسي قوانينها، وتتجاهل ثقافات الشعوب الأخرى ومعتقداتها. ومع انتشار حضارتها، ترى نفسها متفوقة عرقياً وثقافيا، بيد أن هذه العملية قد تجمع وتوحد بين الناس في نهاية المطاف أكثر مما تفرقهم، إذ أن القوانين والقيم واللغة المشتركة، تدفع الناس إلى أن يروا أنفسهم أعضاء في نفس العالم؛ وهي عادة، سياسة القوى الاستعمارية. هذا تماما ما كانت تمارسه كذلك بعض القوى الإمبراطورية السابقة في العالم، لما أصبحت من بين أقوى الأصوات في العالم، تنادي بالدفاع عن حقوق الإنسان والمساواة بين البشر.

إن وصول أمريكا إلى ما هي عليه اليوم مرّ حسب المؤرخين والباحثين الاستراتيجيين الأمريكيين عبر ثلاثة موجات رئيسية، حتى إذا بلغت نهاية التاريخ وفق مقولة "فوكوياما" تكون قد بلغت الموجة الثالثة من الحضارة، أعقبت الموجتين الأولى والثانية (حضارة الموجة الثالثة حسب آلفن توفلر)،*"رغم أن قوى الموجة الثانية تبدو في مركز القوة وقوى الموجة الثالثة في موقف ضعف، لكن سيكون من الغباء الرهان على الماضي"* [2]. ويجب التنويه هنا بما حمله إعلان استقلال أمريكا، إذ أنه يشكل أهمية كبرى ليس لأنه أعلن انفصال أميركا عن بريطانيا العظمى، بل لأنه أعلن الشروط التي تؤسس للسلطة السياسية الشرعية والغايات اللائقة للحكومة القائمة على سيادة الشعب. *"وإذ تعد وثيقة الاستقلال خير ما يُعبر به عن المبادئ النظرية، التي ينطوي عليها هذا التقليد الذي علمنا أن بلوغ الحرية هو الهدف الذي يرمي إليه التاريخ السياسي، وأن الحكم الذاتي حق للأحرار، وأصيل فيهم، وأن إذا ما تحقق قدّره الناس بأكثر مما يقدرون أي شيء آخر يعزونه"* [3]. فقد أعلن "توماس جيفرسون"Thomas Jefferson ثالث الرؤساء الأمريكيين(1809–1801) وأحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة والكاتب الرئيسي لإعلان الاستقلال في سنة 1776م أنه:*"لم تكن أمريكا قوة عظمى في طور الإنشاء فحسب بل كانت إمبراطورية تحرر...، الإمبراطورية التي حلم*

[1] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص ص 47-53.

[2] ألفين توفلر: حضارة الموجة الثالثة، ترجمة عصام الشيخ قاسم، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، بنغازي، ط1، 1990، ص 151.

[3] جون ديوي: الحرية والثقافة، ترجمة أمين مرسي قنديل، مطبعة التحرير، د م، دط، ص 03.

بها جيفرسون وزملاؤه، مختلفة في أذهانهم عن الإمبراطوريات الأوروبية التي كانوا يرونها قائمة على أساس إخضاع شعوب أجنبية واضطهادها، كانت إمبراطورية امتداد للتحرر بل أبعد من ذلك، لم تكن مجرد بلد وحسب، بل محرك خطة الإله وخلاصة النظام العالمي" [1]؛ أي مركز قوة ونظام حضاري بشري على منوال النظام الطبيعي، فمن شأن القوة القارية الأمريكية أن تنجح آخر المطاف في إبطال مفعول توازن القوة الأوروبية بمجرد ثقلها المتوازن. لقد كان لأمريكا نفوذ ثقافي عظيم نفوس شعوب العالم، وأصبحت كل الأبصار تتجه إلى الولايات المتحدة، وتحاول أن تحاكي النموذج الأمريكي ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، تقتبس مبادئها السياسية وقوانينها من الاتحاد الأمريكي. في هذا تأكيد لمقولة ابن خلدون "المغلوب مولع بإتباع الغالب". لقد ابتدأ الحضور السيادي الأمريكي ليغير خريطة العالم الجيوسياسية. كما حظيت المغامرة الأمريكية بمباركة حقيقية إذ نقلت الكيان الأمريكي من المحدودية الجغرافية والسياسية إلى التوسع المقنّع، فكان الحافز فيها هو المغامرة التي حركها الدافع الغريزي الفردي، وهو الذهب والثراء، بالإضافة إلى الدافع الروحي وهو الإيمان برسالة البيوريتانية التطهيرية، محصلة الإصلاح الديني في أوروبا ونتاج الثورة على الكاثوليكية، مثلما ينجلي حضور الدافع التوسعي الذي ترجمته الحروب الأمريكية، والتي لولاها لما تجلى تفوق النزوع الثوري لخطاب الهيمنة الأمريكي المقنن. تحت مسمى. كما تتجلى معها عقلية الفرد الأمريكي المتشبع بالنزعة الفردانية، والمتعطش إلى الهيمنة والقيادة، ومن ثمة الانطلاق الحر في الوجود نحو كسب أكبر قدر من القيم التي تستبطنها ثروات العالم الجديد، وتشكيل عالم مغاير للعالم القديم الذي أنهكته الصراعات والخطابات المثالية والدينية الجوفاء.

في ذات السياق، يرى تيودور روزفلت*Theodore Roosevelt *بأن "المجتمع الدولي أشبه بمستوطنة حدودية مفتقرة إلى قوة بوليسية(أمنية) فعالة...فحسب رأيه أن أي أمة عاجزة أو غير راغبة في التحرك دفاعا عن مصالحها، لا تستطيع أن تتوقع من الآخرين أن يحترموها"* [2]، إذ يتعين على المجتمعات الأكثر تحضراً أن تمارس دوماً قدراً عظيماً من السلطة على المجتمعات الأقل تحضراً في جوارها. فمشروع الإمبراطورية الأمريكية هو رد على التغيرات في موازين القوى التي أحدثت في الفكر تحولا استراتيجيا لصالح أمريكا، وكذلك في موقفها العسكري والاقتصادي، والذي بدأ يؤثر في تحديد العلاقة بينها وبين بقية العالم، لقد جرى إحلال إيديولوجية حضارة كوكبية محل إيديولوجيا الحضارة الغربية، وهو

[1] هنري كيسنجر، مرجع سابق، ص ص 233-240.

*مولود بين أكتوبر 1858م-يناير 1919م هو سياسي ومؤلف ومستكشف وجندي وعالم طبيعة ومصلح أمريكي شغل منصب الرئيس السادس والعشرين للولايات المتحدة الأمريكية من عام 1901م إلى 1909م.

[2] هنري كيسنجر، مرجع سابق، ص 244.

الخطاب الذي تبنته النخب الأمريكية مع نهاية ستينيات القرن الماضي. نظير متغيرات فكرية واقتصادية حدثت في تلك الفترة، خصوصا بعد صعود اليابان كقوة اقتصادية، وارتقاء فئات من غير "الواسب WASP"** إلى مراتب النخبة الأمريكية.

لقد أصبحت الهيمنة العالمية الأمريكية، إحدى حقائق الحياة، فليس لأحد بما في ذلك أمريكا، خيار في هذه المسألة. بالطبع، ستعرّض أمريكا وجودها الخاص للخطر عندما تقرر بطريقة ما-كما فعلت الصين من خمس مئة عام- الانسحاب فجأة من العالم، لأنها -خلافا للصين-لن تكون قادرة على عزل نفسها عن الفوضى العالمية التي ستعقب ذلك الانسحاب مباشرة[1]. وهنا يتساءل المؤرخ والكاتب الأمريكي روبرت كاغان Robert Kagan (1958م-)، حول انحدار الهيمنة الأميركية، واعتبارها السبب الرئيسي وراء القلق الأمريكي، واليوم يسعى كاغان جاهداً إلى تقديم المبررات العلمية الاجتماعية لتأكيد استمرار، ودور الهيمنة الأميركية في السياسة العالمية. وذلك من خلال سؤالين افتراضيين أو متضادين، في فاتحة كتابه "العالم الذي صنعته أمريكا" هما: *"كيف كان سيبدو العالم لو لم تكن الولايات المتحدة القوة البارزة التي تشكله طيلة العقود الستة الماضية؟ وكيف قد يبدو العالم لو انحدرت (أليكسيس دوتوكفيل) أميركا؟ ثم يجيب: إن العديد من الجوانب غير المسبوقة في العالم الحالي، بما في ذلك انتشار الديمقراطية العالمية، والازدهار العالمي القائم على النظام الاقتصادي الليبرالي والسلام الطويل بين القوى العظمى، لم تنشأ من الحتمية الطبيعية بل من الدور الرائد الذي تلعبه أمريكا في فترة ما بعد الحرب"*[2]؛ يبدو من خلال هاته الإجابة، أن منطق كاغان، بمثابة بيان عام على أن القوة المهيمنة تؤسس نظاماً مستقرا، أي أن الهيمنة الأميركية الليبرالية سوف تؤسس وتحافظ على النظام العالمي قائما.

هكذا إذن، ظلت الولايات المتحدة، قوة قيادية على امتداد نحو عقدين من الزمن (بين الأربعينيات والستينيات من القرن العشرين)، بالنسبة إلى شيء كانت تطلق عليه اسم حضارة غربية، وكانت قيادتها مقبولة إلى حد ما؛ تليها فترة أخرى امتدت نحو عقدين آخرين (من أواخر الستينيات إلى أواخر الثمانينيات)، ظلت فيها الولايات المتحدة قوة

** WASP اختصار لـ White Anglo-Saxon Protestants أي البروتستانت الانجلو-سكسونيين البيض.

[1] زبيغنيو بريجنسكي: الاختيار (السيطرة على العالم أم قيادة العالم؟)، مرجع سابق، ص 238.

[2] Taesuh Cha, Op Cit, pp 354,355.

قائدة(مركز) للبلدان في الغرب، ولكن الكلام عن حضارة غربية تراجع قليلا. وبعد ذلك عادت الولايات المتحدة من جديد قوة مركزية على امتداد عقدين آخرين من الزمن (من أواخر الثمانينيات إلى أواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين)، بالنسبة إلى شيء أطلقت عليه اسم عولمة، وبالنسبة إلى نوع من الحضارة الكوكبية مع عودة دورها القيادي إلى أن يصبح مقبولا إلى هذا الحد أو ذاك لدى نخب الأعمال في الحضارة الأقدم، تلك النخب التي باتت الآن تمارس فعالياتها في إطار هذه الحضارة الكوكبية الجديد[1].

[1] بيتر جي كاتزنشتاين: مرجع سابق، ص 77.

خلاصة:

إن فرضية المركزية الحضارية، تبدو أكثر قبولا بالنظر إلى العلاقات التي حكمت الحضارات منذ فجر التاريخ إلى غاية التاريخ الحديث والمعاصر، فالعالم ظل منذ القديم مشدودا إلى مركز ثقل ومرجع محوري يبني عليه سياساته الاقتصادية والاجتماعية، ويصنع لنفسه قيما وهوية ثقافية خاصة، لمجابهة التحولات في موازين القوى والتقلبات في مناطق التموضع بين المركز والأطراف، وليدافع عن ميراثه الثقافي والعرقي والديني في ظل سحر المركز وجاذبيته التي لا يمكن التصدي لها ومقاومتها إلا في وجود نموذج داخلي متين، كما حدث مع الإمبراطورية الصينية وتبني تعاليم وقيم الكونفوشيوسية المقدسة. إن تاريخ الحضارات ينبئنا على الدوام أنه كان هناك قلب للعالم ينبض بالحيوية والفاعلية والنشاط، في مقابل وجود تخوم خاملة ومنفعلة، تتأثر بالتقلبات التي تحدث داخل نواة المركز، سواء انهار أو نمى أو اشتد.

وإن كانت نظرية العالم السياسي البريطاني "هالفورد جون ماكندر" Halford J.Mackinder (1861م-1947م) في سنة 1904م، تجعل قلب العالم مكانا جغرافيا، يتربع على مساحات شاسعة من البحار واليابسة، وتمثل تلك المنطقة مركز قيادة العالم، ومن يحتله يحتل العالم حسب رأيه، إذ يمتد قلب العالم من جبال الهيمالايا، حتى محيط الجليد الشمالي ومن نهر الفولجا وحتى نهر اليانغ، ويضم جزء كبير من قارة آسيا وربع القارة الأوروبية وأهم ما يميز هذه المنطقة، هو كونها سهل كبير وواسع يحيط به الأنهار والجبال، وهي حصن منيع ضد الأعداء والغزوات، و"الواقع أن هذه الرقعة الكاملة، لم يكن من الممكن الوصول إليها من خلال الملاحة من المحيط. ففتح السكك الحديدية لها كان بلا طريق عمليا وبطرق جوية في المستقبل القريب، يشكل ثورة في علاقات الرجال مع الواقع الجغرافي الأوسع في العالم. ولنطلق على هذه المنطقة العظيمة "قلب القارة". وبالسيطرة على منطقة قلب العالم سوف يتحكم المسيطرون على ثلثي مساحة الكوكب تقريبا ومعظم السكان الموجودين فيها[1]، حسب اعتقاده. إلا أننا في فرض المركز الحضاري، نؤكد على المركز الحواضري فكريا وثقافيا، فيكون مركز إشعاع تنطلق منه ثقافة، وهوية وسلطة المركز، أيا كان مكان هذا المركز جغرافيا، نحو الأطراف والهوامش والتخوم، أو تلك المناطق المنفعلة من بقية العالم، أيهناك تصورات لإمكانية تغير مراكز الثقل في العالم، وهذا المركز الجديد قد يكون في آسيا أو أوروبا أو أمريكا أو إفريقيا-لما لا إذا توفرت شروط ومقومات التمركز.

[1] Halford J.Mackinder : Democratic Ideals And Reality, national defense university press, Washington,1942, PP 55-58.

الفصل الثالث

أسس المركزية الأمريكية المعاصرة

تقديم:

إن المركزية الحضارية فرضية ممكنة التبرير، لاسيما وفق الأنموذج الأمريكي المعاصر، وسنحاول في هذا الفصل أن نؤسس للمركزية الأمريكية، محاولين الكشف عن بنيتها المعرفية والفلسفية، التي جعلت من أمريكا في القرن العشرين مهيمنة على العالم، نستبين دلائل الهيمنة من نظام عالمي شكلته أمريكا بناء على علاقات وظيفية يضمن نموا مطردا لمصالحها الاستراتيجية. حضور أمريكا في العصر الراهن مركزي، كونها تتميز بمجموعة متكاملة من السّمات والقدرات المادية واللّامادية انفردت بها منذ اكتشافها على يد البحار الايطالي "كولومبس" في سنة 1492م، وتربعت بها على عرش العالم فعليا عقب نهاية الحرب الباردة. إنَّ إعادة تفكيك مواطن القوة الأمريكية وإعطاء صورة شاملة –ولو نسبيا–للمعاني المتنوعة التي لازمت ظهور تلك الأمة في التاريخ الحديث، يفترض التسليم جدلا بوجود نظام إنساني تلخصه الحضارات المتعاقبة عبر مختلف الأزمنة على شاكلة النظام الفيزيقي. فمن يملك القوة يملك السيادة. لهذا تتمظهر نزعة الهيمنة الأمريكية على نحو متزايد، فيما يتصل بميل ذاتي أميركي إلى البقاء خارج نطاق العالم متعددة الأطراف، ورغبتها الجامحة في احتلال مركز الثقل في القيادة والتنظيم والتخطيط لمستقبل العالم، وتوجيه سياسات الدول الأطراف والتحكم فيها. فما هي الأسس التي جعلت من أمريكا مركزا للعالم المعاصر بعد أن كانت أوروبا محوره في العصر الحديث؟

المبحث الأول: الأسس الفلسفية للهيمنة الأمريكية:

في الواقع لم تحفل الثقافة الأميركية بوافر النظريات والأطروحات الفلسفية المشكلة لروح الاستثنائية المركزية ولكن استلهمت من جهابذة الفكر المعاصرين نماذج ديناميكية أسهمت من خلالها في تحديث الأيديولوجية الثقافية لأجل الإعلاء من شأن السيادة. وهذا ما نوه به "دوتوكفيل" إذ يقول: *"لا أعرف بلدا من العالم المتحضر يُعنى بالفلسفة، أقل مما تعنى به الولايات المتحدة، فليس للأمريكيين مدرسة فلسفية خاصة بهم، ولا هم يحفلون إلا قليلا بجميع تلك المدارس الفلسفية التي انقسمت إليها أوروبا، بل ولست أغالي إن قلت إنهم لا يعرفون حتى أسماءها"* [1]. صحيح أن الأمريكيين لم تكن لهم مذاهب فلسفية كبرى كتلك التي ظهرت وتطورت في أوروبا واشتهرت بها خاصة الفلسفة الألمانية والفرنسية، إلا أنهم تأثروا في تفكيرهم السياسي والاقتصادي وزادوا ترسيخا لعقيدتهم الاستثنائية، بمجموعة من الأسماء الفلسفية الكبيرة على غرار "جون لوك"، وبعض التيارات الفكرية التي تلاءم بنية وبيئة تفكير الأمريكي، واستلهموا منها طريقهم نحو صنع أمجادهم ونشر ثقافتهم وآرائهم، كالمدرسة الواقعية والنيوليبرالية، ويبقى الأثر الأمريكي الخالص في الفلسفة يتجلى في "المذهب الذرائعي".

[1] أليكسيس دوتوكفيل: مرجع سابق، ص 380.

1-فلسفة جون لوك السياسية:

منذ القرن التاسع عشر، كان الأمريكيون يعتبرون أنفسهم إمبراطورية داخل بلادهم، أما التنويريين الأمريكيين من أمثال الرئيس الثالث للولايات المتحدة توماس جيفرسونThomas Jefferson(1743-1826) اعتبروا الأمريكيين، بأنهم سوف يقدمون للعالم أول نموذج لإمبراطورية العقل، أي أنها إمبراطورية ستقام على أسس عقلانية وعملية، وستتضمن مبادئ المساواة في الحقوق بين الناس، والفصل بين السلطات...وغيرها من أسس التنوير التي حملتها وثيقة الاستقلال لجيفرسون شهر يوليو سنة 1776م؛ يوم أعلنت أمريكا استقلالها عن انجلترا وجاء فيها: *"إننا نؤمن بأن هذه الحقائق واضحة بذاتها، وهي أن الناس قد خلقوا سواسية، وأن خالقهم قد حباهم بحقوق معينة هي جزء لا يتجزأ من طبائعهم، منها الحياة والحرية والتماس السعادة، وأنه لكي يظفر الناس بهذه الحقوق، أقيمت فيهم الحكومات، تستمد سلطاتها العادلة من رضا المحكومين، وأن الحكومة-مهما كانت صورتها-إذا ما انقلبت هادمة لتلك الغايات، فمن حق الشعب أن يغيرها أو يزيلها، وأن يقيم حكومة جديدة تضع أساسها على مبادئ وتنظم سلطاتها على صورة ما، بحيث تبدو للناس تلك المبادئ وهذه الصورة أنهما مؤديتان-على الأرجح- إلى أمنهم وسعادتهم*[1]. هكذا انطلق العقل التنويري في أمريكا، الذي أوحى بثورة إنسانية يشهد لها التاريخ في إعلاء حقوق الإنسان الطبيعية، متأثرة بها تلك التي حدثت في فرنسا سنة 1789م، ومنه فإن إمبراطورية العقل حسب (وثيقة جيفرسون)، تنجلي من خلال تلك القيم البديهية للطبيعة الإنسانية، وهي جزء من كيانه لا تستوجب البرهان لإثباتها وإسنادها. فكانت هذه الحقوق بحق، عالمية ومثالا أعلى للإنسانية جمعاء؛ أعيد حملها في مبادئ الثورة الفرنسية، كما تبناها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1948م.

إن هذه المبادئ المنبثقة عن الثورات المعاصرة ليست نتاج قريحة "جيفرسون" ومن اشتركوا معه في صياغتها، يصرح بذلك في قوله: *"إنني لم أشعر بضرورة تدعو إلى ابتكار أفكار لم أسبق إليها"* [2]. إنما مصدرها هو الفكر السياسي لدى الفيلسوف الانجليزي جون لوك John Locke1632م-1704م؛ وقد ذُكر ذلك في الكتب التي تتحدث عن أصول الثورة الأمريكية جميعها. بدءا من أفكاره حول أسس ونظرية المعرفة العلمية الواقعية، إلى غاية نظريته في العقد الاجتماعي، وتفسيره كيفية ميلاد الدولة والحكومات. لقد حمل فكر "لوك" نزعة واقعية تؤمن بتغير المبادئ العلمية تبعا لتحول الواقع، وفي تحليل مبادئ العلم أدرك بأن العلم يتغير من عصر إلى آخر، وعلى الفلسفة أن

[1] زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1982، ص 12.

[2] المرجع نفسه، ص 13.

تواكب هذا التغير. كما ميز بين الواقعين الحسي المادي والواقع العقلي الرياضي، أي ميز بين مكانين: الحسي والعقلي وينطبق ذلك على الزمان كذلك، كل هذا كان نتيجة الأبحاث حول عالم الطبيعة، مستخلصة من تجارب غاليلي ونيوتن واينشتاين؛ وعلى هذه النقطة ترتكز نظرية "جون لوك" في الدولة وفي الكنيسة معا، وعليها بُني أساس حق الأفراد في الحرية السياسية والدينية على السواء.

إذن، لقد كان للفلسفة السياسية لجون لوك، تأثير كبير على التفكير الأمريكي، فنظريته في الدولة هي النظرية التي بُني عليها إعلان الاستقلال في الولايات المتحدة بناء مباشرا، فإذا كان الإنسان الفرد بحكم طبيعته العقلية، حرا حرية مطلقة ومستقلا بذاته، فليس هنالك في طبيعة الإنسان ما يبرر قيام الدولة إلا رضا الإنسان نفسه، أي أنه ليس جزءا من طبيعته أن يتصل بغيره كما ذهب إلى ذلك "أرسطو"، وغيره ممن زعموا بأن الإنسان اجتماعي بطبعه، لا بمجرد رضاه وموافقته، وأن ليس في طبيعة الإنسان ما يستلزم اجتماعه بغيره سوى العُرف، إذن فليس للدولة سند يؤيد وجودها سوى العرف كذلك، فهكذا اتفق الناس أن تقوم فيهم دولة تصون حقوقهم، ومن ثمة نتبين الأثر الموضعي للمقولتين الرئيسيتين اللّتين استند عليهما إعلان الاستقلال، في الولايات المتحدة، وهما: ولد الناس أحرارا سواسية، وأساس الحكومة هو موافقة المحكومين على قيامها[1]. إذ يميز "لوك" بين الحرية كحق أصلي والحرية المدنية، فالفرد حر حرية تامة في القيام بعمل ما، وهذا ما يسمى بالحق الطبيعي. وتعني حرية الإنسان الطبيعية استقلاله عن أي سلطة عليا. أما حرية الإنسان في المجتمع –حسب رأيه–، فنعني أنه ليس مسخرا لسلطة تشريعية سوى السلطة التي نصبت بالاتفاق في الدولة وأنه ليس خاضعا لأية إرادة أو قانون سوى ما تسنه تلك السلطة التشريعية، فالحرية في ظل الدولة هي الحياة بحسب قاعدة منصوص عليها تنطبق على جميع الأفراد بالتساوي وبناء على عقد أبرم بين جميع الأطراف. بشأن هذه العلاقة بين الأفراد والدولة، فقد أكد "لوك" أن "الشعب يوافق على العيش في كومنولث (أي مجتمع في دولة)، كي تتمكن الحكومة من تطبيق القانون الطبيعي والحقوق الطبيعي. شملت حقوق الإنسان بطبيعتها امتلاك الحرية والملكية، وقد احتضن الأمريكيون هذه الفكرة بصورة وثيقة، بحيث اعتمد خطابهم السياسي والدستوري مفاهيم قانون الملكية عند الإشارة إلى الحرية الشخصية نفسها...واعتقد لوك كذلك أن الحياة مثل الملكية في اعتمادها على الملكية الشخصية، لكن الاستخدام الفردي للملكية عليه ألا يطال الهدر أو استثناء أفراد آخرين من الوصول إلى

[1] زكي نجيب محمود: مرجع سابق، ص ص 13-23.

الطبيعة وخيراتها"[1]. على هذا الأساس يكنى "جون لوك" بـ "فيلسوف أمريكا"، وهنا يشير بعض الدارسين إلى ذلك الدرس المستفاد من تجربة الأمريكيين، لما استندوا على فلسفة المستعمر واستمدوا منها الأفكار والثورة فكانت بمثابة الأسلحة التي هاجموا بها الملك والبرلمان الإنجليزي، وذلك من خلال فلسفة الانجليزي "جون لوك"، ولم يرفض فكره لمجرد أنه إنجليزي.

2-الواقعية والليبرالية الجديدة:

تعد الواقعية، أول مدرسة فلسفية غذّت عقول الساسة الأمريكيين وصناع القرار، كرد فعل على النزعات المثالية. قامت المدرسة الواقعية في أمريكا على دعامتين أساسيتين هما المصلحة والقوة، فمنذ بداية ستينيات القرن الماضي هيمن المدخل الواقعي، وغدت كل دراسة ذات دلالة واقعية.

تتميز الواقعية الأمريكية بنزعة شكية -كما عند ميكيافيلي وهوبز وروسو-يسودها نوع من غياب الثقة فيما بين الدول، ومن مبادئها السياسية المعروفة، أن العلاقات السياسية بين الدول محكومة بقواعد موضوعية ومستقرة وعلى الحاكم أن يضع الحلول البديلة لمواجهة المشكلات الطارئة. وأن معنى القوة هو المصلحة وهو بهذا معنى متحول (الجميع يسعى إلى امتلاك القوة) للتأثير في النظام العالمي واحتلال مركز هذا النظام. من مميزاتها كذلك، ترفض المدرسة الواقعية تطبيق المبادئ الأخلاقية المثالية، على اعتبار أن الصراع والتنافس في العلاقات الدولية هو المبدأ الحاكم، والصراع على القوة والمصلحة هو أساس العلاقات. ويقول مؤسس المدرسة الواقعية التقليدية "هانز مورغنتاو Hans Morgenthau(1904-1980)": *"إن السياسة الدولية هي صراع على القوة، بغض النظر عن أهدافها النهائية البعيدة، ويرى أن القوة السياسية هي علاقة نفسية بين من يمارسونها، وبين من تمارس ضدهم، فهي تمنح الأولين السيطرة على بعض ما يقوم به الآخرون من أعمال"* [2].

ومن الأسس الفلسفية التي قامت عليها المركزية الأمريكية المعاصرة كذلك، نذكر الليبرالية الجديدة، وهي تمثل مجموعة من الأفكار التي تتمحور حول مفردة الحرية، فالحرية كقيمة لهذا الإنسان هي الجوهر والفحوى الرئيسيان

[1] نزار نجيب حميد: الذريعة في الفلسفة البراغماتية وانعكاساتها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن 21، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد 14، المجلد 7، 2013، ص 26.

[2] سيف الهرموزي: مقتربات القوة الذكية الأمريكية كآلية من آليات التغيير الدولي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2016، ص 125.

لليبرالية وتعني فلسفة الحرية في نظر الليبراليين الجدد، بمثابة مناخ للعلاقات الدولية، الذي هو أقرب إلى حالة الاعتماد المشترك منه إلى حالة الفوضى والحرب...مما أدى إلى ظهور مناخ من التفاهم والتعاون بين الدول وتراجع حدة العداء بينهم. ويرفض الليبراليون رأي الواقعيين القائل: أن الحرب هي الشرط الأساسي والطبيعي للسياسة العالمية، وقولهم أن الدولة هي الطرف الفاعل في مسرح السياسة العالمية...إذ يعدون الشركات المتعددة الجنسيات والفاعلين الدوليين كالجماعات الإرهابية والحركات الراديكالية العالمية والمنظمات غير الحكومية، وحدات ذات أهمية بالغة على صعيد ميادين العلاقات السياسية[1]. تجدر الإشارة إلى أن الليبرالية الجديدة تختلف عن الكلاسيكية، حيث أن الكلاسيكية تقوم على وهم المجتمع الإنساني الخالي من حقوق الملكية والعكس، وهو ما تؤكده الليبرالية الجديدة، فما دامت الندرة واقعا مرتبطا بالوجود فإن حقوق الملكية تكون أصلا مهما في العلاقات الاقتصادية.

لقد منحت الليبرالية الجديدة، الثقافة الأميركية الثقة في إمكانية التغيير والديناميكية التي كثيراً ما غابت عن أوروبا والتي تعتبر من السمات الأكثر جاذبية في أميركا. كما عززت ذلك الاعتقاد بأن أميركا لن تتحول إلى أمة الحرية فحسب، بل إنها سوف تستخدم ثرواتها وهيبتها المتنامية في العالم لتعزيز كينونة الديانة المسيحية في مختلف أنحاء العالم. لأن تأثير العقيدة والقيم المسيحية، من شأنه أن يؤدي إلى فترة من الرخاء الروحي والمادي والتقدم نحو عالم سلمي. كما وفر هذا التفاؤل الذي ساد في مرحلة ما بعد القرن العشرين، إمكانية إحراز تقدم إنساني لليبرالية الأميركية والثقة في أن قيمها الأساسية الحرية والفردية وروح المبادرة التجارية سوف تؤدي مع مرور الوقت إلى عالم أفضل للجميع؛ كما أن مملكة الرب –في منظور الأمريكيين–سوف تُبنى حقاً في أميركا، بل وخارج أميركا كذلك من خلال الديناميكية الثقافية والاقتصادية للأميركيين ومؤسساتهم وعسكرياتهم وقيمهم[2]؛ إلا أنها قيم مسيحية أسيرة لطريقة الحياة الأميركية. فلا ريب أن الأمريكيون قاموا بالفعل بإعادة تأسيس المسيحية في العالم الجديد ولذلك فإن ديانة العالم الجديد ليست المسيحية المناهضة للإمبراطورية للمؤسس يسوع المسيح، بقدر ما هي الديانة المدنية لأمريكا. إن قيمها الأساسية أكثر أمريكية من العهد الجديد، وتتضمن التركيبة الغريبة التي تتألف من الحرية الفردية والوطنية، والتي تُلزم الأفراد بالتزام أنفسهم على نحو منتظم[3]، أي مسيحية وفق الثقافة الأمريكية. هكذا تشكلت إيديولوجية الإمبراطورية الأميركية، التي حصرت في الرؤية التي تبنتها أميركا في مرحلة ما بعد الألفية باعتبارها أرض الميعاد، وشعبها باعتباره العِرق الجديد المختار. وفي بداية منتصف القرن التاسع عشر، كانت أميركا تشكل حيزاً مقدساً، حيث كان الناس يهتدون بالعناية

[1] سيف الهرموزي، مرجع سابق، ص 130.

[2] Michael Northcott: Op cit, p17

[3] Ibid, p20

الإلهية لكي يتحولون إلى أمة جديدة من الحرية، تعرض لأول مرة في تاريخ البشرية نظام عالمي جديد، والواقع أن هذه الرؤية كانت بمثابة تجربة عظيمة لصالح البشرية ككل[1].

3-المذهب الذرائعي (البراغماتية) ومنطق العلم والعمل:

حين نستحضر خطابا لفكر أمريكي يقفز إلى الأذهان صفته البراغماتية، وإن استحضرنا مقولة (فلسفة براغماتية)، ورد على الخاطر معها الفكر الأمريكي ورودا مباشرا، وساعد على هذا الارتباط بين الموصوف وصفته أنها جاءت في صورة تصور وجه الثقافة الاجتماعية في العالم الجديد، فلا يوجد في أمريكا من الطبقات ما تراه في غيرها من فوارق وفواصل، إنما المقياس الذي يعلو به الفرد أو ينزل هو ما أنتجه بيده؛ إذن فالأساس هنا هو العمل ومكانة الفرد في المجتمع لا يحددها ما قد هبط إليه من أسلافه من ثروة أو جاه[2]. وعلى هذا الأساس يرتكز تناولنا للنزعة البراغماتية ضمن المقومات الفلسفية للهوية الأمريكية، على اعتبار أن البراغماتية تشكل مجموعة من الأفكار والسمات التي أعطت منحى جديد للتاريخ الفلسفي العالمي؛ برز في العالم الجديد، وإذا كانت الفلسفة تنشأ عندما يشعر أشخاص معينين بوجود مشكلات ما، في ظروف اجتماعية معينة، فإن البراغماتية نتاج الحاجة والطبيعة المميزة لهوية الفرد الأمريكي، كما أنها تتناسق مع ذكاء الإنسان الحالم بأرض الملاذ والأحلام؛ لأن محور اهتمام البراغماتيين هو الإنسان الموقظ والمشغل لذكائه، وهذا التأكيد يتسق بوضوح مع التطور التاريخي للبراغماتية...كما أن التوجه التطوري يفضل النظر إلى الذكاء في علاقته بمشكلات الفعل(العمل) في البيئة وتعاطف أمريكا التي تتطور بسرعة مع النظرية التي نظرت إلى الإنسان الذي يوجه مستقبله باستخدام ذكائه[3].

من أهم مقومات الفكر الذرائعي الأمريكي، أنه لا يفصل بين العقل والعمل في مبادئه، أي بين الرأس واليدين، كما كان حاضرا في الفلسفات المثالية التقليدية منذ أفلاطون، ففي أمريكا لا يجوز تقسيم الناس إلى قسمين، هذا مفكر والآخر عامل، إذ لم تعد الأبراج العاجية ملاذ الفلاسفة هناك، بهذا تتميز الفلسفة الأمريكية عن الأوروبية المطرزة بالمثل العليا والمصطلحات المنمقة أو التي بنت أسوار وقصور وحتى أهرامات من العاج؛ كان فيها الإنسان الفرد موضوع ومبحث وليس غاية في ذاته، إن الفلسفة الأمريكية هي نتاج الطبيعة، لقد أراد الأمريكان أن تكون فلسفتهم في

[1] Michael Northcott: Op cit, p21.

[2] زكي نجيب محمود: مرجع سابق، ص ص 115-116.

[3] تشارلز موريس: رواد الفلسفة الأمريكية، ترجمة إبراهيم مصطفى إبراهيم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط1، 1996، ص 25.

خدمة العلم والإنسان. إذ يرى البعض بأن الفلسفة الأمريكية لا تعدو أن تكون إلا صورة لأسلوب الحياة الأمريكية في العالم الجديد، نابعة عن النزعة المركنتيلية أو التجارية التي تدعو إلى العمل الحر وإلى التطلع نحو الفردية الشغوفة بالمغامرة والربح. إن العقل الأمريكي عقل موجه بالعمل، وتلك هي دلالة فلسفة البراغماتية.

وغني عن البيان أن الفلسفة البراغماتية ليست طريقا جديدا في التفكير نبتت في تربة العالم الجديد، بل هي امتداد للفلسفة التجريبية في انجلترا، مع روادها: "بيكون"،"ولوك"،"وباركلي"،"وهيوم"، التي تعتمد على الخبرة الحسية أو التجربة كما تأتي بها الحواس مباشرة من العالم الخارجي، كما لا ننكر أثر الفلسفات النفعية "لجيرمي بنتام" و"جون ستوارت مل"، ومذاهب اللذة والألم، التي تعد تيارا حسيا تجريبيا، ومن ثمة فإن البراغماتية، كما قال عنها "ويليام جيمس": *"اسم جديد لطريقة قديمة في التفكير"* [1]، إلا أن الجديد في المذهب البراغماتي الأمريكي، أنه مذهب ينطلق من عالم الواقع كما يتبدى للخبرة الحسية، ثم يتطلع إلى المستقبل، بدل العودة والرجوع إلى الماضي. على عكس التجريبية الانجليزية التي تعود إلى الماضي وتلتفت إلى الوراء، وذاك خطاب عن طبيعة المعرفة في الفلسفة التجريبية باعتبارها بحث في الأصول والمبادئ والمنطلقات، أما البراغماتية فيرتجى من إعمال مبادئها التطلع إلى المستقبل والتقليب في الأماني، والبحث في النتائج العملية التي تترتب عن الأفكار النظرية. والجديد كذلك أن البراغماتية جعلت من أسسها مبدأ شاملا لجل ميادين الفكر: السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي والأخلاقي. وهنا نعود إلى تأكيد طبيعة التفكير في العالم الجديد، الذي يقوم على الطبيعة البشرية، وكان "لجون ديوي John Dewey(1859م-1952م)" تفصيل في هذا الأساس في كتابه "الحرية والثقافة"، وإن ركّز فيه على أسس النظام الديمقراطي وكيف أنه يماهي طبيعة البشر، التي تنشد الحرية والمساواة، والفردية والتنافس من أجل تحقيق الوجود الحقيقي في الواقع للذّات الإنسانية. يدفع الفكر الذرائعي، رواد الفكر الأمريكي إلى الشعور بأنهم هم من تقع عليهم مسؤولية عبء الفكر والعمل، وأنه يجب عليهم أن يقيموا لأنفسهم مجتمعا جديدا ومقبولا، صحيح أنهم كانوا هم وأسلافهم يعيشون في مجتمع أوروبي ذو تقاليد يهودية/نصرانية، لكن هذا المجتمع الجديد يرتكز بصفة أساسية على الأشخاص، واستمرار تفكيرهم حول المجتمع الجديد، سوف يردد نفس النغمة الأخلاقية والنظرية المثالية[2].

لما أعلن "ويليام جيمس William James(1842م-1910م)" عن النزعة البراغماتية في عام 1898م، منح حياة العمل لظاهرة فكرية جديدة في الثقافة الأميركية. ورغم أن "تشارلز بيرس Charles Peirce(1839م-

[1] زكي نجيب محمود: مرجع سابق، ص 117.

[2] تشارلز موريس: مرجع سابق، ص ص 21-22

1914م)" قدم الأساس لهذه الظاهرة قبل نحو عشرين عاماً، فإن الأمر على خلاف ما عرض له "جيمس" وبفعل هذه الظاهرة الفكرية الجديدة، أصبحت النزعة العملية محل جدل واهتمام لمجتمع فكري أوسع. وبين عامي 1900م و1916م ظلت البراغماتية في حالة سبات بعض الشيء، وظل "جون ديوي" على قدر من يسر حياة وثقافة فلسفية محدودة نسبيا، طغت عليها هيمنة الفلسفة التحليلية. وقد حافظ مفكرون أمثال "هربرت شنايدر""وجوزيف بلاو"، "وروبرت بولوك"، "وساندرا روزنتال"، "وريتشارد برنستين"، "وبيث سينجر"، "وجون لاكس"...وغيرهم، على تقاليد البراغماتية على قيد الحياة، ولكنها لم تعد تمت للتقاليد التحليلية بصلة، إلا حين واجه "ريتشارد رورتي" في ثمانينيات القرن العشرين ذلك التقليد بالقيود الصارخة التي كان يفرضها على هذا التقليد، معتمداً على قراءاته الخاصة التي اختارها لجيمس وديوي[1].

لقد جلبت هذه الحركة –البراغماتية الجديدة–مع "جيمس" الحس العملي البراغماتي إلى شتى ميادين الحياة الأمريكية كالدين، وعلم النفس الإنساني، وعلم الاجتماع العلمي. ولقد أثرت على "بيرس" مفاهيم الطريقة العلمية، والتفسير القانوني، والتحليل اللغوي وقد جلب ديوي –ربما الأكثر فعالية على الإطلاق–قدراً كبيراً من البرجماتية إلى التيار الرئيسي للثقافة الأميركية من خلال عمله في التعليم، والممارسة السياسية، بل وحتى الممارسة الجمالية. وباختصار، يسعنا القول أن قسطاً أكبر من التراث الثقافي الأمريكي من القرن العشرين يتضمن سمات عملية[2]. إذ يؤكد تشارلز موريس Charles Mouris(1901م–1979م)، وهو فيلسوف أمريكي تشابكت في مذهبه عناصر البراغماتية مع الوضعية الجديدة، أن للفكر البراغماتي ملامح أربعة، تعبر عن فكر أفراد هذه النزعة الواقعية المعاصرة، وهي: *"المكانة التي يتمتع بها العلم، والمنهج العلمي في منتصف القرن التاسع عشر. قبول تطابق النزعة التجريبية في الفلسفة المعاصرة. قبول نظرية التطور البيولوجي. قبول مُثل الديمقراطية الأمريكية"*[3]، أي أنها أصبحت تشكل نسيجا علميا فعليا يتسم بهذه الملامح، منه أن رواد الفلسفة الأمريكية أخذوا بالتفسير التطوري للإنسان الذي جاء متسقا مع الحرية الإنسانية والمسؤولية الأخلاقية، ولم تقدم البراغماتية نفسها في الأصل على أنها فلسفة شاملة لكنها قدمت نفسها باعتبارها منهج في كيفية جعل أفكارنا واضحة.

[1] Douglas R.Anderson: philosophy Americana, Fordham University press, New York, first edition, 2006, p p19-20.

[2] Ibid, p 20.

[3] تشارلز موريس: مرجع سابق، ص 17.

ويحاول قادة الولايات المتحدة اليوم، إبقاء المثل العليا قائمة على ما فيها من وهم، لما يدركونه من شأن تلك المثل الأعلى في مصير الأمة، وهذا تطبيق اجتماعي لذرائعية الجامعات الأمريكية القريبة من نفعية الفلاسفة الإنجليز؛ وإذ أصبحت المنفعة مقياس القيم الاجتماعية، فإن الأمريكي يعاني كثيرا لأجل المحافظة على معتقداته القديمة، كما يعاني العقل اللّاتيني في تقويضها[1]. لقد أضحى وثوقا تجلي الثقافة الأمريكية في جوهرها في ثوبها الذرائعي المحض، ولذلك لم تكتف الممارسة السياسة في الولايات المتحدة باتخاذ الذريعة قاعدة تستند إليها من بين القواعد الأخرى المتعارف عليها في العمل السياسي فحسب، بل اتخذتها عقيدة ثابتة لها أيضا[2]. بهذا المعنى تعتبر البراغماتية الأمريكية إسقاطا فلسفيا ايجابيا عن الديمقراطية الأمريكية.

4-إيديولوجية النزعة الفردية، الحرية وحقوق الإنسان:

منحت الحركة البراغماتية في أمريكا، المعنى الفلسفي لمجموعة من المقولات والتوجهات على صعيد الفكر في العالم الجديد، وحملتها الممارسات والمثل الثقافية الأمريكية، ونخص بالذكر هنا بروز النزعة الفردية ورفع خطاب حقوق الإنسان، فقد *"كان ويليام جيمس يبارك ينابيع النزعة الفردية بصفة أساسية في الممارسات الأمريكية، وكان "بيرس"، "وميد"، "وديوي"، يركزون على الحاجة إلى تشريع اجتماعي للاتجاه البارع والأخلاقي لتلك النزعة الفردية على نحو يختلف على الطريقة المستوردة من أوروبا"* [3].

إن إيديولوجية النزعة الفردية في أمريكا، أصبحت تمثل تأصيلا مركزيا لجميع المستويات الاجتماعية، فهي فلسفة شاملة وكلية، تتصف هذه النزعة بالحضور الدائم في جل الميادين، ولا يعرف فيها الفرد معنى الشفقة، كما تمثل هذه النزعة، النتيجة المنطقية والتطرف الأقصى لعلمنة البروتستانتية الإصلاحية، *"والتي تتميز بأنها ديانة دون إله"* [4]. وحسب "زبيغنيو بريجنسكي"، فإن السعي وراء الثروة الفردية هو الدافع الاجتماعي الأقوى في الحياة الأمريكية وهو أساس الأسطورة الأمريكية؛ لكنه يتلازم مع أخلاق ذاتية حقيقية ترفع من قيمة الفرد كوحدة مركزية في المجتمع، وتكافؤ الإبداعية والتنافسية البناءة، وتسمح لكل فرد بالحصول على فرصة متساوية لكي يصبح قصة نجاح أو فشل شخصي. إن حتمية الإخفاقات تفوق النجاحات عددا، لكن هذه الأخيرة هي التي تمنح الأسطورة شهرتها، وبالتالي تركز الفردية

[1] غوستاف لوبون: مرجع سابق، ص 217.

[2] نزار نجيب حميد: مرجع سابق، ص 15.

[3] تشارلز موريس: مرجع سابق، ص 190.

[4] بيتر جي كاتزنشتاين: مرجع سابق، ص 108.

للملايين من الناس على أمريكا الجذابة[1]. هذا الإغواء غير العادي للثقافة الأمريكية الجماهيرية ينبع من دعم سياسة الديمقراطية الأمريكية للمساواة الاجتماعية مع توفير الفرصة لتحقيق الذات الفردية والثراء غير المحدود للأفراد.

لقد تحولت الإيديولوجية الأمريكية من الثقافة الغربية الأوروبية، إلى التعددية الثقافية، بالعودة إلى مبدأ حقوق الإنسان الكونية الشاملة، هذا التحول ساهم فيما بعد في التأسيس لحضارة كوكبية جديدة (ذات بعد عالمي وكوني) يتماشى مع الاقتصاد والسياسة العالميين، كما رافق هذا التحول سلسلة متغيرات في داخل بنية الفرد الأمريكي، وهو التحول من نزعة استحواذية، إلى نزعة أيديولوجية فردية معبرة. وفي أمريكا ما بعد الصناعية، الاستهلاكية، والفردية المعبرة الجديدة، كانت حقوق الفرد هي النعمة الأسمى أو المصلحة العليا. هذا التحول إلى النزعة الفردية، أو مركزية الفرد في مقابل الجماعة، يجعلنا نقف أمام أساس معرفي يقوم على الإيديولوجية الدينية والاقتصادية الأمريكية، وبذلك تصبح أمريكا مصبا للفكر الفردي الحر الداعي إلى تحرير الفرد من مأزق الثقافات المتنوعة، وتصدح بالنزعة الفردية في دعاوى البيوريتانية الكالفينية والرأسمالية السياسية. هكذا يتم النظر إلى حقوق الإنسان في الإيديولوجية الجديدة، على أنها حقوق الأفراد، والحقوق الفردية هذه مستقلة عن أي تراتبية أو ألفة جماعية، أي تقاليد أو أعراف، ويمكن لهذا الشخص أو ذاك أن يكون منتسبا إلى بيئتها، وهذا يعني أن حقوق الإنسان قابلة للتطبيق على أي فرد في أي مكان في العالم، بمعنى أنها كونية شاملة، لا طائفية، قومية أو حضارية مجردة وحسب[2].

[1] زبيغنيو بريجنسكي: الاختيار (السيطرة على العالم أم قيادة العالم؟)، مرجع سابق، ص 204.

[2] بيتر جي كاتزنشتاين: مرجع سابق، ص ص105-107.

المبحث الثاني: الأسس الدينية والفكرية للمركزية الأمريكية:

من أجل أن يحقق الوعي بالذات وجوده وتميزه، سيكون مجبرا على نزع الاعتراف بالذات من الآخر، لذلك فلا يوجد ما هو أنسب من توظيف رؤية الماركسيين للأسباب التي جعلت من أمريكا قوة اقتصادية وسياسية استثنائية، في العالم وفي ذلك *"أشار الماركسيون أنفسهم، من ماركس، وانجلز، إلى لينين، وتروتسكي، وغرامشي إلى عوامل جعلت الولايات المتحدة استثنائية في نظرهم، منها: غياب الإقطاع، أرض الحدود "الحرة"، ظهور قدر أعظم من الازدهار والحراك، مركزية العرق والإثنية، والقوة الإيديولوجية للأمركة"* [1].

وفي الواقع يسعنا إن نتمثل منظومة الأسس الثقافية والإيديولوجية التي تمكنت من خلالها الاستثنائية الأمريكية من تجاوز القدرات الماركسية، حتى وإن بدت مؤصلة بالأسس الدينية والفكرية. ويمكن إيجاز لائحة الأسس الفاعلة في شقيها الثقافي والإيديولوجي فيما يلي: القوة الأيديولوجية للميثاق البيوريتاني؛ التراث الأدبي الأمريكي المائز للرواية العاطفية؛ دور المناطق الحدودية في الخيال الأمريكي؛ الثقافة الاستهلاكية عند "شعب الوفرة"[2]. هذه الأسس وغيرها عدت بمثابة ركائز للهيمنة الأمريكية العالمية، نوجزها في:

1-الإصلاح الديني والبروتستانتية البيوريتانية (التطهيرية) Puritanism

نتساءل في مستهل هذا العنصر، هل لفكرة الدولة الاستثنائية أو المركزية الأمريكية أسس دينية عقائدية؟ بمعنى أدق هل استقى الأمريكيون فكرة الاستثنائية من مذاهب دينية أو نصوص مقدسة؟ وما أثر الدافع الديني في عقيدة الهيمنة الأمريكية؟

من الأطروحات المهمة والغامضة في آن واحد لصامويل هنتنغتون، أن الدين يشكل القاعدة الأساسية والجوهر المركزي لأية حضارة، ولأن الأديان تغوص عميقا في المجتمع كما في داخل هويات الناس، وتدوم طويلا قابعة في مخيالهم، فإن هذا يعني أن للحضارة اطرادات وثوابت معينة، تكون عميقة الجذور وطويلة الأعمار؛ ولأن الأديان المختلفة كثيرا ما تتصارع وتتصادم فيما بينها، فإن هذا يعني أن الحضارات المختلفة تفعل الشيء ذاته؛ يقول هيتنغتون في هذا السياق

[1] مايكل دينينغ: الثقافة في عصر العوالم الثلاثة، ترجمة أسامة الغزولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2013، ص 225.

[2] المرجع نفسه، ص 225.

أن: *"الدين محوري في العالم الحديث، وربما كان القوة المركزية التي تحرك البشرو تحشدهم"* [1]. ولأن الناس يحتاجون دائما إلى بنية عقائدية قوية، تكون محركا قويا لهم، يدفعهم للعمل، وعلى أن يجعلهم مستعدين -ليس فقط لتحمل مشقة بناء الحضارة، وإنما أيضا-للعمل على المحافظة عليها وضمان بقائها واستمرارها، هكذا إذن *"يقوم الدين مقام مركزية الهوية الحضارية، بين مقوماتها كالدم واللغة وأسلوب الحياة والحضارة تقوم على الوحدة والشمولية بين دولها، والتي تجمعها علاقات وطيدة أكثر مما تتأسس بينها وبين دول تنتمي إلى حضارات أخرى مثل الحضارات الإسلامية والفارسية والرومانية..."* [2].

إن الحضارة الأمريكية لا تشذ عن تلك القاعدة، فلا يجب أن يغيب عنّا أبدًا، أن الدين كان هو الأصل في قيام المجتمع الأمريكو-انجليزي، فالدين في أمريكا متصل بعادات الأمة، ويجمع عواطف الوطنية، مما يجعل له قوة خاصة في تشكيل ملامح الهيمنة من داخل المركزية الأمريكية. هذا ما نتمثله من خلال الدراسة السوسيولوجية المعمقة للمكونات الثقافية والدينية للمجتمع الأمريكي التي توصل إليها "أليكسيس دو توكفيل" مبرزا أثر الفكرة الدينية في صناعة ملامح ومقومات الفرد الأمريكي، إذ يعتبر دوتوكفيل أن: *"الدين في أمريكا هو الطريق إلى المعرفة والعلم ومراعاة القوانين الإلهية تؤدي بالإنسان إلى الحرية المدنية...وأنه يوجد عنصرين بارزين ساهما في الحضارة الأمريكية تم دمجهما بنجاح، هما روح الدين وروح الحرية "* [3].وإذا كانت التفسيرات التقليدية للحضارة الغربية تصفها بأنها ذات منابع ثلاثة: الثقافة الكلاسيكية، والديانة المسيحية، والتنوير الحديث؛ فإن تصور الولايات المتحدة وتحديدها للحضارة الغربية جاء مستندا إلى هذه المنابع الثلاثة كذلك. إلا أن الطبعة الأمريكية للمسيحية كانت طبعة مفرطة في بروتستانتيتها، بروتستانتية إصلاحية كالفينية -نسبة إلى المصلح القسيس الفرنسي "جون كالفن Jean Calvin(1509م-1564م) -بالتحديد. كما أن طبعتها في التنوير كانت شبيهة جدا بطبعة بريطانية أو انجلو-أمريكية أكثر منها فرنسية أو أوروبية[4]. هذا ما توصلت إليه فيما بعد السوسيولوجيا الحديثة مع "ماكس فيبر Max weber(1846-1920)" إذ يؤسس فيبر لتحليل عميق يهتم بعلاقة الدين بالمجتمع، يتوصل من خلاله إلى أهمية القيم الدينية في ظهور قيم وأخلاق العمل بالمجتمعات الصناعية، فاتخذت أبحاثه بخصوص علاقة الدين بالرأسمالية مسارين: أولهما يبين المساهمة الايجابية للمسيحية وخصوصا البروتستانتية في ظهور الرأسمالية والآخر يستبان عن طريق

[1] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص10.

[2] المرجع نفسه، ص 70.

[3] أليكسيس دوتوكفيل: مرجع سابق، ص ص 47-48

[4] بيتر جي كاتزنشتاين: مرجع سابق، ص 74.

الكشف عن العوائق التي أخّرت ظهورها بمجتمعات الديانات الأخرى. يقول فيبر: *"إن البروتستانتية هي عقيدة جديدة تتميز بالحرية والانطلاق إلى اختراق كل ميادين الحياة، معتمدة على تغيير أنماط السلوك من التراخي والخمول والكسل في العقيدة القديمة (الكاثوليكية) إلى القساوة والصلابة في العمل"* [1].

لقد حاول "ماكس فيبر" البحث في العلاقة بين أخلاق البروتستانتيين وبين نمو الروح الرأسمالية في كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" وكيف تتحول الأفكار إلى قوى تاريخية فعالة؟ وكيف أثرت هذه الأفكار في الرأسمالية وغيرت حركة التاريخ؟ وجد فيبر خلال دراسته على أخلاق البروتستانتية، أن الرأسمالية الحديثة نشأت من خلال العقيدة البروتستانتية لما تضمنه من سلوكيات وقيم أخلاقية وتربية دينية وعملية، فاعتبر فيبر، الدين هو المحرك الأساسي لكل الأنشطة الاقتصادية والإنتاجية التي يمارسها المجتمع تماما، عكس ما ذهب إليه "كارل ماركس" الذي يعتقد أن سلوك الأفراد في مختلف المجتمعات يمكن أن يفهم في إطار تصورهم العام للفكرة الدينية. فالدين حسب "ماركس" هو زفرة المضطهدين ومظهر من مظاهر الاستلاب وشكل من أشكال الأيديولوجية التي تستخدمها السلطة للسيطرة على الناس.

ومن المقاربات الفلسفية للظاهرة الدينية، التي توصل إليها "دوتوكفيل"، هي أن التشدد في الدين والالتزام بتعاليمه العصية، قد لا يحقق الأمل المرجو في كمال الفرد والمجتمع، بل إن تلك الديانات المتشددة، تتعارض مع مبادئ الديمقراطية، على عكس العقيدة البروتستانتية، التي تدعو إلى كمال الإنسان اللّامحدود، وعدم التشدد في الطقوس الدينية، وعدم الاهتمام بالآداب والفنون والفلسفة. وفي ذلك يقول دوتوكفيل:"مركز الأمريكيين، مركز شاذ كل الشذوذ، لم يُتح لأمة من الأمم الديمقراطية أن تنعم بمثله، فأصل الأمريكيين البيوريتانيين (المتطهر) المتشدد في الدين وعاداتهم التجارية الغالبة عليهم، بل والبلاد نفسها التي استقروا فيها، التي يبدو أنها تبعد عقولهم عن موالاة الاشتغال بالعلم والأدب وقربهم من أوروبا الذي أتاح لهم أن يهملوا هذه النواحي، من غير أن يرتكسوا في البربرية"[2].

وبناء على تلك المقاربات يتبين لنا، أن المذهب البروتستانتي يختلف عن المذهب الكاثوليكي- كما ذكر ماكس فيبر- إذ بعد الإصلاح الديني "اللوثري" في القرن السادس عشر، بيّنت الإحصائيات في تلك الفترة أن نسبة البروتستانت الذين ينتمون إلى المعاهد الصناعية، أكبر من نسبة الكاثوليك الذين يتجهون إلى دراسة الفلسفة والآداب

[1] ماكس فيبر: الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، تر محمد علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت-لبنان، د ط، د س، ص17

[2] دوتوكفيل: مرجع سابق، ص ص 411-412.

والإنسانيات والتاريخ...هكذا يتجه البروتستانتي إلى المصنع فيُظهر شغف ونشاط واضح بالعقلانية الاقتصادية، أما الكاثوليك فيتجهون نحو الإنسانيات وبعض الحرف، كما يقول "ماكس فيبر": *"إن الاختلافات بين المذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي تبدأ من اختيار نوع التعليم الثانوي ففي غرب ألمانيا وفي المجر، الكاثوليك لا يُعلمون أبناؤهم العلوم التقنية والوظائف الصناعية والتجارية ويهتمون بدراسة الآداب القديمة وعلوم الدين. على عكس أبناء الطائفة البروتستانتية، ينتج عن هذا التوجه في التعليم مشاركة ضعيفة في العمل"* [1]. وهناك فارق آخر حسب "فيبر"، وهو أن البروتستانت يهتمون بالأعمال اليدوية ويكتسبون مهارة أداء الأعمال من خلال تكوينهم في مراكز صناعية، كما أنهم يتدرجون من الأعمال اليدوية المصنفة إلى المسؤوليات الإدارية، على عكس الكاثوليك الذين يكتفون بالبقاء في الوظائف المهنية. وفي نظر "فيبر" فإن هذه الاختيارات تمليها خصوصية الذهنية أو العقيدة التي تتأثر بظروف الوسط المحيط أي الزمرة والأسرة...نتيجة لهذه المفارقات يعتبر فيبر أن الكاثوليكية أكثر انفصالا عن العالم، لأنهم يميلون إلى المثالية ويندون بالنزعة المادية ويعتبرونها نتيجة *"لعلمنة كافة مضامين الحياة، أسفرت عنها تعاليم المذهب البروتستانتي وأفرزتها"* [2].

من جهة أخرى يؤكد "روجيه غارودي" الطابع المادي الذي ميّز العقيدة البروتستانتية، حين منحت معنى جديد لمفهوم رضا الله عن عباده فيحبهم، لقد *"...كانت الأخلاق البروتستانتية تنزع إلى النظر في نجاح المشروع نظرتها إلى علامة عن رضا الله، وقد أبرز المؤرخون في الغالب هذه الصلة التي أسهمت في تسارع نمو الرأسمالية في البلدان التي تسودها البروتستانتية"* [3]. إذ أن العلاقة بين الإنسان بربه مباشرة لا واسطة بينهما، علاقة فردية يبارك فيها الله للعبد من خلال ما يقوم به من عمل؛ وحتى يعرف العبد أن الله راض عنه أم لا؟ ويجب عليه أن يراقب سلوكه وأعماله فإن وجدها جيدة وحياته رغيدة وناجحة فإن ربه راض عنه؛ أما إذا وجدها غير ناجحة وسلوكاته غير معتدلة سيعلم أن الله غير راض عنه. أي أن مبدأ الرضا الإلهي عن الإنسان هو العمل بجد وفقط، ولهذا سينطلق الإنسان في العمل والإنتاج ويضاعفه حتى يرضى ربه، وطبعا سيستفيد ماديا. هذا الفهم الذي جاءت به البروتستانتية مكّن البروتستانتيين من مجموعة من الأفكار لم تكن موجودة من قبل، فلقد ألغت وساطة البابا بين الإنسان وربه، بل أصبحت العلاقة مباشرة بين العبد وربه دون حجاب أو اعتراض لإدراك مجتمع عادل. وهنا يتحدث "فلاديمير

[1] ماكس فيبر: الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، مرجع سابق، ص ص18-17 .

[2] ماكس فيبر: مقالات في سوسيولوجيا الدين (الثقافة البروتستانتية)، تر منير الفندري، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2015، ص 41.

[3] روجي غارودي: حوار الحضارات، مرجع سابق، ص 219.

سوغرين" عن مفهوم المجتمع العادل من وجهة نظر بروتستانتية، كما ساد في المجتمع الأمريكي حين اعتبر أن: المستوطنين البيض أحاطوا حقوقهم الليبرالية الخاصة بأطر صارمة جدا، أطر بيوريتانية، كالفينية في جزئها الأكبر، فطموح الإنسان نحو الرفاهية مع وصايا الرب، هكذا رعت البيوريتانية الروح الفردية ونمتها كقيمة أمريكية أساسية، مُلقية على الشخص كامل المسؤولية عن نجاحه الشخصي، كل هذا ضبط الإنسان بصرامة أخلاقيا ومعنويا، إلى جانب تقييد حرية إرادته بالوصايا العشر. أي أن ذلك كان فعلا مجتمعا دينيا ينظر إلى الحياة على النحو التالي: إذا نجحت فإن الرب هو الذي أعطاك هذه النعمة[1].

لهذا فإن البروتستانتية لم تكن إلا نوعا من الثورة، احتجاجا على الشكل الذي كان الدين المسيحي قد آل إليه في الكنيسة الكاثوليكية، بالتحديد في كاثوليكية أواخر العصور الوسطى والنهضة؛ وقد كان الإصلاح البروتستانتي مسعى لانتشال الدين المسيحي، وإعادته إلى العقيدة الأصلية المبينة في العهد الجديد من الإنجيل. فقد كان الإصلاحيين البروتستانت، *"ينظرون إلى التنوع الواسع لزحمة الديانات، والثقافات، والحضارات الأخرى، من منظور كوني، منظور أكثر كونية من منظور الكنيسة الكاثوليكية، ما أدى إلى تصادمهم مع أكثرية الديانات الأخرى ومع الحضارات التي كانت قد أنجبت هذه الديانات"* [2]. وأضحى بذلك الاقتصاد السياسي تشكيلا دنيويا للعقيدة البروتستانتية، وأضحت العقلانية البروتستانتية مختزلة في النزعة النفعية، كما قال "سيرج لاتوش": *"البروتستانتية ليست رسالة أخلاقية بقدر ما هي وصفة عالمية بجلاء، للنجاح في الأعمال التجارية"* [3].

فضلا عن ذلك، فإن تأثير الظاهرة الدينية على الاستثنائية الأمريكية لا يقتصر فقط على توجيه الوعي الاقتصادي، وإنما لها تأثير مماثل على السياسة، بدءا من كون الدين أحد العوامل الفاعلة في التغيير السياسي باعتبار حاملي الوحي والمبشرين بالمستقبل من رجال الدين يمثلون سلطة كاريزمية، إلى جانب حملة السيف من المحاربين، هؤلاء فقط قادرون على التجديد وكسر الروتين اليومي. كما أن الدين له الأثر البالغ في السياسة وعامل مهم لدفع المحاربين والجنود إلى الموت في ساحة الحرب عطاء وتفانيا في التضحية، لأنه يمنح الأفراد شعورا بأنهم يموتون من أجل شيء[4]. إذ أن *"الدين*

---

[1] فلاديمير سوغرين: الجذور الدينية والفكرية لعقيدة الهيمنة الأمريكية العالمية Pax Americana، حوار لقناة RT بالعربية، 2017/06/21.

[2] بيتر جي كاتزنشتاين: مرجع سابق، ص 87.

[3] سيرج لاتوش: مرجع سابق، ص ص 36-38.

[4] دانيال هارفي وجون بول ويلام: سوسيولوجيا الدين، ترجمة درويش الحلوجي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005، ص ص 99، 100

يرى في الحرية المدنية السياسية تمرينا كريما لملكات الإنسان، وقدراته، ويرى في العالم السياسي مجالا أعده البارئ لجهود العقل، ولما كان الدين حرا وقويا في دائرته الخاصة، راضيا عن المكانة التي أعدت له فإنه، لم ينشئ إمبراطورية وطيدة الأسس، إلا عندما يسيطر على قلوب الناس من غير حاجة به إلى أن يستند إلى شيء سوى قوته الذاتية" [1].

إن القيم الأخلاقية العميقة لليبراليين ظلت جزءاً من الهوية الوطنية للولايات المتحدة الأمريكية لقرون من الزمان وظلت مؤثرة حتى يومنا هذا. وبوسعنا أن نقول إن جزءا مهما من استثنائية الولايات المتحدة، ومركزية الدولة الأمريكية يعود إلى جذور تطهيرية. كما أن البيوريتانيين لديهم مُثُل عليا طوباوية؛ فمجتمعهم الجديد أمريكا سيكون فردوسا على الأرض، وربما المجتمع المثالي الذي سيقيم فيه يسوع المسيح عندما يعود. لقد اعتقدوا أن الله قد جعل العهد مع شعبهم واختارهم لقيادة الأمم الأخرى في الأرض. وينبغي لمجتمع البيوريتان في العالم الجديد أن يعمل كمجتمع نموذجي لبقية العالم، ويستخدم هذا التعبير غالباً من قِبَل أنصار نظرية الاستثنائية الأمريكية على الرغم من أن نظرة البيوريتانيين الدينية قد تغيرت بشكل كبير.

2-التنوع العرقي والثروة البشرية:

إن بوتقة الانصهار الاجتماعية والثقافية الأمريكية، تمثل أحد أهم الانجازات البشرية في التاريخالمعاصر. إنها تمثل فسيفساء من التنوع العرقي والبشري، ومعظم الناس الذين يعيشون في الولايات المتحدة بصرف النظر عن معتقداتهم العرقية، القومية، الثقافية، العرقية، أو غيرها، يعتبرون أنفسهم مواطنين أمريكيين. وهذا الانجاز وحده يضع الولايات المتحدة فوق بلدان العالم من حيث تجلي قيمة العيش المشترك في ظل الاختلافات البيولوجية والعرقية. لهذا كانت السياسة الأميركية والمجتمع الأميركي، منذ البداية ينتظمان على نحو بالغ الأهمية بفعل التنوع العرقي وما قد يخلقه من صراعات، ثقافية وإيديولوجية تصل أحيانا إلى المواجهات المسلحة. لهذا اتخذت مجموعة من الميكانيزمات للحفاظ على تماسك المجتمع الأمريكي، مثل إدراج مواد في الدستور حول معنى المواطنة؛ وارتفاع حركة الحقوق المدنية؛ والتمثيل العادل في المجالس النيابية. *"فقد اجتمع الدستور ووثيقة الحقوق، والحكومة الديمقراطية المستقرة، واقتصاد السوق المزدهر، من أجل خلق بيئة حيث يستطيع الأفراد من مختلف الخلفيات أن يلاحقوا أحلامهم. على الرغم من*

[1] ألكسيس دو توكفيل: مرجع سابق، ص 49.

*أن عدد السكان تجاوز 300 مليون نسمة ففي عام *2006، لا تشكل الكثافة السكانية في البلاد، ومعدل النمو، وأنماط الهجرة الداخلية، وغير ذلك من المؤشرات الديموغرافية، سببا يدعو إلى القلق"* [1]. ورغم أن الولايات المتحدة تحتل، المرتبة الثالثة من حيث عدد السكان، إذ يزيد عددهم على 330 مليون نسمة، بعد الصين والهند. إلا أنها على النقيض من هذه البلدان، يتمتع سكانها بواحد من أعلى مستويات المعيشة على مستوى العالم، فمنذ استقلالها عقد المؤسسون الأوائل للولايات المتحدة، العزم جعلها قوة عالمية بدأت بموارد بسيطة وتطورت شيئا فشيئا. وما سهل أمرها هو عزلتها عن صراعات العالم القديم. فإلى جانب العوامل الجغرافية، نجد العقل والتخطيط السليم، أي أن "العقل الأمريكي له السيادة متصدرا حضارة عالمية متفوقة ومهيمنة وآسرة. يعرف جوانب قوته وضعفه، ويدرك واعيا تحدياته، ويرسم خطى مستقبله للمواجهة. كما يعي حركة التاريخ ودور أقطاب الحضارة. حضارة عصر ما بعد التصنيع وتفجر المعلومات وما تفرضه عليه من مهام وتطرحه أمامه من أطماع، وسبيله إلى تحقيق الحلم الأمريكي التقليدي بإنشاء المجتمع العظيم الذي تدين له أمم وشعوب العالم بالولاء طاعة أو قسرا[2]. العقل الأمريكي منظورا إليه بأنه هو ذلك الآخر القوي والمهمين الذي يفرض نفسه قيما على أقدار الضعفاء من الأمم حيث السيادة للأقوى. وقد سبقت هيمنته الاقتصادية والسياسية والعسكرية على الصعيد العالمي محاولات للهيمنة الثقافية اطردت واتسع نطاقها في القرن العشرين.

هكذا تشكلت سمات مركزية عرقية في طبعتها الأمريكية، وأصبحت النزعة العرقية تشكل منظراً عاماً للفارق الاجتماعي؛ إذ تتمظهر وتنتشر على نطاق واسع في المجتمع الأمريكي، سعى خبرائها الانثروبولوجيون، والمختصون الاجتماعيون وكذا مراكز البحث، إلى استخلاص مقاييس لتحديد توجهات واهتمامات، وكذا تركيبة الأعراق المختلفة التي عرفتها أمريكا على مدار تاريخها الطويل، لأن الدراسة العلمية لمشكلة الأعراق هي وحدها الكفيلة بتحقيق العدالة الاجتماعية والقانونية لهذه المجموعات العرقية، وإلا فإن الصراع والفوضى هما اللّذان سيحسمان الموقف، إذ كان لابد من فض النزاع بأسس علمية ودراسات وقياسات إجرائية، تحقيقا للتوافق بين أبناء المجتمع الأمريكي الواحد

*بلغ عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية عام 2022نحو334691730، نسمة بناءً على إحصائيات Worldometerلأحدث بيانات الأمم المتحدة. وبهذا الرقم فإن سكان الولايات المتحدة الأمريكية يعادل 4.25٪ من إجمالي سكان العالم.

[1] Charles F. Gritzner: The United States of America, Chelsea House Publishers, New York, 2008, p11.

[2] شوقي جلال: العقل الأمريكي يفكر (من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات)، مكتبة مدبولي، دم، دط، 2000، ص 7.

على اختلاف الأعراق التي تشكله[1]. يجري العمل في دائرة الأمن العام والمركز الوطني للدراسات الاستراتيجية، على تحديد الفئات الاجتماعية بالأعراق السائدة في أمريكا وهم: البيض، والسود، والأمريكيين الآسيويين والأمريكيين الإسبان[2]. بالإضافة إلى الدراسة الاستقصائية الاجتماعية الأساسية، من بينها البحث الذي أجراه المركز الوطني لأبحاث الرأي بجامعة شيكاغوGSS، وكذلك الدراسات الانتخابية الوطنية التي يضطلع بها مركز الدراسات السياسية التابع لمعهد البحوث الاجتماعية، الذي يقع في جامعة ميشيغان NES. إن هذه التحليلات والاختبارات التجريبية والمقابلات الشخصية التي قام بها المركزان، أدت بشكل كبير إلى فهم وتكريس مساحة كبيرة للمناصب السياسية المعتادة فضلاً عن جوانب مهمة من الخلفية الاجتماعية للمجموعات العرقية(الداخلية والخارجية) في الولايات المتحدة: كتحديد الهوية الحزبية، والتعليم، والدين، وغير ذلك، ومن ثمة معرفة تأثير المركزية الإثنية على الرأي السياسي، كما استخدمت تلك النتائج والأبحاث في تنفيذ أول عملية من عمليات الخدمة الوطنية في عام 1948، كما كشفت هذه الدراسات عن بعض الخصائص ذات علاقة بالتشبيهات الأساسية، مثل الاعتدال، الذكاء، الجدارة بالثقة، جوهر الطبيعة البشرية العميق، والقدرة على التغير، والقدرة على العمل...وغيرها[3].

وعلى الرغم من كثرة هذه المساعي المبذولة في سبيل تحقيق عدالة اجتماعية وسياسية بين مختلف الأعراق والاثنيات المقيمة في الولايات المتحدة الأمريكية، فإنها لم تحد من موجات العنف والاضطهاد والتمييز العنصري الذي ما فتئ يتعرض لها المهاجرون والمقيمون القادمون من إفريقيا وآسيا، بالإضافة إلى السكان الأصليين، إذ بعد أن قاسم أمريكيو الولايات المتحدة لزمن طويل أوهام الأوروبيين في المساواة بين العروق، (تلك الأوهام التي قررت حرب الانفصال الهائلة)، أدركوا في نهاية المطاف خطر خطئهم، فتراهم اليوم يتجنبون كل توالد مع ملايين الزنوج الثلاثة عشر الذين يسكنون بلادهم، ولذلك كان) قانون لنشLa Loi de Lynch[4] ضرورة عرقية[1]. صارت الولايات المتحدة ذات

[1] Donald R kinder & cindy D kam, Op cit, p46.
[2] Ibid, p46.
[3] Ibid, p43-44.
[4] ويسمى كذلك قانون الإعدام دون محاكمة، هو ممارسة أميركية تتمثل في العدالة السريعة، والتي أسسها تشارلز لينش (1736-1796)، وهو مزارع فرجينيا وعدالة الصلح الذي ترأس أثناء حرب الاستقلال محكمة غير نظامية أنشئت لمعاقبة الموالين لبريطانيا. وفي وقت لاحق، انتشرت ممارسة الإعدام بدون محاكمة أثناء غزو غرب الولايات المتحدة في الأقاليم الجديدة، حيث كثيرا ما كانت المحاكم غائبة أو غير ممثلة تمثيلا كافيا. وستتخذ هذه الممارسة الجديدة بعداً جديداً، وهو أن "قانون لينش" يشير بعد ذلك إلى أي شكل من أشكال العنف يقوم فيه الحشد، بذريعة إقامة العدل دون محاكمة، بإعدام أي مذنب مزعوم وعادة ما يكون شنقاً. في نهاية الحرب الأهلية، فقتل الجمهوريين والشخصيات الأفريقية –الأمريكية أصبح أمرا شائعا في الولايات الجنوبية خلال ما يسمى بعصر إعادة الإعمار وحتى أواخر الخمسينيات، على سبيل المثال، قتل (إيميت تيل) في عام 1955. وبعد اعتماد قوانين مختلفة مثل قانون الحقوق

تنوع عرقي وعنصري وثقافي أكبر بكثير، بسبب الأعداد الهائلة وغير المسبوقة من المهاجرين الجدد إلى هذه البلاد، ما يجعل استقرار الثقافة السياسية والمعيارية الأمريكية رهن التحدي في العقود الأخيرة، وذلك نتيجة انتشار ثقافة الحريات وحقوق الإنسان.

3-ذريعة السِلم العالمي Pax Americana

المدنية لعام 1964، وقانون حقوق التصويت لعام 1965، وقانون الحقوق المدنية لعام 1968 الذي يحظر جميع القوانين والأنظمة التي تفصل بين جميع الولايات المتحدة، أصبحت هذه الممارسة متقطعة مثل قتل "مايكل دونالد" في عام 1981. وتعزى هذه الأعمال الإجرامية أساسا إلى منظمة "كو كلوكس كلان" الإرهابية وإلى مجموعات صغيرة مختلفة من حركة التفوق الأبيض. كمما توسع هذا القانون وأصبحت له تطبيقات في ميادين ثقافية مختلفة سواء في العلاقات العائلية والنصب التاريخية والسينما والأغاني والرقص وغيرها .

https://fr.wikipedia.org/wiki/Lynchage_et_loi_de_Lynch#Loi_de_Lynch_dans_la_

39culture,15 avril 2021,17: يقول "غوستاف ايمارد في كتابه الشهير la loi de Lynch وعلى الرغم من أننا نحن الأوروبيون نندهش بحق لأنه في مجتمع أخلاقي يمكن أن تكون هناك بشاعة مثل قانون لينش، على الرغم من هذا، عادلة بالنسبة للأميركيين، وعلى الرغم من أننا يجب أن نرفض نظامهم الحالي المستمد من قانون لينش الأصلي، فإن الأمر مضطر إلى الاعتراف بأن هذا القانون كان من حيث المبدأ نتيجة لظروف قاهرة. ولم يكن قانون لينش في الأيام الأولى من وصول الآباء الحجاج إلى أرض "بليموث" سوى العقوبة التي فرضها مجتمع محروم من أي قانون، لا يمكنه إلا اللجوء إلى العدالة الخاصة به لمعاقبة جريمة. واليوم، في المراكز الرئيسية للاتحاد، لا يشكل هذا القانون سوى ممارسة السلطة بصورة غير قانونية من جانب الأغلبية في معارضة لقوانين البلد الذي يشجعه، فضلا عن العقوبات التي تفرضها هذه القوانين ...، أن قانون لينش كان موجوداً، كما قلنا، في أميركا منذ اليوم الأول الذي هبط فيه الأوروبيون إلى هناك. ومن الواضح أن قانون لينش لم يبدأ تطبيقه حقاً في المقاطعات المتحضرة في الاتحاد حتى السنوات الأخيرة من القرن، وذلك من دون الادعاء بخلاف ذلك لضمان صحة تأكيدنا؛ ثم كان أكثر من ذلك بكثير الأساسية، وكان مصباح الشارع قبالة وكان الضحية يركب في مكانه. Gustave Aimard : La Loi de Lynch, édition du groupe Ebooks libres, 2008, P520-521.

[1] غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 124.

ذريعة السلم العالمي من الأسس التي أرست دعائم الهيمنة الأمريكية على العالم وتبوؤها مركز العالم وقلبه النابض، إذ أن الزعم الأميركي للتدخل على الساحة العالمية حفاظا على السلم والأمن العالميين، يعد غرضاً أخلاقياً وعملا خال من الأنانية في سبيل الدفاع عن الحرية والديمقراطية في العالم. ومن هذا المنظور، تتصرف أمريكا كدولة فوق الأمم، تفرض هيمنتها على بقية العالم، وتعمل للمصلحة العالمية. إذ جاء في خطاب الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة وودرو ويلسون Woodrow Wilsonفي سنة 1917: *"لابد من جعل العالم آمناً للديمقراطية. ولابد من إرساء السلام على أسس الحرية السياسية المختبرة. وليس لدينا غايات أنانية نخدمها. فنحن لا نرغب في غزو ولا هيمنة. ونحن لا نسعى إلى الحصول على تعويضات لأنفسنا، ولا على أي تعويض مادي عن التضحيات التي نبذلها بحرية. ونحن لسنا سوى واحد من أبطال حقوق البشرية"* [1].

إن هذا الشعار (السلام العالمي)، هو مبدأ القوى الإمبراطورية السابقة كذلك، التي تُعَد من بين أشد المدافعين عن حقوق الإنسان والمساواة بين البشر على مستوى العالم. وهو شعار العديد من الدول القديمة والحديثة، التي كانت تنظر إلى نفسها باعتبارها تلعب دوراً خاصاً، ومباركا من الله في بعض الأحيان. فقد حاولت القوى الإمبراطورية التي تتراوح بين الرومان إلى المغول إلى البريطانيين، بترسيخ وعي حكم القانون، والحفاظ على السلام؛ ومن هنا كانت الإشارة في الآداب الكلاسيكية إلى باكس رومانا، وباكس مونغوليكا، وباكس بريتانيكا، أي السلام الروماني، أو السلام المنغولي، أو السلام البريطاني. من ناحية أخرى كان الهدف من وراء ادعاء المحافظة على السلام اقتصادي كذلك، إذ يشير كل من"رولاند فيندلاي"،"وكيفين أورورك" إلى أن فترات التوسع المستدامة في التجارة العالمية كانت تميل إلى أن تتزامن مع البنية الأساسية للقانون والنظام اللازمة لإبقاء الطرق التجارية مفتوحة بواسطة قوة مهيمنة أو قوة إمبريالية مهيمنة، كما هو الحال في "السلام المنغولي" و"السلام البريطاني". ولهذا يعتبر نيال فيرجسون Niall Ferguson(1964–) بأن الإمبراطوريات ضرورية، حيث أن أمريكا باعتبارها إمبراطورية ليبرالية، تعزز الحرية والانفتاح الاقتصادي والأسس المؤسسية للتنمية الناجحة[2]. لهذا فإنه من شأن تدهور أحوال أمريكا أن يتدهور معها الأمن العالمي ويتلاشى، وتتعرض دول الأطراف الهشة للخطر. فأمريكا حسب "بريجنسكي" تعمل في سياستها على تجنيب العالم من انزلاق خطير إلى هاوية الفوضى الدولية العارمة نتيجة التعقيدات الاستراتيجية للعالم في القرن الواحد والعشرين[3]، وعلى سبيل التوضيح نقول أن النزاع في العالم يجعل الولايات المتحدة دوما على الطرف النقيض، إذ برز

[1] Michael Northcott, Op cit, P26.
[2] Taesuh Cha, Op cit, p p 355,356.
[3] زبيغنيو بريجنسكي: رؤية إستراتيجية (أمريكا وأزمة السلطة العالمية)، مرجع سابق، ص 140.

خطاب السلم في عديد المحطات والنزاعات العالمية، ففي الحرب الباردة يوجد قطبين أو جانبين، كما في الحرب على الإرهاب، ودور الولايات المتحدة تجلى في الزعم على قمع المعارضة في الداخل والحروب السرية لاحتواء الشر في الخارج؛ وكل ذلك بهدف الحفاظ على السلام العالمي ونشر العدالة، والدفاع عن الحقوق والحريات في العالم، ما قد يكون لها دور حاسم في تأمين مستقبل دائم للجنس البشري من جهة، وبقاء الشعب الأمريكي وأمريكا في قلب النظام العالمي من جهة ثانية.

إن فكرة السلام كان لها موضعا قيما في أبحاث فلاسفة الحضارة باعتبارها بمثابة الفرضية الكونية لأطروحة صراع الحضارات، فحسب هنتنغتون تقوم هذه الفرضية على خمسة معطيات تاريخية وثقافية وسياسية تصنع ملامح النظام العالمي الجديد، وتعزز بوادر فرضية الصدام الحضاري، وبالتالي ضرورة الإيمان بأهمية أن يكون مركز قيادة عالمي للحفاظ على النظام في العالم وفض النزاعات، وهنا يتجلى حضور ذريعة السلم العالمي في أطروحة هنتنغتون. إذ حسب رأيه، قد حدث أول مرة في التاريخ الإقرار بوجود ثقافة كونية متعددة الأقطاب ومتعددة الحضارات، تحديثا وتغريبا، وتنوع ثقافي لم يسبق له مثيل. يرافقه تغير في موازين القوى الحضارية، إذ نتلمس تدهور نسبي للحضارة الغربية، مقابل بسط الحضارة الآسيوية لقوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، وحدوث انفجار سكاني في دول العالم الإسلامي، وما يترتب عن ذلك من لا استقرار على عدة أصعدة. هذا ما أبان عن ظهور نظام عالمي جديد يجمع ويوحد المجتمعات المتقاربة ثقافيا، في شكل تكتلات مع الفشل في عمليات دمج الشعوب في متون الحضارة(التغريب)، فيلاحظ تكتل الدول حول المركز أو دولة القيادة. وأن أخطر أشكال الصراع الحضاري هو ما يحدث بين الغرب والإسلام والصين، وفي نفس الوقت بروز جهود من دول المركز لإيقاف تلك الحروب والنزاعات. وأمريكا هي القائدة للغرب والحاملة لهويته وثقافته والمحافظة على بقائه، أمام تعدد الحضارات للسياسة الدولية وتعاونهم للحفاظ عليها[1]، وإلا فإن العالم سوف يعيش حالة عدم استقرار دولي على نطاق واسع، وما من شأنه أن يؤدي إلى انتشار فوضى عالمية. ويدافع "بريجنسكي" عن جرأة "هنتينغتون" في هذا التوجه ويعتبره محقا عندما أكَّد: إن عالما دون سيادة أميركية سيكون عالما متسمًا بدرجة من العنف والاضطراب أكبر وبدرجة من الديمقراطية والنمو الاقتصادي أقل من العالم الذي تستمر فيه الولايات المتحدة في ممارسة النفوذ، أكثر من أي بلد آخر، في إدارة الشؤون العالمية. وهكذا، فإن السيادة الدولية

[1] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص ص 37-38.

المستمرة للولايات المتحدة هي أمر رئيسي ومهم لرفاه وأمن الأميركيين ولمستقبل الحرية، والاقتصاديات المفتوحة، والنظام الدولي في العالم[1].

يمكن القول إن العيش في اللّانظام واللامركزية تؤدي في الغالب إلى حالة من اللااستقرار، هذا ما يؤول بنا إلى تصديق مقولة: *"أن الزوال المفاجئ للهيمنة الأمريكية، يُعجل بدون شك في حدوث فوضى عالمية شاملة، تتخللها ثورات تتسم بالدمار الشامل"* [2]. ذلك هو المسوغ للهيمنة الأمريكية على العالم، الذي دأب المفكرون الاستراتيجيون الأمريكيون على نشره والدفاع عنه. وحسب اعتقادهم فإن التصادمات الأكثر حدة قد تؤدي –فيحال تراجع قوة أمريكا–إلى إشعال نار هوجاء من العنف الإقليمي، يفاقم من خطورتها انتشار أسلحة الدمار الشامل[3]. أي أن المركزية الأمريكية تضمن للعالم أمنه الدائم وتجنبه الصراع والتفكك، والذي إن حدث حتما سوف يكون مدمرا، على اعتبار تزايد امتلاك أسلحة الدمار الشامل، من هنا يتجلى لنا أثر المركز الهام والاستراتيجي، ودوره في تماسك أطراف العالم ومحيطه، وحتى وإن حدث هذا الزوال أو تراجع المركز، فإن العالم حتما سوف يبحث عن قوة أخرى تمثل مركز النظام الجديد.

إن التوجهات الاستراتيجية الكبرى للولايات المتحدة كانت تمثل بداية جديدة، لها قيمة ملهمة في تذكير العالم بدور وأهمية وجود أمريكا وضرورة الاقتداء بمبادئها ومثلها العليا، تلك المبادئ التي تأسست عليها الأمة الأمريكية الاستثنائية. إذ أدت المثالية المتأصلة في مفهوم الاستثنائية الأميركية إلى تدخل الولايات المتحدة إلى جانب دول الهامش. هذا ما تحقق في العالم المعاصر اليوم، إذ أن *"أمن عدد من الدول الضعيفة الواقعة جغرافيا بجانب قوى إقليمية كبرى، يتوقف على الواقع الدولي معززا بتفوق أمريكا العالمي. والدول التي في ذلك الموقع الهش هي النظائر الجيوسياسية الحالية للأجناس الأكثر تعرضا للخطر في الطبيعة...لذا فإن عزو التحرك المتشدد نحوها سيتصاعد بمقدار ما تتدهور مكانة أمريكا العالمية"* [4]. لأن الأمم الضعيفة التي لا تقوى على الدفاع عن نفسها أو حل قضايا الحدود والنزاع فيما بينها تكون عرضة للصراع والفوضى، إلا إذا تدخلت القوى العظمى (أمريكا أولاها)، على نحو ما حدث

[1] زبيغنيو بريجنسكي: رقعة الشطرنج الكبرى، مرجع سابق، ص 32.

[2] زبيغنيو بريجنسكي: الاختيار (السيطرة على العالم أم قيادة العالم؟)، مرجع سابق، ص 13.

[3] المرجع نفسه، ص 15.

[4] زبيغنيو بريجنسكي: رؤية استراتيجية (أمريكا وأزمة السلطة العالمية)، مرجع سابق، ص 106.

في العالم العربي من نزاعات إقليمية بين العراق والكويت سنة 1990، وبين سوريا ولبنان، وبين السعودية واليمن...وغيرها من الحروب والنزاعات في العالم.

لكن ثمة من المفكرين والباحثين من يتهم الولايات المتحدة بالغطرسة والتدخل في سيادات الدول الأخرى، باسم مقولة حفظ الأمن والسلام العالميين لأجل مصالحها الذاتية بدلاً من تعزيز الحرية والديمقراطية في العالم. لأن التدخل الأميركي في دول أخرى كان يخدم المصالح الأميركية في كثير من الأحيان، كما ارتكبت العديد من الأخطاء بتدخلاتها العشوائية والمتكررة. بالإضافة إلى أن خوض معارك بالوكالة على أراضي شعوب أخرى كان مدمراً وبعيدا عن مبدأ حفظ السلام وتكريس الأمن، الذي يكون في الغالب مجرد شعار للاستهلاك الجماهيري.

المبحث الثالث: الأسس العلمية للمركزية الأمريكية المعاصرة:

أولا: جغرافيا الولايات المتحدة وثرواتها:

تنفرد جغرافيا الولايات المتحدة الأمريكية، بتنوع طبيعي وبيئي واسع؛ فالبيئة الأمريكية متعددة المناخ، كذا تعد أراضيها أكثر الأراضي خصوبة، وملائمة للحياة والتفوق في العالم. إذ توفر تلك الملائمة ثراء واستزادة في الفاعليات والأنشطة البشرية، ذلك لأنها تحظى بوفرة ظروف طبيعية ومناخية معينة. وعلى نحو مماثل، قليلة هي الدول التي تضاهي التنوع المناخي والطبيعي للولايات المتحدة، لهذا نجد أن أمريكا تحتفظ بالعديد من الأرقام القياسية العالمية في مجال الثروات الباطنية. وقد أبدى الكاتب الأمريكي Charles F. Gritznerإعجابه بالأراضي الأميركية قائلا: "الولايات *المتحدة الأمريكية حقا أرض جميلة ووافرة ومباركة بطرق لا تحصى حسب الطبيعة، الثقافة، والتاريخ. وهي أيضا دولة ذات أبعاد طبيعية وثقافية مميزة. لقد مرت الولايات المتحدة على مر الوقت بعدد من المشقات وبقيت على قيد الحياة*" [1].

لقد ساهمت الجغرافيا الأمريكية في ازدهار وتطور البلاد، وتعزيز النمو الاقتصادي والصناعي والاجتماعي فيها، بفعل المساحات الشاسعة من الأراضي الخصبة، والثروات الباطنية المتنوعة من المعادن كالذهب، والطاقة مثل النفط وموارد طبيعية مثل الأخشاب، والتبغ...وغيرها. هذا و"*تحتل الولايات المتحدة الأمريكية المركز الثالث بين بلدان العالم من حيث مساحتها الداخلية البالغة 3.8 مليون ميل مربع أي (9.826.630 كيلومترا مربعا) تقريبا. ورغم أن دولًا مثل روسيا وكندا أكبر حجما، إلا أن القسم الأعظم من أراضيهما الشاسعة يقع في مناطق تتسم بالمناخ القاسي المعيق*

[1] Charles F. Gritzner : Op cit, p8

للتطور في الشمال" [1]. وقياسا بنفع أرض أميركا على الأميركيين، لم تحفل أرض جارتها كندا، بنمو وتطور مثل الذي عرفته الولايات المتحدة، لأنها لم تحظى بثروات وموارد مثل التي تحوزها لأميركا. فقد كانت تعوزها الحاجة إلى أنهار وتضاريس ميسرة لاستثماراتها التنموية، وكذا بسبب كثرة الجبال التي تحد كثيرا من حرية التنقل والحركة، بالإضافة إلى شدة برودة طقسها، وما يصحبه من تراكم الثلوج المستمرة طوال السنة. أما أمريكا، ففيها وفرة أنهار مثل رابع أطول نهر في العالم "نهر المسيسبي"، الذي يعد معلما جغرافيا في القارة الجديدة، له العديد من الروافد تجعله أفضل وسيلة للتنقل؛ مصب نهر المسيسبي في خليج المكسيك، وأنشأت على شواطئه مدينة، نيو أورليانزNew Orleans من قبل الفرنسيين.

وقد أنبأتنا الكتب التي تروي رحلة الاستكشاف التاريخية إلى العالم الجديد، التي قام بها البحار الإيطالي كريستوفر كولومبوس (1451-1506)Christopher Columbus، أنه قد رافقه في تلك الرحلة فئة من البحارة، الباحثين عن الذهب، وقد كان الذهب بالنسبة إليهم هو الحافز لبلوغ وعبور المحيط الأطلسي، وكانت غايتهم نقل الثروة إلى أوروبا ونفس الهدف كانوا يتقاسمونه مع حكام إسبانيا[2]. *"لقد عثر المستوطنون الأوروبيون الساعون إلى اغتنام الفرص على أرض ذات مساحات ضئيلة من الأرض، تقدم مساحة وموارد وإمكانات حقيقية. وفي غضون قرون عديدة، بعد حلم المصير الواضح، توسع الأوروبيون في كل أنحاء القارة إلى شواطئ المحيط الهادئ. ولكن من المؤسف أن هذا التطور المبكر لم يخل من جانب مظلم للغاية. وقد تحقق ذلك على حساب السكان الأصليين من الهنود الأمريكيين، وكان جزء كبير من التنمية الاقتصادية المبكرة في الجنوب يستند إلى عمل الرقيق الأفارقة. وقد ساهمت هذه الممارسة البغيضة في نهاية المطاف في الحرب الأهلية المأساوية والدموية بين الشمال والجنوب"* [3].

وتبعا لذلك أسهمت الجغرافيا أيضا، في استقرار الولايات المتحدة الأمني، لأنها كانت محمية بحريا من أي غزو، بالإضافة إلى أن الدول المجاورة لها (كندا والمكسيك) كانتا دولتان ضعيفتان، بل إن أمنهما مرتبط بأمن الولايات المتحدة وقدراتها، خاصة العسكرية، إذ أن *"أمن عدد من الدول الضعيفة الواقعة جغرافيا بجانب قوى إقليمية كبرى، يتوقف على الواقع الدولي معززا بتفوق أمريكا العالمي. والدول التي في ذلك الموقع الهش هي النظائر الجيوسياسية*

[1] Charles F. Gritzner : Op cit, p p 8,9.

[2] تزيفتان تودوروف: فتح أمريكا ومسألة الآخر، تر بشير السباعي، دار سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1992، ص 15.

[3] Charles F. Gritzner, Op cit, p10.

الحالية للأجناس الأكثر تعرضا للخطر في الطبيعة...لذا فإن عزو التحرك المتشدد نحوها سيتصاعد بمقدار ما تتدهور مكانة أمريكا العالمية" [1].

إن غنى أمريكا ـ بلا شك ـ لا ينحصر عند حدود الهبات الطبيعية والجغرافية، بل اتجهت نحو التوسع واحتلال المناطق الاستراتيجية في العالم عملا "بمبدأ ماهان"، الذي أكد فيه على دور وأهمية القوة البحرية في بناء إمبراطورية عظمى، مستدلا بالبحرية البريطانية التي هيمنت على البحار. *"اعتقد ماهان بأن الدولة يجب أن تتوسع أو تضمحل، وأنه لا توجد دولة تستطيع أن تحتفظ برفعتها إذا بقيت ساكنة دون حراك، كما رأى أن الولايات المتحدة ستصبح قوة عالمية في المستقبل، ولذا كان متحمسا وداعيا لزيادة قوتها البحرية بالشكل الذي تتماشى به مع مصيرها الامبريالي"* [2]. وعندئذ تماهت الجغرافيا الطبيعية لأمريكا مع الجغرافيا السياسية (الجيوبوليتيك)* لها؛ فبعدحرب الاستقلال سنة 1776م، انطلقت الولايات المتحدة في طريق القوة في ظل الدستور الفيدرالي سنة 1787م، وبنت أسطولا حديث التجهيز والتسليح. هذا الشعور المتنامي بالقوة لأمريكا جعل ساستها يؤمنون بقدرتهم على غزو البحار وتوسيع تجارتهم شمالا وجنوبا، وشن الأمريكيون في سبيل تأسيس إمبراطوريتهم حروبا توسعية عنيفة مع المكسيك واسبانيا، وحرضت سكان بنما للثورة على كولومبيا، واقتطع الأمريكيون من المكسيك ثلاثة مناطق واسعة جدا هي تكساس وكاليفورنيا ونيومكسيكو. بالإضافة إلى جزيرة "غوام" و"مضيق بنما"[3]. الساسة الأمريكان لهم فضل على تفرد السياسة الأميركية

---

[1] زبيغنيو بريجنسكي: رؤية استراتيجية (أمريكا وأزمة السلطة العالمية)، مرجع سابق، ص 106.

[2] عبد المنعم عبد الوهاب: جغرافيا العلاقات السياسية (دراسة تحليلية وتطبيقية لعلم الجيوبوليتكس)، وكالة المطبوعات، الكويت، دط، دس، ص 170.

* تستمد الجيوبوليتكس مادتها من مصادر مختلفة فهي تستعين بالدراسات الأكاديمية المتعلقة بالجغرافيا السياسية والتاريخ كما تغرف من المبادئ الاستراتيجية العسكرية، سواء ما تتناول منها القوات البرية أو البحرية أو الجوية. ومن أوائل الكتب التي تناولت وجهة نظر رجل البحر الكتاب الذي نشره سنة 1890 الأدميرال الأمريكي ألفرد تهاير ماهان 1840-1914 (Alfred Thayer Mahan) بعنوان أثر القوة البحرية على التاريخ. نقلا عن عبد المنعم عبد الوهاب: جغرافيا العلاقات السياسية (دراسة تحليلية وتطبيقية لعلم الجيوبوليتكس)، وكالة المطبوعات، الكويت، دط، دس، ص 170.

[3] في جنوب العالم، كانت الجزائر في تلك الفترة ملكة البحار في المتوسط والمحيط الأطلسي، إلا أن نزوع الهيمنة الأمريكية على العالم أفضى في مارس من سنة 1815 إلى إقلاع قوة أمريكية بحرية كبيرة اتجاه الجزائر، تمكنت من خلالها هزيمة الأسطول البحري الجزائري وقتل فيها القائد البحري العظيم "حميدو". هذا الانتصار الكبير في عرض البحر مكّن الأمريكيين من التخلص من شروط المعاهدة التي كانت تمليها عليهم البحرية الجزائرية، ما جعل المفاوضات تميل إلى صالحهم، وأصبحت تنص المعاهدة الجديدة على إلغاء الضريبة الأمريكية، وتحرير الأسرى الأمريكيين بدون فدية، وتحتم على الجزائر آنذاك دفع تعويض قدره عشرة آلاف دولار مقابل استيلائها على

بالعظمة، استثمروا كثيرا في مجال البحرية ودراسة المواقع الاستراتيجية العالمية، التي ما إن سيطروا عليها سيُحكمون قبضتهم على العالم.

بداية العمل على تحقيق هذا الهدف كانت بالحرب مع اسبانيا على كوبا، إلى غاية استرجاعها سنة 1898م، وهو مكسب استراتيجي لأمريكا من عدة جوانب منها، تطبيق مبدأ مونرو، القاضي بمنع أي تدخل أوروبي، وضمان السيطرة على نصف الكرة الغربي كاملا تحت الهيمنة الأمريكية. ثم الحصول على عدة جزر منها كوبا، والفيليبين، وغوام Guam، التي أصبحت من أهم القواعد الاستراتيجية في المحيطين الأطلسي والهادئ. كانت هذه الجزر تابعة لإسبانيا. ولكن بعد هزيمتها باعتها هذه الأخيرة في معاهدة باريس. *إذ "بعد انتهاء المعارك وخسارة اسبانيا للحرب، بدأت المفاوضات الخاصة بعقد معاهدة بين الطرفين في باريس سنة 1898م لوضع شروط الصلح بين الطرفين. وبموجب هذه المعاهدة تنازلت إسبانيا عن بورتوريكو وجزيرة غوام Guam للولايات المتحدة، كما اشترت جزر الفلبين من اسبانيا بمبلغ قدره عشرين مليون دولارا، وبسطت حمايتها على كوبا بعد سنتين من استقلالها"*[1]. تعتبر اليوم جزيرة غوام أكبر قاعدة بحرية استراتيجية، تنفق عليها الحكومة أكثر من 600 مليون دولار سنويا، إلا أنها ليست تابعة لأية ولاية، سكانها لا يحق لهم التصويت في الانتخابات الرئاسية، ودخولهم إلى أرض الو.م.أ يحتاج إلى أوراق وتصريح خاص، ومن خلالها تسيطر على كافة مناطق الشرق الأقصى. وهي بمثابة رادع حقيقي أمام الصين وروسيا، إنها القاعدة التي ترتكز عليها أمريكا لحماية نفسها، ضد أي هجوم يهددها، تبعد عن أمريكا أكثر من 10 آلاف كلم، وعن الصين 3 ألاف كلم[2].

بالإضافة إلى مضيق بنما، أقصر الطرق لربط الشرق والغرب، نظرا لصعوبة تضاريس الو.م.أ، بنما هي أضيق أرض في كلا القارتين، وحلم ربط المحيطين الأطلسي والهادئ، كان يراود مخيلة كثيرين منذ اكتشافها. إذ *"تنبع أهمية بنما من كونها مركز مواصلات ونقل تجاري، حيث يتحكم مضيق بنما الذي يفصل بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي*

سفينة أمريكية. هذه الحادثة التاريخية تنبأ بقدوم دولة عظيمة أخرى تصنع أمجادها خارج أسوارها، فكان ميلاد المركزية الأمريكية الذي وصل إلى قبالة السواحل الإفريقية من بوابة الجزائر. نقلا عن مذكرات وليام شالر (قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824): مذكرات وليام شالر، ترجمة إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص ص 5-8.

[1] خالد حوران الدليمي: ثيودور روزفلت وسياسة الولايات المتحدة الأمريكية(1901-1909)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2014، ص 56.

[2] مسعود الخوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية (المناطق، الدول، البلدان)، دار رواد النهضة للطباعة والنشر والتوزيع، مج13، 1994، ص 153.

بالقرب من الجزء الأوسط من نصف الكرة الغربي، وعبر المضيق تمر قناة بنما لتصل بين المحيطين. وتمر اليوم عبر القناة آلاف السفن كل عام، وعلى هذا الأساس فإنها تؤدي دورا رئيسيا في نظام النقل العالمي"[1]، أما الفائدة التي جنتها أمريكا منها عظيمة، إذ تقلصت الرحلة بين الساحلين الشرقي والغربي من 4 أشهر برا. ومن حول كامل القارة مرورا بالقطب الجنوبي 6 أشهر، إلى أقل من شهرين عبر قناة بنما. أما الامبريالية القديمة التي تبناها الأوروبيون فكانت تقوم على الحصول على الموارد الطبيعية للبلدان المستعمرة والعودة بها إلى قلب الإمبراطورية. *"في عام 1849م كانت توجد ثلاث طرق للوصول إلى كاليفورنيا من شرق الولايات المتحدة. أولها الطريق البري وهي رحلة عسيرة تستغرق ستة أشهر وتمر عبر أراض غير مستقرة، وفي بعض الأحيان معادية. وثانيها العبور حول كيب هورن بالسفن، وهي رحلة تستغرق ستة أشهر. وتتسم هذه الرحلة بأنها عادة أكثر راحة لكنها أغلى. وثالثهما المرور عبر مضيق بنما... ومن الناحية النظرية يمكن للرحلة عبر مضيق بنما أن تستغرق سبعين يوما"*[2]. هكذا تحقق حلم تيودور روزفلت بأمركة العالم، وذلك بالحرب على كل من اسبانيا وكوبا.

لقد أبانت أميركا عن نزوعها التوسعي الإقليمي منذ اعتزم الأمريكيين–عند نهاية منتصف القرن التاسع عشر–عندما شنوا الحرب قصيرة المدى، التي خاضوها على مدى عامين بين 1846–1848 مبررين هذه الحرب التوسعية، المعروفة بمبدأ: المصير المحتوم manifest destine، معتبرين أن هذه الحروب هي قدر محتوم لأمريكا، ومنطوق هذا المذهب أنه: قد كتب علينا القدر لا القوانين الوضعية ولا القانون الدولي أن ننشر بمشيئة الله مذهبنا ونظام فيدراليتنا على أراضي أمريكا كلها. لقد كانوا يقصدون أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، أي قارة أمريكا اللاتينية كلها، على هذا النحو وبحسب مبدأ حتمية المصير هذا لا استنادا إلى حق مشروع ما، كانوا قد برروا الحرب ضد المكسيك، وعندما كان يقال لهم على سبيل المثال أنتم تنتهكون الحقوق والقوانين الدولية، كانوا يردون بالقول: وما شأن الحقوق والقوانين الدولية بذلك، نحن نحتكم لحكم الأقدار وحتمية المصير...هكذا اقتطعوا تلك المناطق من المكسيك[3].

ثانيا: النظام المالي الجديد

1- اتفاقية بريتون وودز، الدولار عملة العالم:

[1] حسام الدين إبراهيم عثمان: موسوعة دول العالم، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2012، ص 41.

[2] جون ستيل جوردون: إمبراطورية الثروة (تاريخ ملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكي)، ترجمة محمد مجد الدين باكير، المجلس الوطني للثقافة (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، 2005، ص 203.

[3] فلاديمير سوغرين: الجذور الدينية والفكرية لعقيدة الهيمنة الأمريكية العالمية Pax Americana، حوار لقناة RT بالعربية، 2017/06/21

برزت الولايات المتحدة باعتبارها القوة المالية، والاقتصادية، والعسكرية الرائدة على مستوى العالمفعليا بعد الحرب العالمية الأولى، وتعزز بروزها أكثر بعد الحرب العالمية الثانية. وما تلتها من أحداث اقتصادية وسياسية كاستقطاب العقول والكفاءات وهيمنتها على المال والاقتصاد العالميين. ومن تلك الأحداث، ما خلصت إليه الاتفاقية المنبثقة عن الاجتماع الهام في منطقة بيرتون وودزBretton Woods، لقد *"جاءت اتفاقية بريتون وود لتعبر عن مصالح القوة الاقتصادية الدولية الصاعدة للولايات المتحدة التي خرجت من الحرب العالمية الثانية باعتبارها قائدة العالم الرأسمالي المتقدم، واحتلت بذلك المكانة التي كانت تشغلها بريطانيا العظمى قبل الحرب العالمية الأولى. ولذا فاتفاقية "بريتون وودز" جاءت كرد فعل للفوضى النقدية والتقلبات العنيفة في أسعار الصرف التي شاعت في فترة ما بين الحربين"*[1]. لقد أصبحت أمريكا بعد هذا الاجتماع رائدة الامبريالية الحديثة في القرن العشرين. كان اجتماع (بريتون وودز) يهدف إلى وضع نظام نقدي دولي جديد أساسا لكل نظام جديد في العالم: سياسيا، مثل الأمم المتحدة، واقتصاديا مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية. *"اتفاقية بريتون وودز* ***Britton Woods*** *تم توقيعها في شهر يوليو عام 1944، وكان الهدف من تلك الاتفاقية هو وضع إطار وقواعد جديدة للسلوك النقدي الدولي لملء الفراغ الذي نشأ بعد تصدع قاعدة الذهب. والتي ثبت فشل كافة الجهود المبذولة للرجوع إليها في أعقاب الحرب العالمية الأولى"*[2].

اعتمد المؤتمر نظاما نقديا يقوم على أساس قاعدة الصرف بالدولار الذهبي، ليتحول الدولار من عملة محلية إلى عملة دولية ومركزية، وأصبح على كل دولة عضو في صندوق النقد الدولي الذي أسس بعد المؤتمر أن تحدد قيمة تبادل عملتها بالنسبة إلى الذهب، أو الدولار الأمريكي، وبات الدولار الواحد يعادل 0.88671غ (أوقية) من الذهب الصافي. *"بعد الحرب العالمية الثانية، بدأت مرحلة جديدة عرفت بنظام "بريتون وودز" 1946، ثبت من خلاله أسعار صرف العديد من عملات دول العالم بالدولار، وثبت تحويل الدولار إلى الذهب عند مبلغ 35 دولار للأوقية"*[3]، لقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية أنها تملك قيمة الذهب بالدولار، وأن كل دولة تستطيع أن تحول الدولار إلى الذهب. تطمينات عديدة أرسلتها واشنطن إلى العالم. تحول بموجبها قانون بريتون وودز إلى قانون مالي دولي رسمي.

---

[1] محمود عبد الفضيل، النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، 1979، ص 48.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] ماثيو هارت: الذهب (التنافس على أكثر معادن العالم إغراء)، تر محمد مجد الدين باكير، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، 2018، ص 15.

استمر العمل بهذا القانون، إلى غاية نهاية 1971م، عندما فجر الرئيس الأمريكي "ريتشارد نيكسون" Richard Nixon(1913-1994)،مفاجئة عالمية، حيث أعلن وقف قابلية تبديل الدولار بالذهب، ليضع العالم أمام "صدمة" وهزة عالمية لم تحدث من قبل، إذ تحولت احتياطات الدول إلى لا شيء، حيث *" ألغي تحويل الدولار إلى ذهب، وخرج الذهب من دائرة النظام النقدي وبدأ عهد العملات القانونية، التي اعتبرت طباعتها حقا سياديا للدولة، ولها أن تصدرها وفق الحاجة، من دون التوسع المفرط خشية ارتفاع مستويات التضخم في الاقتصاد"*[1].لقد بدأت مرحلة جديدة في العلاقات الاقتصادية الدولية، حيث حل الدولار محل الذهب كعملة مركزية التي يرتكز إليها النظام النقدي الدولي، وأصبح الدولار الأمريكي وسيلة دفع رئيسة في المعاملات الدولية، وعملة احتياط ارتكازي تحتفظ بها السلطات النقدية في معظم بلدان العالم. وبهذا أصبحت الولايات المتحدة مع مرور الوقت بنك العالم، والمصدر الرئيسي للسيولة الدولية، بما يتوافق مع متطلبات نمو الطلب الفعال والإنتاج على الصعيد العالمي، أي أن الدولار الأمريكي أصبح نقودا دولية.

2-صندوق النقد الدولي:

تأسس صندوق النقد الدولي بموجب اتفاقية "بريتون وودز" سنة 1944م، بغرض مساعدة الدول المتضررة من جراء الحرب ومساعدتها على النهوض، وتجنب الأزمات الاقتصادية الكبرى. ويعد صندوق النقد الدولي المؤسسة المركزية في النظام النقدي الدولي، لقد *"كانت أول مهمة يضطلع بها الصندوق تكمن في إمعان النظر في وضع جميع الدول المشاركة، وذلك بغية تحديد إسهامات الدول الأعضاء في رأسمال الصندوق. فبحسب ما هو متفق عليه، فإن الصندوق مطالب بأن يمارس وظيفة رقابية لضمان استقرار النظام في الأمد الطويل"*[2]. مصدر الأموال في صندوق النقد هي الأموال المودعة للدول الأعضاء، فكل دولة تساهم بالحصة التي تريدها، وحسب سياسته، فإن الدولة التي تعطيه أكبر كمية من الأموال، هي من تؤثر في قراراته به، وأكبر الدول مساهمة هي الولايات المتحدة الأمريكية. ولهذا كانت توجه قراراته لمصالحها وحماية اقتصادها؛ وعدم تمكين الدول النامية والمدينة للصندوق بحماية اقتصادها الوطني. فبعد تطبيق قاعدة الصرف بالذهب، -بمقتضى هذه الاتفاقية (بريتون وودز) -تم تحديد القواعد التي يتم على أساسها تحديد أسعار صرف عملات الدول المختلفة في أسعار صرف ثابتة. حيث تم تثبيت سعر صرف الدولار عند سعر

[1] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[2] أرنست فولف: صندوق النقد الدولي (قوة عظمى في الساحة العالمية)، تر عدنان عباس علي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، 2016، ص 27.

35 دولار أمريكي لأوقية الذهب. "*ومن خلال تثبيت أسعار صرف كل العملات مقابل الدولار الأمريكي، حجبت الولايات المتحدة الأمريكية، عن باقي المشاركين في النظام النقدي الجديد، حق توجيه سياساتها النقدية بالنحو الضروري لحماية صناعاتها الوطنية. ولا يشط المرء أبدا، إذا أكد أن هذه التدابير الأمريكية قد كانت أول خطوة على طريق تقييد سيادة بقية دول العالم، هذا العالم الذي أمسى الآن يخضع كلية لهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية*"[1].

يقع مقر صندوق النقد الدولي في واشنطن، عدد أعضائه 189 دولة، يتكون من مجلسان، المجلس التنفيذي ومجلس المحافظين، يمنح الصندوق حق الفيتو للدولة المانحة صاحبة الحصة الكبيرة. كما يوجد تفاوت كبير في توزيع الحصص بين الدول. لهذا يتأثر الصندوق دوما بما يحدث في أمريكا (كونها صاحبة أكبر حصة في الصندوق)، وكذلك بسبب ربط عملات كل الدول بالدولار. عرفت بنوده تعديلات كثيرة، حددت أهدافه على أساسها، إذ "*وبحسب اتفاقية تأسيس الصندوق، تتمثل أهدافه في: -تشجيع التعاون الدولي في ميدان السياسة النقدية-تيسير التوسع والنمو في التجارة الخارجية-العمل على تحقيق الاستقرار في أسعار الصرف، والمساعدة على إقامة نظام مدفوعات متعدد الأطراف-تدعيم الثقة بين البلدان الأعضاء وإتاحة الفرص لها، لأن تستخدم موارده العامة مؤقتا بضمانات كافية، كي تتمكن من تصحيح الاختلالات في موازين مدفوعاتها*"[2].وموازاة مع هذه الأهداف التي ترتجيها الولايات المتحدة الأمريكية، فإن ثمة من المبادئ الأساسية لصندوق النقد الدولي، ما يؤدي إلى ضمان النمو الاقتصادي للدول، الذي يتحقق مع حرية السوق المطلقة. وبالتالي نجده يدعو إلى إيقاف تدخل الدول في الأسواق المحلية. وذلك عن طريق بعض السياسات والإجراءات للدول المدينة له، والتي تعاني من مشكلات اقتصادية، منها: خفض قيمة العملة الوطنية، أو زيادة الضرائب والرسوم، أو ترشيد أنفاق الحكومة وإلغاء الدعم الحكومي عن السلع والخدمات. وبيع شركات القطاع العام للقطاع الخاص، تخفيض العمالة في القطاع العام، ورفع أسعار الخدمات العامة، وإلغاء الدعم عن الغذاء والمحروقات. أو ما يعرف بسياسة التقشف...وغيرها من الإجراءات[3]. لهذا نجد عديد الدول تنظر بعين الريبة لهذه الهيئة المالية العالمية، وتعتبرها مدمرة للطبقة المتوسطة والفقيرة في المجتمع. بالإضافة إلى أنه يكرس الهيمنة الأمريكية على العالم، وهو من وجهة نظر البعض، "*إحدى المؤسسات التي أنشأتها الولايات المتحدة الأمريكية، لتفرض ليس هيمنها العسكرية فحسب، بل هيمنتها الاقتصادية أيضا على العالم، فهي الدولة التي رسمت خطوطه العريضة بما يخدم*

[1] أرنست فولف، مرجع سابق، ص 26.

[2] المرجع نفسه، ص 29.

[3] رمزي محمود: خدعة الديون، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، ط1، 2019، ص 187.

مصالحها الخاصة. ومن أجل ذر الرماد في عيون الرأي العام، وتحويل الأنظار عن هذه الأهداف والنوايا، استحدث المؤسسون الأوائل لصندوق النقد الدولي في العام 1947، تقليدا تمسكت المؤسسة بانتهاجه حتى يومنا الحاضر: وهو إسناد قيادة الصندوق لشخصية غير أمريكية" [1].

[1] أرنست فولف، مرجع سابق، ص 30.

ثالثا: مؤسسات الابتكار والتكنولوجيا

تتميز الصناعات العسكرية والتكنولوجية الأمريكية بالتنوع، وتشمل صناعة الالكترونيات، الدروع والأجهزة البصرية الالكترونية، الصواريخ والفضاء، القذائف والمتفجرات، والاتصالات، والمواد الكيميائية، والرادارات وأجهزة الكومبيوتر...وغيرها وزّد ذلك هو الاهتمام الأمريكي البالغ بتمويل تلك الأبحاث، وإنشاء مراكز التطوير التكنولوجي، إذ "يفوق الإنفاق الأمريكي على البحث والتنمية، إنفاق عديد من دول العالم بهامش بالغ الاتساع، *بنسبة 2.81 في المائة من إجمالي الناتج المحلي،-تتقدم عليها اليابان وكوريا الجنوبية وفنلندا-، إلا أن النسبة في الصين أقل منه إذ تبلغ 1.77 في المائة. بيد أن الولايات المتحدة تحتل المركز الأول فيما يتصل بحصة كل دولة من الإنتاج العالمي للتقنيات العالمية (بلغت 39 في المائة عام 2003). والولايات المتحدة هي الأولى أيضا من حيث تسجيل براءات الاختراع والدرجات العلمية في مجالات العلوم والهندسة"*[1]. كما تعتبر الولايات المتحدة رائدة في كبرى الصناعات التكنولوجية منذ زمن طويل، وهي صناعة الرقائق الالكترونية المصغرة (Micro-électroniques)، حيث شكلت الولايات المتحدة مصدرا أساسيا لتكنولوجيا النانو*؛ "*لقد استقطب مجال تكنولوجيا النانو، عددا كبيرا من الشركات الصناعية الكبرى في العالم، اللاهثة وراء تحقيق مكاسب اقتصادية ضخمة لاستعادة أوضاعها المالية وتثبيت نفوذها في بورصات الأوراق المالية. ومن المنتظر أن يمثل اقتصاد تكنولوجيا النانو قوة هائلة تفوق في حجم استثماراتها مجموع حجم الاستثمارات العالمية في كل الصناعات مجتمعة"*[2]. وفيما يلي نموذج للمقدرات التكنولوجية والعسكرية التي تُصنف فيها أمريكا رقم واحد عالميا:

1-الرقائق الالكترونية:

الرقائق الالكترونية أو أشباه الموصلاتélectronic chips هي رقائق صغيرة جدا ودقيقة الحجم تدخل في صناعة أغلب الآلات والمعدات الموجودة في العالم المزودة بنظام حاسوبي، مثل الأجهزة الالكترونية، المصاعد، الأنوار، الكاميرات، الساعات، الهواتف الذكية، الحواسيب، السيارات، الطائرات المدنية والحربية، والأسلحة الموجهة والشبكات

[1] يورغ سورنسن: إعادة النظر في النظام الدولي الجديد، تر أسامة الغزولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، 2020، ص 128.

* تقنية النانو، هي مجال للعلوم التطبيقية والتكنولوجية، تغطي مجموعة واسعة من الجوانب العلمية والهندسية، وكل ذلك يدور حول السيطرة على أي أمر في حجم أصغر من الميكروميتر، غن مصطلح النانو يعني الجزء من المليار، فالنانو متر هو واحد على المليار من المتر. أما علم النانو فيعني دراسة المبادئ الأساسية للجزئيات والمركبات التي لا يتجاوز قياسها 100 نانو متر. نقلا عن محمد هاشم البشير محمد: مخاطر تكنولوجيا النانو، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2012، ص ص 17،19

[2] محمد شريف الاسكندراني: تكنولوجيا النانو (من أجل غد أفضل)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، 2010، ص 274.

المعلوماتية والعاب الفيديو...إلخ، يبلغ حجم سوق الرقائق الالكترونية 430 مليار دولار، الصين وحدها تستهلك حوالي 60%، من الإنتاج العالمي من أشباه الموصلات، كما تستورد منها سنويا 2000 مليار دولار لتشغيل أجهزتها الذكية. لهذا تعد الرقائق الالكترونية، سلاح القرن الواحد والعشرين. تنفرد بامتلاكها وتصنيعها شركات قليلة جدا في العالم كلها تتبع الولايات المتحدة الأمريكية، على الرغم من انتشارها في أكثر من بلد، هي أساس الازدهار التكنولوجي والاقتصادي والعسكري في العالم، وكانت سببا في هيمنة الو.م.أ على قطاعات عديدة في العالم. *"تحتل الولايات المتحدة الأمريكية الصدارة من حيث صادراتها من الآليات التكنولوجية العالية الدقة التي تصل إلى حوالي 150 مليار دولار سنويا، فالشركات الأمريكية تتحكم في حوالي 73 بالمائة من صادرات الصناعة المعلوماتية، وحوالي 75 بالمائة من المبيعات المرتبطة بالصناعات الفضائية وصناعة الطيران المدني والعسكري"*[1]. بلغت قيمة مبيعات هذه الرقائق خلال سنة 2021م، نصف ترليون دولار وتعد السابقة الأولى على الإطلاق.

لقد كان الأمريكيون حتى ثمانينيات القرن الماضي ـ رواد هذه الصناعة التي أطلقت ثورة تكنولوجية هائلة نشهدها اليوم، غير أن أمريكا وجدت عبئا في الحفاظ على هذه الصناعة واحتكارها، فلجأت إلى دعم دول أخرى تشاركها هذه الثروة، وهي دول تنضوي تحت لوائها، كتايوان واليابان وكوريا الجنوبية. وتحرص الولايات المتحدة ألا تتاح هذه الصناعة للدولة المنافسة لها كالصين وروسيا، وتعمل جاهدة للحماية والدفاع عن الدول التي تحتضن شركات ومصانع الرقائق الالكترونية، مثل شركة TSMC التايوانية. قد نتساءل لماذا لا تعمم هذه الصناعة؟ ببساطة لأن الولايات المتحدة تسعى بكل قدراتها منع انتشار هذه السلعة في العالم، بالإضافة إلى التكلفة الباهظة جدا والدقة المتناهية أكثر التي تلزمها حتى تُصنّع، لأنها تتعامل بتكنولوجيا النانو. وهذه التكنولوجيا غير متاحة إلا لعدد قليل جدا من دول العالم، كما تحتاج عقولا وكفاءات نادرة. فهي ليست منتج يمكن تقليده ومحاكاته، وهامش الخطأ بها لا يمكن تجاوزه.*لقد تمكنت صناعة أشباه الموصلات خلال هذه الفترة من تطوير رقائق إلكترونية أكثر قوة واستحداث تكنولوجيات جديدة للتصنيع وتصميم دوائر متكاملة وتحقيق الاستقرار في عمليات التصنيع. وقد ساعدت هذه النتائج التي تحققت بفضل جهد جماعي يشمل الشركات والجامعات والمختبرات العامة شركات أشباه الموصلات على*

[1] بشير عبد الفتاح: أزمة الهيمنة الأمريكية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، ط1، 2010، ص 49.

إنتاج عشرات المليارات من رقائق أشباه الموصلات الإلكترونية التي تتسم بالتعقيد الشديد[1].أشباه الموصلات أدت إلى ظهور صناعة الإلكترونيات في وادي السيليكون[2].

ورغم أن الصين أصبحت مرجعا للتكنولوجيا العالمية، بقيادة الشركات المحلية العاملة في مجال التكنولوجيا الرقمية، مثل (Baidu, Alibaba, Tencent et Xiaomi)، إلا أنها تواجه صعوبة كبيرة في فرض نفسها على صناعة أشباه الموصلات. صحيح أن الصين تقترب من أوروبا والولايات المتحدة اللتين تنتجان 10 و12 في المائة من أشباه الموصلات في العالم على التوالي ولكن الدولة الصينية لا يوجد بها عملاق عالمي ضخم في هذا القطاع. وفي الوقت الذي تعتبر فيه جزيرة تايوان على بعد أقل من 200 كم من الساحل الصيني مهد شركة TSMC وهي أول متعاقد تجاري في العالم في تصنيع رقائق الكمبيوتر والذي من المتوقع أن يستثمر 36 مليار يورو فقط لعام 2022م. لهذا كانت الرقائق الالكترونية سببا في الأزمة بين أمريكا والصين في عهد الرئيس ترامب Trump، وبسبب التوترات بين الولايات المتحدة والصين، وضعت إدارة ترامب الشركات الصينية على القائمة السوداء لصادرات الرقائق الالكترونية في سنة 2020م، كوسيلة ضغط على الصين. وعلى هذه الخلفية فإن بكين تحاول رد الفعل نحو العودة إلى السباق، وتعتزم الصين في هذا الصدد إنتاج 70 في المائة من الاستهلاك المحلي السنوي للمكونات الإلكترونية مقارنة بنسبة 15 في المائة في الوقت الراهن. حتى عام 2025م. بيد أن العقوبات التي تفرضها الولايات المتحدة على الصين تعرقل الطموحات الصينية لأنها تعاقب العديد من الدول الأخرى التي تتمتع بثقل ثقيل عن الصين[3].ربما هذا ما يفسر صراع الصين وأمريكا حول تايوان (جزيرة الكنز). فالصين تسعى جاهدة لضم الجزيرة التي تحوي هذا الكنز، والذي قد يجعل الصين الدولة الأولى عالميا.

إن أمثال هذه المعارك المتوقعة قد تسفر عن عودة كبيرة للوراء للطرف الخاسر. ولنا أن تتخيل مقدار الهلاك والخسران العالمي الذي سينجم عن فقدان هذه الرقائق، التي هي أساس كل شيء، فقد كانت صناعة الإلكترونيات الدقيقة في واقع الأمر تتسم بالمنافسة القوية بين الشركات. ليس من حق الشركات أن ترتكب خطأ. فالاستثمار في التكنولوجيات ذات المستقبل القصير أو المشاكل المتصلة بالمواد والعمليات الصناعية قد أدى إلى توقف الكثير من

[1] Christophe Lecuyer Hyungsub choi, Les secrets de la Silicon Valley ou les entreprises américaines de microélectronique face à l'incertitude technique, Revue d'histoire moderne & contemporaine, Vol 3, n° 59, 2012, p50.

[2] Michael H. Hunt: The American ascendancy: how the United States gained and wielded global dominance, The University of North Carolina Press, USA, 2007, P133.

[3] Maxence Fabrion : La Chine et la difficile conquête du marché mondial des semi-conducteurs, Publié le 09/05/22, à 18h22, https://www.lesnumeriques.com

هذه التكنولوجيات. وعلى العكس من ذلك فقد أتاحت خيارات تقنية جيدة للشركات الأخرى أن تفرض نفسها على منافسيها وأن تكون لها حصة كبيرة في السوق[1].

2-المجمع الصناعي المدني (واد السيليكون):

وادي السيليكون Silicone Valley، اسم لمنطقة التكنولوجيا العالية في سان فرانسيسكو، الواقعة على الخليج الجنوبي لكاليفورنيا، اكتسبت هذه المنطقة شهرتها من وجود عدد كبير من المطورين والمنتجين في مجال أعمال التقنية العالية، ويعد (الوادي) القطاع الأول في تطوير الاختراعات الجديدة في مجال التقانة المتطورة. يتصف هذا الوادي ببنية تحتية فائقة التطور، وطاقات بشرية استثنائية، ويضم شركات التقنية العملاقة في العالم، ويعتبر واد السيليكون عاصمة التكنولوجيا في العالم، حيث تقع فيه مقرات كبرى الشركات مثل آبل، فايسبوك، وغوغل وغيرها، ويستقطب أفضل العقول وخبراء التكنولوجيا من شتى أنحاء العالم، ليكون بذلك مركز العالم الجديد. لقد كان وادي السيليكون *"في أربعينيات القرن العشرين عبارة وادي زراعي جميل يقع عند القلب الجنوبي لخليج سان فرانسيسكو، وكان يعرف بمقاطعة سانت كلارا، ويمتد من "بالو ألتو" في الشمال إلى "غليراي" في الجنوب. يمتد وادي السيليكون على مساحة قدرها 241 ألف كيلومتر مربع ويعيش فيه حوالي 2،5 مليون شخص، ويشكل التجمع الأكثر كثافة لأعمال التقنية العالية المستوى على وجه الأرض"*[2]. في ذات المنطقة كانت توجد أعرق الجامعات الأمريكية وهي جامعة ستانفورد، والتي ركزت منذ تأسيسها على البحث العلمي ومساعدة الطلاب على تأسيس مشاريعهم الخاصة. ففي تسعينيات القرن الماضي أسس عميد جامعة ستانفورد بريدج، فريديك ترمانFrederick Terman(1900-1982) وحدات بحثية متخصصة لمساعدة الطلاب على تأسيس شركات، بما في ذلك التمويل للمشروع ودعم أبحاثهم، ومن تلك المبادرة انطلقت الشركة الشهيرة حالياHP لتنفجر بعد ذلك بكم لامحدود من الشركات الناشئة وساعدهم دعم حكومي لامحدود، وحول المنطقة إلى مقر للابتكار والتطوير[3].

بينما كانت بقية البلاد تمر بركود، أبى أصحاب الشركات في وادي السيليكون المشاركة في هذا الركود. وانشغلوا بأبحاثهم ومشاريعهم من كان يحذوهم التفاؤل أجل تغيير وجه العالم تقنيا؛ وبينما كانت الشركات والمشاريع التجارية في جميع أنحاء البلاد تغلق أبوابها بشكل مخيف، ويفقد الناس وظائفهم، ومنازلهم كان (مارك زوكربيرغ Mark

[1] Christophe Lecuyer Hyungsub choi, Op cit, p49

[2] سائر بصمه جي: الابتكار الناجح (كيف تبتكر وتستثمر ابتكارك بطريقة عملية)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2016، ص 6

[3] Henri Gibier : Frederick Terman, le père caché de la Silicon Valley, Publié le 7 juil2014, à 9:22, https://www.lesechos.fr

Zuckerberg) يجذب ملايين الأصدقاء على فايسبوك. و(جاك دورسيJack Dorsey) يقوم ببناء وتنمية (تويترTwitter). وأنتجت (أيلون ماسكElon Musk) أول سيارة رياضية كهربائية في العالم، وأطلقت صواريخ إلى الفضاء الخارجي مع (تيسلاTesla) و(سبيس أكسSpaceX). وقام (لاري بايجLarry Page :) و(سيرجي برينSergueï Brin) بتحويل (جوجلGoogle) من مجرد محرك بحث إلى فعل وجزء كبير من حياتناوكان المئات من المبتكرين والشركات الناشئة يغيرون طريقة الاتصال والتواصل والتعلم والقراءة والبحث والتفاعل والعيش والعمل[1].

ظهر مصطلح واد السيليكون في سبعينيات القرن الماضي. مع بدايات تحوله إلى مركز الصناعات التكنولوجية، وخصوصا رقائق المعالجات التي تصنع من السيليكون، واتخاذ وكالة ناسا NASA الفضائية من المنطقة مقرا رئيسيا لها بعد نجاحها في الوصول إلى القمر. لكن تداوله فعليا ازداد في ثمانينيات القرن الماضي وذلك مع ظهور الشركة العملاقة إ.ب.مIBM في صناعة التكنولوجيا، والتي بدأت من هناك بعمليات البحث لأجل تحويل أجهزة الحاسوب الضخمة التي يستخدمها الجيش الأمريكي، إلى حواسيب صغيرة سهلة الاستخدام، ونجحت في ذلك؛ لتصعد أيضا شركة آبلApple، التي صدّرت الوادي إلى الواجهة بعد الاكتتاب العام للشركة بمبلغ قدره 1.3 مليار دولار في تلك الفترة؛ *"فما جعل وادي السيليكون متميزا ليست التقنيات فقط، بل هو سجله في تطوير وتسويق واستثمار التقنيات الجديدة تجاريا"*[2].

وبسبب المكانة المرموقة لوادي السيليكون في المجال التقني والابتكار عديد الدول حاولت تقليد تجربة وادي السيليكون، حيث عملت على استقطاب الطلاب والمطورين، ودفع قروض ضخمة لتمويل مشاريعهم، كما سميت العديد من المراكز عبر العالم بأسماء مشابهة مثل: وادي السيليكون (اسكتلندا)، ومستنقع السيليكون(ايرلاندا)، مستنقع السيليكون(انكلترا)، شاطئ السيليكون(فيتنام). لكن ذلك باء بالفشل، لأن تلك الدول لم توفر بيئة مشجعة على الابتكار كتلك التي توفرها كاليفورنيا، حيث يتواجد البحث العلمي والجامعات التقنية منذ عشرات السنين، بالإضافة إلى وجود متسع كبير من الحرية، ساهم في الحصول على نتائج مبهرة، لهذا كانت كاليفورنيا بيئة خصبة للمخترعين ورواد الأعمال اليوم[3].

[1] جون جوردون: قوة القيادة الايجابية، تر ماهر محروس، المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة، ط1، 2020، ص 67.

[2] سائر بصمه جي: مرجع سابق، ص 7.

[3] سائر بصمه جي: مرجع سابق، ص 6

يوفر واد السيليكون شروط الإبداع الحقيقي، بزرع وترسيخ ثقافة التفاؤل الجماعي، بأن "كل شيء ممكن"، وأن الأفكار الخلّاقة هي الثروة الحقيقية للمجتمع الأمريكي، الذي يساهم بدوره في تشجيع المبدعين والمخترعين وتمويل بحوثهم وتحويل أحلامهم إلى حقيقة. وأنه يمكنهم تغيير العالم، *"فالمبتكرون في وادي السيليكون هم الكيميائيون القدماء الذين يحولون الأفكار إلى ذهب. بذلك يجسد وادي السيليكون روح القدرة على الإبداع والقيادة والشجاعة، التي يتبناها القادة الايجابيون لإنتاج ابتكارات تغير العالم. لكن ليس عليك أن تعيش في الوادي لتبني نهجه"*[1].

رابعا: الصناعة العسكرية

1-المجمع الصناعي العسكري الأمريكي:

يُستخدم مصطلح المجمع الصناعي العسكري في الإشارة إلى المنظومة التي تدعم القوات المسلحة الأمريكية -مع العلم أن المصطلح قابل للاستخدام في أي دولة لها بنية مشابهة -، حيث حاز المصطلح الانتشار بعد وروده في الخطاب الوداعي للرئيس أيزنهاور في 17 يناير 1961، أين *"كشف الرئيس إيزنهاور سنة 1961م، عن مخاطر سيطرة المجمع الصناعي العسكري على الإدارة الأمريكية الحاكمة، غير أنه تم تجاهل تلك التحذيرات، ما أدى إلى إحكام قبضة المجمع الصناعي العسكري على القرارات الاستراتيجية، وأصبح ذا تأثير واسع على الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية الأمريكية والعالمية"*[2]. رغم تحذيرات إيزنهاور، إلا أن المجمع العسكري الأمريكي استطاع أن يفرض منطقه على مؤسسة التشريع الأمريكية "الكونغرس"، وأصبح غالبية أعضاء الكونغرس ممثلين لتلك الشركات المختصة في الصناعات العسكرية، مثل شركات: هانيويل (Honeywell)بوينغ(Boeing)رايثون(Raytheon)لوكهيد مارتن(Lockheed Martin)نورثروب غرومان(Northrop Grumman)جنرال ديناميكس(General Dynamics)...وغيرها، وهي الشركات عابرة القارات ومتعددة الجنسيات، ومحتكرة لصناعة السلاح في العالم[3]. لهذا أصبحت سياسة المجمع تقوم على تمويل السياسيين وصناع القرار، والدفع بهم إلى تقلد المناصب الحساسة في الدولة، من أجل التأثير في القرارات الأمريكية لخدمة مصالح تلك الشركات وزيادة أرباحها.

[1] جون جوردون: قوة القيادة الايجابية، ص ص67،68.

[2] شادي فقيه: من يحكم أمريكا (آليات صنع القرار)، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دط، 2006، ص 151.

[3] Aude-Emmanuelle Fleurant, Yves Bélanger : L'industrie de défense américaine en redéfinition, revu Géo économie, Vol 2, n° 57, 2011, p38.

غير أنه جدير بالذكر أن المجمع العسكري الأمريكي أصبح جزءا من الاقتصاد الأمريكي ويساهم في مداخيل الدولة؛ وبفضل تلك الشركات، أصبحت *"الولايات المتحدة الدولة الأكبر في العالم سواء من جهة إنتاج أو تجارة الأسلحة والتحكم في تكنولوجياته، وتمتلك الشركات الأهم في هذا الصدد ومن بينها: لوكهيد مارتن، وماكدونال دوغلاس، ونور ثروب جرومان. وكذلك المعامل الأكبر والأكثر تقنية ومنها ليفرمور ولوس الاموس. ويلعب المجمع الصناعي الأمريكي دورا كبيرا في توجيه وتحديد نوعية وأعداد القوات الامريكية في العالم"*[1]. إن ميزانية مجمع "لوكهيد مارتنLockheed Martin" وحدها تصل إلى 70 مليار دولار ويعمل فيها 114 ألف عامل، "لوكهيد مارتن" تمتلك جهاز مخابرات خاص بها، إلى جانب شركة قوات عسكرية خاصة. أو قل جيش خاص يحمي مصالح "لوكهيد مارتن" على وجه التحديد، ومنتوجاته لا تتوقف على التسليح فقط، بل تهتم كذلك بتكنولوجيا الفضاء والاتصالات أيضا، وقد تأسست سنة 1995م، وقامت بشراء عشرات الشركات العسكرية والمراكز البحثية، وتحليل البيانات والمعلومات منذ ذلك الحين، لتصبح أجنحة بحثية واقتصادية، وتجارية تابعة للمجموعة[2].

إن اهتمام أمريكا بالصناعات العسكرية من منظور الإمبراطورية جعلها تهيمن على العالم، من خلال قوتها العسكرية، إذ *"تنتشر قوات الولايات المتحدة في 135 دولة في مختلف قارات العالم، يوجد 400 ألف جندي خارج حدود أمريكا، في كل من العراق واليابان وكوريا وألمانيا وبريطانيا وايطاليا وغيرها، يتجاوز تعداد الجيش الأمريكي مليوني جندي يتمتعون بمستوى تدريسي وتسليحي فائق التطور. وهي الدولة الوحيدة التي تمتلك برنامج حرب النجوم الذي يوفر لها حماية ضد أي هجوم نووي من الخارج، بالإضافة إلى عملها على تقويض القدرات النووية لخصومها والحيلولة دون استثمار القوى الاقتصادية الكبرى لإمكاناتها الاقتصادية والتكنولوجيا في المجال العسكري"*[3].

وبلغة الأرقام *" تمتلك الولايات المتحدة أكبر قوة عسكرية في العالم فهي تخصص ميزانية سنوية ضخمة لاستثمارها في هذا المجال تصل إلى ما يقترب من 700 مليار دولار عام 2008، أي ما يتجاوز 60 بالمائة من إجمالي الإنفاق العسكري العالمي، والذي يتجاوز ترليون دولار، وعشرة أضعاف الميزانية العسكرية الروسية، والى ما يوازي إنفاق الدول الخمس عشرة الأولى في العالم مجتمعة في هذا المجال"*[4].وإذا أخذنا الخمسة عشر (15) دولة الأولى في الإنفاق العسكري في سنة 2013م، سنجد أن *"حصة الولايات المتحدة منه تبلغ 37 في المائة، وتبلغ*

[1] وائل محمد إسماعيل: الإمبراطورية الأخيرة (أفكار حول الهيمنة الأمريكية)، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2016، ص 139.

[2] Aude-Emmanuelle Fleurant, Yves Bélanger, Op cit, pp43, 45.

[3] بشير عبد الفتاح: مرجع سابق، ص 50.

[4] المرجع نفسه، ص ص 49، 50

حصة الصين 11 في المائة، وحصة روسيا 5 في المائة، في حين تبلغ حصة الاثنتي عشرة دولة باقية 4 في المائة من الإجمالي. وهذا يعني أن الولايات المتحدة متفوقة على ما عداها بدرجة كبيرة، من حيث الإنفاق العسكري، وفي نفس الوقت لا يتجاوز هذا الإنفاق 3.8 في المائة من إجمالي الناتج المحلي الأمريكي"[1].

2-الصناعة الفضائية:

تمثل الأقمار الصناعية ثورة الإنسان التكنولوجية في القرن العشرين، تُطلق الأقمار الصناعية في العالم لأجل أربعة مهام رئيسة هي: الاتصالات، والملاحة، والاستشعار عن بعد، والرصد المناخي، هذه الأقمار يمكن استخدامها في الأغراض المدنية أو العسكرية، وتمتلك أمريكا أكبر عدد من الأقمار الصناعية في العالم، وتؤدي هذه الأقمار أدوارا متزايدة كل يوم في النشاط المدني، والنشاط العسكري للولايات المتحدة، من خلال شبكة الأقمار الصناعية هذه، تدير الولايات الأمريكية اقتصادها العملاق، وتتحكم في المعلومات عبر العالم، إذ *"تعتبر السيطرة على الفضاء* أحد الخطط المحكمة للسيطرة على العالم إلى جانب استخدام قوة عسكرية ضخمة على هذا الكوكب"*[1].

[1] يورغ سورنسن: مرجع سابق، ص 128

* أول ملمح لهذه التطلعات في القصف الجوي ضد صربيا من 24 مارس إلى 3 يونيو1999.وكان الطيارون-بعضهم يقود القاذفات ستيلث بي 2-تأخذهم أشواط القصف من ميسوري إلى البلقان والعودة، وهكذا قاموا بأكثر من 28 ألف طلعة جوية فوق صربيا. وخلال هذه الحملة أسقطت طائرتان فقط، ولم يصب أي أمريكي في الاشتباكات. وقال ريتشارد مايزر رئيس القيادة الفضائية الأمريكية آنذاك "إنّ كوسوفو كانت تمثل حربا ذات إمكانيات فضائية وعلامة جديدة للمستقبل. وقد سمحت الأقمار الاصطناعية

برز هذا التوجه نحو الصناعات الفضائية في المنتدى القومي السنوي للفضاء الثامن عشر في كولورادو في ابريل 2002م، أينتم تبليغ رسالة مفادها بأن الولايات المتحدة تستطيع السيطرة على العالم، من خلال الهيمنة على الفضاء، وأنها تنوي ضمان هذه السيطرة...أما جيف هاريس (المدير السابق للمكتب القومي للاستطلاع، والمدير التنفيذي بشركة نظم الفضاء التابعة لشركة لوكهيد مارتن). فقد أعلن في المنتدى بأنه، على الولايات المتحدة الآن أن تعمل بانتظام وبطريقة استباقية ومحترفة حول الكون، باستخدام موارد قائمة على الفضاء في المناوشات المحلية...ويجب على القوات المسلحة الأمريكية أن تبث في نفوس جميع أعدائها المحتملين رعبا مؤكدا من قدرات الولايات المتحدة[2]. تنعقد الرابطة التآلفية تماما بين موقعي العلوم والفضاء، كما لو أن العالم ينظر إليه من أعلى، لتعلم فيه الجزيئات والخفايا والدسائس التي تتربص بأمريكا ومركزيتها الكونية. يذكر موقع العلوم Union of Concerned Scientists وهو موقع العلماء المختصين في دراسة نشاطات الأقمار الصناعية، أن عدد الأقمار الصناعية النشطة في العالم حتى عام 2019م، هو 2062 قمر، تمتلك منها الولايات المتحدة 901قمرا صناعيا. منها 176 قمر صناعي عسكري، والباقي لأغراض مدنية مختلفة، في حين تمتلك الصين (ثاني أكبر اقتصاد بعد أمريكا) 299 قمرا صناعيا فقط، و153 قمر صناعي لروسيا. و709 قمر لبقية دول العالم[3]. ولا شك أن هذا البون الفارق في العدة والمقدار، هو الذي يعكس التفوق الأمريكي على الصين وروسيا.

ويتعلق الإصرار على عسكرة الفضاء الخارجي، والهيمنة على الكون بوضع محطات قتالية في مدار حول الأرض وتسليحها بأنواع من الأسلحة تتضمن أشعة ليزر ذات طاقة عالية، يمكن توجيهها نحو أي هدف على الأرض، أو ضد أقمار اصطناعية تابعة لدول أخرى في خطوة استباقية، ويتعلل هذا المقصد ببيان سياسة قيادة الفضاء الأمريكية، المسمى "رؤية لعام 2020"، كما يجد مبرره كذلك، في أن عولمة الاقتصاد الدولي سوف تستمر في توسيع الفجوة بين من يملكون ومن لا يملكون؛ ولذلك فإن مهمة البنتاغون هي السيطرة على الأبعاد الفضائية للعمليات العسكرية لحماية مصالح الولايات المتحدة واستثماراتها، في عالم مناهض لأمريكا تتزايد خطورته دون قيد، ويجب أن يكون أحد أهداف السياسة الحاسمة لأمريكا هو حرمان الدول الأخرى من الوصول إلى الفضاء[4]. وإلى جانب الأغراض العسكرية المتوخاة من صناعة الأقمار الصناعية، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تعتمد بصورة متزايدة على هذه الأقمار في الحياة المدنية، والحياة العسكرية وهذه الأقمار هي المصدر الرئيسي للملاحة، وتحديد المواقع، والتجسس

العسكرية ونظام تحديد المواقع العالمي للطائرات الأمريكية بشن غارات تتميز تقريبا بدقة القصف والهجمات الصاروخية الموجهة التي أبقت الجنود ورجال الجو في مأمن من الخطر" نقلا عن تشالمرز جونسون: أحزان الإمبراطورية، مرجع سابق، ص 97.

[1] تشالمرز جونسون: أحزان الإمبراطورية، تر صلاح عويس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2011، ص 97.

[2] المرجع نفسه، ص 98.

[3] بهاء الخزعلي: حرب الفضاء وكذبة الصاروخ الصيني التائه، 25 مايو 2021، https://tisri.org/ar.

[4] تشالمرز جونسون: مرجع سابق، ص 99.

والرصد والاستطلاع، وهو ما يمنح الولايات المتحدة تفوقا على من يعاديها على الارض، وكذا تمنحها أسبقية في المعلومة. لكن الصين وروسيا بدأوا ينافسون الو.م.أ بتطوير أقمار منافسة لها، وتطوير أسلحة مضادة للأقمار الصناعية، التي شأنها أن تهدد سيادة الولايات المتحدة الأمريكية في الفضاء.

3-الأحلاف العسكرية، حلف الناتو:

لا تتوقف القدرات الأمريكية عند حدود الصناعات العسكرية والتكنولوجيا الفضائية وحسب، بل تتخطاها إلى تأسيس ودعم الأحلاف العسكرية الخارجية، التي تحفظ لها مصالحها وهيمنتها الاستراتيجية على العالم، وأهم هذه الأحلاف هو حلف شمال الأطلسيNATO، *"تنظر الولايات المتحدة إلى حلف الناتو ومنذ إنشائه عام 1949 بوصفه تمركزا أمنيا عسكريا لاستراتيجيتها الدفاعية، سواء في حقبة الحرب الباردة أو ما بعدها، بل دعامة أساسية للهيمنة المطلقة على أوروبا وتزعم القيادة في العالم الغربي عموما"*[1]،أي أنها ترى فيه وسيلة للحد من تنامي البلدان المنافسة لها إقليميا وعسكريا وخاصة روسيا والصين. بدأت فكرته *"حين اشتدت الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي وازداد النفوذ السوفيتي في أوروبا، رأت كل من فرنسا وانجلترا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ أن مصالحها تقتضي أن تتحالف عسكريا، وقد تم ذلك في ميثاق بروكسل في 17 مارس 1948م. لكن سرعان ما تبين أن تلك الدول غير قادرة بمفردها على الوقوف في وجهه، ما اعتبر توسعا سوفيتيا في الغرب دون مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية"*[2]. هذا وتبلغ مساهمة أمريكا في حلف الناتو 70%، في حين لا يتجاوز الإنفاق الأوروبي حاجز 22%، من هنا ستبرز مشاكل الحلف، لأن أسباب تأسيسه كانت تكمن في التصدي للشيوعية، ومن وراءها الاتحاد السوفيتي، الذي انخرط في حلف مسبقا هو حلف وارسو. توسع الناتو من 12 دولة سنة 1989، إلى 29 دولة في الوقت الحالي. وبالتالي غيَّر أهدافه وأفكاره بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، إلى محاربة أعداء الغرب، فخاض لأجل ذلك معارك عنيفة في البلقان والعراق وأفغانستان، كما انتشر وتوسع عسكريا في كل دول العالم. لهذا نجده يتشكل من دول من *"قارتين ومنها دول غيرّ أطلسية مثل اليونان وتركيا في أوروبا، والولايات المتحدة وكندا في قارة أمريكا. لكنه لا يضم دول أمريكا اللاتينية أو إفريقيا الأطلسية والسبب في ذلك بيّن وجليّ، فالقصد من الحلف كان ببساطة إقامة حزام أمان واحد قبالة الاتحاد السوفيتي"*[3].

خامسا: البحث العلمي والجامعات الأمريكية:

ارتبطت نشأة التعليم الأمريكي بالإرث الأوروبي الذي حمله المهاجرون الأوائل إلى العالم الجديد. فحمل آراء ومعتقدات مختلفة، جعلت أمريكا ملتقى للأجناس والثقافات المختلفة، لهذا تمحور التعليم الأمريكي في بدايته حول

[1] محسن حساني ظاهر: توسيع حلف الناتو بعد الحرب الباردة، دار الجنان للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2013، ص7.

[2] مصطفى ناصف: الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسة عالم المعرفة)، الكويت، د ط، 1978، ص 33.

[3] المرجع نفسه، ص 34.

الحضارة والثقافة الغربيتين، ثم أصبح أكثر انفتاحا على طرق التدريس الحديثة وزاد الاهتمام به."*فأصبحت أميركا المكان الذي يحج إليه الساعون إلى الثقافة المتقدمة، علمًا أن ثمة نصف مليون طالب أجنبي تقريبًا يتدفقون إلى الولايات المتحدة، ولا يعود كثيرون منهم إلى أوطانهم. ويمكن أن نجد خريجي الجامعات الأميركية في كل مكتب تقريبًا في كل القارات عبر العالم*" [1].

كان التعليم يعتمد أسلوب التلقين للعلوم التقليدية، أما حاليا فقد اتجه التعليم لاستخدام طريقة التشجيع على التفكير الناقد والابتكار. ويتميز التعليم الأمريكي بالأسلوب المرن، فالطالب هو محور العملية التعليمية. أما دور المعلم في المنهج الأمريكي فإنه ينحصر في التوجيه وفتح الأبواب أمام الطالب، وتشجيعه على البحث والوصول إلى المعلومة بشكل جيد، والابتعاد قدر الإمكان عن أسلوب التلقين والحفظ، وفتح الباب حتى يكون مسؤولا عن العملية التعليمية.إذ يحصي النظام التعليمي الأمريكي اليوم حوالي 96 ألف مدرسة ابتدائية وثانوية، وأكثر من 4200 مؤسسة للتعليم العالي، ويبلغ إجمالي نفقات البلاد في قطاع التعليم نحو 878 مليار دولار سنويا، ليغدو التعليم الأمريكي مرغوبا فيه ومطلوبا عالميا، يضاف إلى ذلك سياسة الولايات المتحدة في تشجيع الطلاب الأجانب على المجيء إليها عبر برامج متعددة [2].

لا عجب إذا، أن الأشخاص الطموحين من مختلف أرجاء العالم تجدهم يسعون إلى الالتحاق بإحدى الجامعات الأمريكية، إنها قبلة أكاديمية عالمية، حيث تمنح شهاداتها وضعا اجتماعيا فوريا لحامليها، *"بل إن الالتحاق بكلية أمريكية عادية، يعتبر جواز مرور لفرصة أكبر"* [3].على هذا الأساس فإن نسب الطلبة الأجانب الملتحقين بالكليات والمعاهد الأمريكية، في تزايد مستمر منذ خمسينيات القرن الماضي، إلى غاية بداية القرن الحالي، وتأتي هذه الأعداد من مختلف دول العالم بنسب متفاوتة؛ *"فمن بين 1.6 مليون طالب مسجلين في جامعات خارج بلدانهم، 28 % موجودون في الولايات المتحدة، بالمقارنة مع 14% يدرسون في بريطانيا. وأكثر من 86 ألف باحث أجنبي كانوا مقيمين في مؤسسات تعليمية أمريكية في سنة 2002م"* [4]. لذا يتضح أن أمريكا تشكل حقلا تدريبيا أساسيا للقادة المستقبليين للعالم، وذلك من خلال احتضانها لهذا الكم الهائل من الطلبة من كل الجنسيات في العالم (من آسيا

[1] زبيغنيو بريجنسكي: رقعة الشطرنج الكبرى، مرجع سابق، ص 27.

[2] سيف الهرموزي: مرجع سابق، ص 158.

[3] زبيغنيو بريجنسكي: الاختيار (السيطرة على العالم أم قيادة العالم؟)، مرجع سابق، ص 208.

[4] جوزيف ناي: القوة الناعمة، ترجمة محمد توفيق البجيرمي، مكتبة الكعيبان، الرياض، ط1، 2007، ص 63.

والشرق الأوسط وإفريقيا وأمريكا اللاتينية)*. وتنتج الثقافة الأمريكية قوة مهيمنة ناعمة، ذات تأثير كبير وواضح على بقية الشعوب، والدول من جراء تحكمها في التعليم العالي، والإقدام التكنولوجي، والإبداعي المستمد من ثقافة مبادرة، ومؤسسات تعليم عالي متفوق. فحسب تصنيف وضعته جامعة "جياوتونغ" في شنغهاي الصينية عام 2008م، بعد دراسة وتقويم 500 جامعة في العالم لأفضل الجامعات العالمية، ثمة ثمان جامعات من أفضل الجامعات العشر في العالم هي جامعات أمريكية. في حين أن 17 جامعة، هي من أفضل الجامعات العشرين[1].

وكدليل على تفوق الجامعات الأمريكية نذكر العدد الهائل للعلماء الأمريكيين الحاصلين على جائزة نوبل من علماء وباحثين، *"فمنذ ثلاثينيات القرن العشرين نال أمريكيون نحو 60% من جوائز نوبل، وقبل هذه الفترة كانت الغالبية العظمى التي تحصل على الجوائز من الألمان والفرنسيين والبريطانيين. ومن الدلائل الأخرى على التأثير الحالي للجامعة الأمريكية، النسبة العالية للصناعات الرائدة الجديدة في الولايات المتحدة، حيث يعتمد 80% ومنها على اكتشافات قامت بها جامعات أمريكية"*[2]؛ إذ تولى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا(Massachusetts)، وستانفورد (Stanford University)، وجامعة جونز هوبكز (Johns Hopkins) زمام المبادرة في بناء برامج الفيزياء، والإلكترونيات، والطيران، حيث تخدم أبحاث وقت الحرب عادة كأساس للتوسع في مرحلة ما بعد الحرب. لم تخلق هذه الأبحاث والتطوير، الذي تموله الحكومة ويستند إلى الجامعة، أدوات مبتكرة للحرب فحسب، بل حركت الاقتصاد أيضا من خلال إنتاج منتجات وتكنولوجيات جديدة للاستخدام المدني. فعلى سبيل المثال، مهد عمل معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في مجال الدفاع الجوي في أوائل الخمسينيات الطريق لصناعة الكمبيوتر، في حين عمل ستانفورد على تكنولوجيا الميكروويف[3]. هذا تأكيد آخر على ريادية الجامعات الأمريكية في العالم بجودة وجدة وكذا غزارة انتاجاتها العلمية، في مقابل جامعات أخرى تقبع على هامش التصنيف العالمي.

والواقع أن مؤسسات التعليم العالي الأمريكية وجامعاتها، لا تكتفي بتزويد أمريكا بأسباب المعرفة التكنولوجية اللازمة للحفاظ على التفوق الاقتصادي والعسكري فحسب، بل تقوم أيضا بإغناء وتكوين رأس المال البشري المحلي، من

*وقد عبّر وزير الخارجية الأسبق "كولن باول" قائلا: "لا يمكن أن أفكر في رصيد لبلدنا أثمن من صداقة قادة عالم المستقبل الذين تلقوا تعليمهم هنا؛ -في الولايات المتحدة الأمريكية-، ذلك أن الطلاب الذين يفدون من أنحاء العالم يعودون إلى أوطانهم بتقدير أكبر للقيم والمؤسسات الأمريكية". نقلا عن سيف الهرموزي: مقتربات القوة الذكية الأمريكية كآلية من آليات التغيير الدولي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2016، ص 156.

[1] جوناثان كول: جامعات عظيمة (قصة تفوق الجامعات الأمريكية)، تر ناصر الحجيلان، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، ط1، 2016، ص ص 53،54

[2] جوناثان كول، مرجع سابق، ص 55.

[3] المرجع نفسه، ص 285.

خلال حث العلماء والباحثين وتحفيزهم على الهجرة إلى أمريكا، وتمكينهم من ترجمة مجمل طاقاتهم التعليمية والاقتصادية الكامنة إلى واقع ملموس. *"فنظام التعليم العالي الأمريكي، يمثل واحدا من القطاعات المهمة في الاقتصاد الأمريكي، مع حصة عالمية واعدة من التجارة، وقد تطورت هذه الجامعات وتحولت إلى محركات مبدعة بصورة لا تشبهها فيها أي جامعات أخرى في تاريخنا، فهي تدير المعلومات والاكتشافات في المجتمع بصورة متزايدة معتمدة على المعرفة بوصفها مصدرا لتطورها، لذا يشكل أي خطر يهدد الجامعات الأمريكية تهديدا لرخائها*[1].

ولما كانت اللغة إحدى المرتكزات الجوهرية للحضارة العالمية الكونية، كان لزاما على المركز الحضاري أن يشتمل على نظام لغوي متكامل ومتداول عبر الأطراف، حتى تتشكل هوية عالمية، يستطيع من خلالها المركز أن يهيمن على بقية العالم، عن طريق تسهيل سبل التواصل وجعلها أكثر مرونة بين شعوب العالم، كون اللغة من العناصر المنتجة لهوية عالمية موحدة. ومن ناحية أخرى يعتبر "صامويل هينتنغتون" أن: *"اللغة والدين هما العنصران المسيطران في أي ثقافة أو حضارة. وطالما أن فرضية بزوغ حضارات أخرى وتكاثرها يجسد حتما ظهور لغة عالمية ودين عالمي، وأن استخدامات اللغة الواسعة الانتشار ستؤدي حتما إلى هيمنة ثقافية وحضارية جديدة ويساعد على دعم الهويات الثقافية المستقلة للشعوب ويقويها"* [2]. ومما لا شك فيه أن اللغة الانجليزية اليوم هي اللغة العالمية كونها لغة مشتركة، تتقاسمها أعداد متزايدة من سكان العالم. بالإضافة إلى لغة أخرى أكثر عالمية هي لغة العلم أي الرياضيات، والتي تشكل أيضا أساس ثورة الحاسوب، دون أن ننسى لغة عالمية أخرى مشتركة بشكل متزايد، تتمثل في الموسيقى الأمريكية التي تجاوزت العالمية. إذن، من العوامل التي تزيد من الإغراء الثقافي العالمي هو ذلك الانتشار السريع للغة الانجليزية، بوصفها اللغة الدولية المشتركة؛ إذ ينظر معلمو الجيل الناشئ إلى اللغة الإنجليزية على أنها مهارة أساسية، أكثر منها لغة أجنبية، وهي بالتالي عندهم على قدم المساواة مع الحساب[3]. لهذه الاعتبارات والدلائل، تظل الولايات المتحدة الأمريكية السلطة الأكثر نفوذا وتأثيرا في العالم على الصعيد الثقافي ومفردات القوة الناعمة، ولا سيما في القرن الحادي والعشرين، مستفيدة من شيوع اللغة الانجليزية، لغة للتخاطب اليومي عالميا، ولغة التجارة وإدارة الأعمال، وذلك بحكم وراثتها الإمبراطورية البريطانية الغاربة. بالفعل هناك الملايين، بل مئات الملايين ممن يحاكون الأنموذج الأمريكي في المأكل والملبس وتقليد المنتج الأمريكي، فالثقة بالصناعة الأمريكية جعلت الملايين يقتنونها باعتبارها تتميز بالدقة والجودة

[1] المرجع نفسه، ص ص55، 56

[2] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 98.

[3] زبيغنيو بريجنسكي: الاختيار (السيطرة على العالم أم قيادة العالم؟)، مرجع سابق، ص 208.

والتكنولوجيا العالية[1]. وعليه فإن حدود العالم الأمريكي هي على نفس قدر حدود اللغة الأمريكية في شيوعها وانتشارها العالمي.

المبحث الخامس: مظاهر الهيمنة الأمريكية

تكتمل صورة علاقة التبعية بين المركز والأطراف، من خلال تمظهرات تأسيسية للمركزية الأمريكية، بقوة جاذبية ثقافتها وأيديولوجياتها، وتأثيرها على فكر وثقافة الأطراف، تسمى هذه القوة في خطابات المنظرين السياسيين وأصحاب الفكر الاستراتيجي الأمريكي: "بالقوة اللينة أو الناعمة"، في مقابل القوة الصلبة التي تستند إلى قوة اقتصادية وعسكرية، أما القوة الناعمة، فهي تبرز من خلال تغلغل فكري إيديولوجي إرادي وطوعي، بين جنبات وثنايا شعوب دول الأطراف، إذ تنبع هذه القوة من مركز الثقل في العالم، ولها قوة جذب واستقطاب كبيرة، تمثل إحدى تمظهرات المركزية الأمريكية في العالم المعاصر اليوم. فما القوة الناعمة الأمريكية؟ وما هي أبرز تمظهراتها؟

تجلى مفهوم (القوة الناعمة الأمريكية) في رؤية مساعد وزير الدفاع الأمريكي لشؤون الأمن الدولي سابقا، "جوزيف ناي"Joseph Nye(1937–)، لمستقبل العلاقة الحضارية بين المركز والأطراف، أين تتجسد فيها سلطة المركز المطلقة على الهامش. ويعرف "ناي" القوة الناعمة، بأنها: *"القدرة على الحصول على ما تريده عن طريق الجاذبية بدلا من الإرغام أو دفع الأموال"* [2]، أي هي مقدرة أي دولة على حمل دولة أخرى على أن تقول ما تريده، من خلال اللجوء إلى نشر ثقافتها، وأيديولوجيتها، وجعلها أكثر إعجابا للآخر واستقطابا له. ويضيف "ناي": *إن كثيرا من القيم مثل الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وإتاحة الفرص للأفراد لها قدرة عميقة على الإغراء. ويذهب السياسي والعسكري الأمريكي الجنرال "ويسلي كلارك Wesley Clark" إلى الإقرار بأن القوة الناعمة قد أعطت أمريكا، تأثيرا أبعد بكثير من الحافة الصلبة لسياسات ميزان القوى التقليدية"* [3]. غير أن هذه القوة الناعمة التي أخبر عنها "جوزيف ناي"، لن تكون كذلك–ذات تأثير سحري على الشعوب–إلا إذا اعتمدت على القوة الضاغطة أو الصارمة أي زيادة السيطرة العسكرية والاقتصادية، أو كما يقول صامويل هينتغتون: *"الزيادة في القوة الاقتصادية والعسكرية تولد ثقة*

[1] سيف الهرموزي: مرجع سابق، ص 157.

[2] جوزيف ناي: القوة الناعمة، مرجع سابق، ص 12

[3] المرجع نفسه، ص ص 12–13.

بالنفس وغطرسة واعتقادا بتفوق الثقافة الخاصة، مقارنة بتلك التي لدى الآخرين، كما تزيد من جاذبيتها بالنسبة للغير" [1]. وسنعرض فيما يلي أبرز تمظهرات المركزية الأمريكية المعاصرة وتموضعها كمركز حضاري وثقافي عالمي:

1- هيمنة الايديولوجيا السياسية:

لسنا بصدد تأصيل تاريخي أو عرض كرونولوجي لمعنى مصطلح الديمقراطية باعتباره نظام حكم جماعي قديم يرتد إلى حضارة الإغريق، بل إننا نحاول أن نتبين أثر هذه الإيديولوجية السياسية من جهة ما هي مظهر من مظاهر الهيمنة الأمريكية في العصر الراهن، وأحد مقومات القوة الناعمة الأمريكية، كما صرح بذلك "جوزيف ناي" في كتابه "القوة الناعمة"، حين قال بأن: *"القيم السياسية كالديمقراطية وحقوق الإنسان يمكن أن تكون مصادر جذب قوية، في يد الولايات المتحدة"* [2]. لذلك نطرح عدة تساؤلات مشروعة، تحدد لنا المسار في تحليل سر قوة وعالمية هذا النظام وعلاقته بمركزية أمريكا الحضارية وعالمية مبادئها. ومن بين هذه الأسئلة التحليلية: هل كانت لتكون الديمقراطية، من القوة والتأثير والضجيج والزخم البحثي والمعرفي إذا كان حاملها أو ممثلها ضعيفا ومنهارا، وهامشيا؟ أم أنه ذاع صيتها وانتشرت على نطاق فكر الباحثين لأنها ارتبطت بأمريكا (مركز العالم)؟ وهل كانت لتُبَرر وتُدْعم وتُرْبط بالطبيعية البشرية وتوصف بأنها "حتمية" وخيار الإنسانية جمعاء، كما ربطها "فوكوياما" "وهيجل"، "وجون ديوي"...، وغيرهم، لو أن مركز العالم اختار لنفسه نظاما سياسيا آخر (كالدكتاتورية مثلا)؟ كيف تحققت تمظهرات الاستثنائية المركزية الأمريكية في ظل النموذج الديمقراطي المعاصر؟ .

سنتمثل بيان لحلول عملية لتساؤلاتنا المطروحة، من خلال استبطان مضمون الأفكار التي عرض لها "أليكسيس دو توكفيل" في مؤلفه" الديمقراطية في أمريكا"، وهو ما استند عليه كذلك "فرنسيس فوكوياما"، فحسب رأي هذا الأخير، أن الديمقراطية أصبحت معلقة نتيجة لقوة الفكرة الأساسية لها؛ صرح بهذا "دوتوكفيل" كذلك في عرضه للديمقراطية في أمريكا. عندما لاحظ أن فكرة المساواة بين البشر التي تؤسس للديمقراطية الحديثة حين بدأت في اكتساب الأرض على مدى الأعوام الثمانية الماضية، كما اكتسبت زخماً لا يمكن وقفه، أثار معه (نوعاً من الذهنيات الدينية). وكان يُنظر إلى التقدم الذي أحرزته هذه الفئة باعتباره حقيقة مرسلة من قِبَل العناية الإلهية[3]. كما يلخص

[1] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 152.

[2] جوزيف ناي: القوة الناعمة، مرجع سابق، ص 92.

[3] Francis Fukuyama: Political Order and Political Decay, from the industrial revolution to the globalization of democracy, Farrar-Straus and Giroux, New York., p 608.

"مايكل دينينغ" ثلاثة طروحات أو فرضيات تأسست عليها الديمقراطية في أمريكا وضعها "دوتوكفيل"، تتمثل في أساس" المساواة في الشروط"، وأساس يتعلق بـ"نظرية الاتحاد"، والثالث يتعلق بـ"الصلة بين النظرية والسردية"، أما المفهوم الرئيسي عند "دوتوكفيل"، فهو المساواة في الشروط، وهو مفهوم يوحد بين الديمقراطية وأمريكا معا[1]. إذن ومن خلال هذه النصوص، يبدو لنا أن مبدأ المساواة في الشروط، هو ما تقوم عليه النظرية السياسية المعاصرة، وهو أحد ركائز فلسفة العدالة، لأن تصور العدالة في الديمقراطية ينطلق من مبدأين ضروريين هما المساواة والحرية، لكن الجدل في نظرية العدالة حول أسبقية أحدهما على الآخر، (أي أسبقية المساواة على الحرية أم أسبقية الحرية على المساواة)، الأول تمثله الديمقراطية الاجتماعية أما الثاني فهو مبدأ الليبرالية الجديدة في أمريكا، وهو تأسيس العدالة على أساس المساواة في الفرص وشروط العمل والبذل والاختيار، بمعنى أن الناس جميعا في المرحلة الأولى من حياتهم يجب أن يخضون بنفس الشروط الأساسية على منوال نظرية (الحق الطبيعي) (وهنا عودة إلى جون لوك وفلاسفة العقد الاجتماعي). لكن مع ذلك يجب إبقاء المجال مفتوحا للتفوق والسمو الفردي، وفق مبدأ الاستحقاق، وهو محور الفلسفة الليبرالية الجديدة. إذ يرى "دوتوكفيل"، بأن الإيديولوجية الأمريكية القائمة على مسلمة المساواة بين الأفراد من جهة، واعتبار الفرد الأمريكي يمتلك قابلية غير محدودة للكمال والرقي الأخلاقي والاقتصادي من جهة أخرى؛ لا يمكن حرمانه منها.

إن هذه السمات المميزة للفرد الأمريكي لم تكن متاحة في ظل سيطرة النظام الارستقراطي والإقطاعي، إذ يقول دوتوكفيل في هذا الصدد: "بينما كان نظام الطبقات يتحكم وحده في تصنيف سكان الوطن الانجليزي، كانت المستعمرة الأمريكية تزداد اقترابا من ذلك المشهد الرائع الجديد–مشهد شعب متجانس في كل أجزائه–إنها ديمقراطية أكمل مما تجرأت العصور القديمة أن تحلم به، قد نشأت كاملة العدد والعدة من بين مجتمع إقطاعي قديم"[2].

لهذا فإن الديمقراطية وحدها هي التي تحقق تلك الإمكانية اللانهائية لتحقيق ذات الفرد ورغباته، أي أن الديمقراطية وجدت التربة الملائمة لكي تنمو وتحافظ على ثباتها، داخل المجتمع الأمريكي وعقيدته الدينية، يقول دوتوكفيل في هذا السياق: "إذا كانت تميل الأمم الأرستقراطية كل الميل إلى الإسراف في تضييق مجال الترقي الإنساني وقابليته للكمال، فإن الأمم الديمقراطية تميل إلى توسيع هذا المجال، ومد أطرافه إلى مدى يتجاوز الحد المعقول"[3]. فالديمقراطية الأمريكية لم تخل من إيديولوجية القائد أو المهيمن، وهي هنا تختلف عن الديمقراطية التقليدية، أي أنها

[1] مايكل دينينغ: مرجع سابق، ص 250.

[2] أليكسيس دوتوكفيل: مرجع سابق، ص 43.

[3] المرجع نفسه، ص 409.

معاصرة للتحولات الحاصلة في رغبات وذهنيات الشعوب، وإن صح التعبير نقول إنها استلهمت حضورها وقوتها بمحاكاة غرائز الإنسان، أي نوازع الأفراد السيكولوجية المتطلعة للكسب اللانهائي ورغبتهم الجامحة في التملك، لهذا كانت في نظر الأمريكيين تمثل نظام حكم طبيعي أو الفيزيوقراطي. نجد هذه الفرضية في تعبير "زبيغنيو بريجنسكي"، فحسب رأيه، أن التشديد الأميركي على الديمقراطية السياسية، والتطوير الاقتصادي يتحدان معًا لينقلا رسالة إيديولوجية بسيطة تغري كثيرين، مفادها أن السعي إلى النجاح الفردي يعزز الحرية ويولد الغنى أيضا. وبالتالي، فإن المزيج الناتج عن الجمع بين المثالية والأنانية هو مزيج قوي. ويقال أيضًا إن الإنجاز الذاتي الفردي هو هبة من الله ويستطيع في الوقت ذاته أن يفيد الآخرين، إما بإعطاء المثل أو بتوليد الغنى (الثروة) وتلك هي العقيدة التي تجذب الناس الذين لديهم الطاقة والطموحات، والقدرة العالية على التنافس[1].

على نحو أكثر تميزا أصبحت الديمقراطية اليوم نظاما مستقطبا، بالنسبة إلى العالم بأسره إذ تستحدث تشكيلات جديدة لغرض تأسيس ميلاد بدء جديد للحياة في المجتمعات؛ ضمن نظام حكم يحفظ ويقر بالحريات الفردية والحقوق الطبيعية للإنسان، فلا يوجد أي نموذج أو قالب أو مخطط استطاع أن يحقق للإنسان ذاته وكيانه كالديمقراطية. فلقد دخلنا للتو من الثورات المفتوحة بحثا عن المثالية السياسية، إلى تحقيق القيم السياسية العالمية التي توحد بين شعوب واثنيات العالم، هذا ما تبنته الولايات المتحدة الأمريكية، ورفعته شعارا لحملتها للهيمنة على العالم، فجاز لنا الحديث عن ديمقراطية أمريكية جديدة، أو إعادة بعث أمجاد نظام الحكم الجماعي، الذي قال عنه "ابراهام لينكولن"، (حكم الشعب بالشعب وللشعب). والدليل على قوة الديمقراطية اليوم في ظل الهيمنة الأمريكية، هو أن أسلوب كثير من الساسة الديمقراطيين الأجانب يشبه أو يقلد الأسلوب الأميركي (نستذكر في هذا الصدد مقولة ابن خلدون، أن المغلوب مولع دوما باتباع الغالب) ولم يكن "جون كيندي" الوحيد الذي وجد من يقلده في الخارج، ولكن حتى آخر القادة والزعماء السياسيين الأميركيين –والأقل شهرة–أصبحوا موضع دراسة دقيقة وتقليد سياسي. وهكذا، فإن سياسيين من ثقافات متباينة كالبريطانيين (رئيس الوزراء الياباني في منتصف التسعينيات ورئيس وزراء بريطانيا) الذين يجدون أنه من الجيد أن يقلدوا عادات كلينتون الداخلية (سياسته في الداخل) ولمساته الشعبية العامة، وتقنيات أو أساليب علاقاته العامة[2].

[1] زبيغنيو بريجنسكي: رقعة الشطرنج الكبرى، مرجع سابق، ص 28.

[2] زبيغنيو بريجنسكي: رقعة الشطرنج الكبرى، مرجع سابق، ص 27.

لقد كان إغراء وتأثير النظام السياسي الأميركي الديمقراطي، قد ترافق أيضًا مع الجاذبية المتزايدة للنموذج الاقتصادي الأميركي، المعتمد على المقاولة والالتزامات الذي يشدد على التجارة الحرة العالمية والتنافس غير المقيد. وبدأ ذلك بالدول الأوروبية، إذ يساند الأوروبيون اليوم، الرأي القائل بأن الأسلوب الاقتصادي الأميركي الأكثر تنافسا وحتى الأقل شفقة ورحمة، يجب أن يقلَّد إذا أرادت أوروبا ألا تتخلف عن ركب الحضارة المعاصرة، وحتى في اليابان، فإنها تسير في ذات الاتجاه، أين نجد أن الفردية المتشددة في السلوك الاقتصادي أصبحت معترفًا بها بوصفها أمرا ضروريا للنجاح الاقتصادي[1].

كما يمكن استلهام عالمية الديمقراطية، من مقدمة فوكوياما حول نظريته بنهاية التاريخ، ومن نظرية هيجل في التاريخ ومنطق صراع الأضداد عنده الذي يؤول إلى تجلي الروح المطلق وتفرد الوجود الإنساني، السامي المفارق للبدن. كل هذه النظريات تجيز لنا الحكم بعالمية هذا النظام، فلا هو غربي ولا هو شرقي، وإنما هو تجربة الإنسان بما هو كذلك. هذا ما تؤكد عليه كذلك الذرائعية كمبدأ في السياسة أو لنقل النفعية السياسية، حين اعتبر روادها أن الديمقراطية تتضمن بالفعل إيمانا بأن المؤسسات السياسية ينبغي أن تحسب حسابا كبيرا للطبيعة البشرية، وتتوافق معها. لأن *"الديمقراطية تجربة إنسانية جاءت بعد كفاح الإنسان وصراعه من أجل إثبات آدميته، وكرامته وقيمته ومن هنا فإن العقل البشري يفرضها، والأخلاق تحتمها للمحافظة على إنسانية الإنسان وحريته... فالنظام الديمقراطي يمثل بالفعل نهاية تاريخ النظم السياسية، لأنه النظام الأمثل للحكم؛ الديمقراطية هي النتيجة النهائية للصراع الطويل الدامي الذي خاضه الإنسان من أجل انتزاع اعتراف الآخرين بآدميته وكرامته وحريته"* [2]. وقد زاد في شرعنة الديمقراطية وتفعليها وبيان تفوقها، هو أنها النظام الذي انبثق وحملت لواءه أمريكا مركز العالم ومصدر قوته،كونها تبنت هذا النظام منذ نشأتها وتكوينها.

وبحسب نظر "فرانسيس فوكوياما" صاحب أطروحة نهاية التاريخ، فإن الصورة المثالية للديمقراطية هي تلك التي عرفتها أمريكا، فأمريكا في نظره هي البلد الوحيد الذي بلغت فيه الثورة الديمقراطية تطورها الكامل. وبناء عليه فإن الجواب على السؤال السالف: هو أن أمريكا هي التي رفعت من شأن الديمقراطية في العالم، على أساس أن هذا النظام مورس عبر العالم وتاريخ الشعوب بصور وكيفيات مختلفة، وكان أجودها وأفخمها هو النموذج الأمريكي. إذ يستند فوكوياما

[1] المرجع نفسه، ص 28.

[2] إمام عبد الفتاح إمام: الأخلاق والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، دط، 2002، ص ص 22-24.

على دراسة حول مراحل تطور الديمقراطية في أمريكا أقامها صامويل هينتنغتون، إذ قسمها إلى ثلاثة مراحل كبرى أو تحولات أطلق عليها "موجات التحول الديمقراطي" وهي محطات كبرى عرفتها الديمقراطية الأمريكية المعاصر عبر تاريخ تشكلها في أمريكا وفي العالم.

في آخر موجة من التحول الديمقراطي (الموجة الثالثة)؛ امتدت جذور الديمقراطية إلى مصالح فئات اجتماعية محددة؛ واعتمدت على التعبئة الاجتماعية باعتبارها الصلة بين التغير الاقتصادي والديمقراطية؛ والأحزاب السياسية باعتبارها عوامل رئيسية في النضال من أجل الديمقراطية. تنحصر هذه الموجة بين الفترة من عام 1970 إلى عام 2010، عرفت ارتفع عدد الديمقراطيات في مختلف أنحاء العالم من نحو 35 إلى ما يقرب من 120، أوحو 60% من بلدان العالم. ووفقاً لهينتنغتون، فإن الموجة الطويلة الأولى بدأت في عشرينيات القرن التاسع عشر واستمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر، في حين حدثت الموجة القصيرة الثانية في أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة. بدأت الموجة الثالثة بالتحولات الديمقراطية في إسبانيا والبرتغال في أوائل سبعينيات القرن العشرين واستمرت حتى نهاية الحكم العسكري في اليونان وتركيا، ثم تبعتها سلسلة من بلدان أميركا اللاتينية بما في ذلك البرازيل والأرجنتين وبيرو وبوليفيا وشيلي؛ ثم انتقلت إلى آسيا عن طريق إرساء الديمقراطية في الفلبين وكوريا الجنوبية وتايوان؛ وتوجت بانهيار البلاد الشيوعية والانتقال إلى الديمقراطية في أوروبا الشرقية وبعض الدول التي خلفت الاتحاد السوفييتي السابق[1].

لقد أدرك "هيجل" ونيتشه أن الديمقراطية السياسية الحديثة تشكل نسخة علمانية من العقيدة المسيحية التي تقوم على المساواة العالمية في الكرامة الإنسانية. ولقد رأى "هيجل" بصورة خاصة أن التطورات الجارية في العالم المادي مثل الثورة الفرنسية وبروز مبدأ المساواة في الاعتراف من بين التطورات التي طرأت على المنطق الداخلي للعقلانية البشرية. أثناء الموجة الثالثة ذاتها، وأيضاً أثناء الربيع العربي الأكثر حداثة، انتشرت الأفكار بوضوح بسرعة عبر الحدود الدولية بواسطة الإذاعة والتلفزيون والإنترنت وتدفقات من الناشطين الذين يجلبون أخبار الاضطرابات السياسية في أماكن أخرى من العالم. ومن الواضح أن موجة التحولات الديمقراطية التي حدثت في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى في أوائل التسعينيات كانت مستوحاة من سقوط سور برلين والتطورات الدرامية التي حدثت في أوروبا الشرقية قبل ذلك بفترة وجيزة[2].

[1] Francis Fukuyama, Op cit, p606.
[2] Ibid, p 608.

وإذ يتقرر واقعيا وجود علاقة وثيقة الصلة بين المستويات المرتفعة من التنمية الاقتصادية في البلدان وكذا النظام الديمقراطي المستقر، فإن أغلب البلدان الصناعية الغنية اليوم تتبنى أنظمة ديمقراطية، في حين أن أغلب الدول المتخلفة تتبنى أنظمة استبدادية. وهذا ما جعل أمريكا راعية الديمقراطية والرأسمالية في العالم، كما تظهر إحدى الدراسات المعروفة، "أنه في حين قد تنتقل البلدان من الحكم الاستبدادي إلى الحكم الديمقراطي على أي مستوى من مستويات التنمية، فإنها من الأرجح أن تظل ديمقراطيات إذا تجاوزت عتبة معينة من نصيب الفرد في الدخل وهذا يوحي للوهلة الأولى بوجود شيء ما في عملية التنمية الاقتصادية يجعل الديمقراطية أكثر ترجيحا"[1]. وفي سياق ما عرضنا له بالتحليل في الفصل السابق بينا كيف أن الرغبة في الربح والغنى انتشرت في أمريكا في إطار النزعة البيوريتانية التطهيرية، فإننا نشير في هذا السياق إلى أثر النزعة الدينية المتحررة في ترسيخ أسس النظام الديمقراطي، على عكس النزعات الدينية المتشددة. فلا يمكن أن نقلل من أهمية الجذور الدينية المحلية للثقافة الديمقراطية في أميركا، وعلى النقيض من الأشكال الأكثر مركزية والإنسانية للحكم الديمقراطي والتي نشأت في قسم كبير من أوروبا. وهو عامل رئيسي في تفسير الطبيعة الديمقراطية العميقة التي تتسم بها أميركا، والتي على الرغم من نشوء أشكال جديدة من النقابوية في القرن العشرين، وخاصة الشركات التجارية المتعددة الجنسيات والمركب الصناعي العسكري، تظل تشكل دليلاً كبيراً على هذا[2].

2- القدرة الاقتصادية الأمريكية:

إن معرفة القدرات المادية للدول، تؤدي إلى معرفة من يمتلك القوة، إذ تقاس قوة الدولة بالقوة العسكرية (عدة وعتادا، وتكتيكا واحترافية) والسكان، والاقتصاد (إجمالي الناتج الداخلي للتجارة) والأراضي، والثروة الطبيعية...وغيرها. وميزة متغيرات القوة المادية أنه يمكن قياسها، ويعترف بها عالميا على أنها مؤشرات للقوة. وحسب التقديرات الإحصائية فإن الولايات المتحدة تتركز في يدها القوة على نحو هائل. *"وتعتبر الحكمة التقليدية أن الدولة تستمد قوتها من النمو الاقتصادي والابتكار التكنولوجي، وتصبح التكنولوجيا مصدرا للقوة إذا أمكنها اختصار الزمن أو المسافة، أو الفضاء، فالأنترنيت مثلا تعتبر التكنولوجيا الجديدة الأكثر قوة "*[3]. والولايات المتحدة الأمريكية هي صاحبة أضخم وأقوى اقتصاد على مستوى العالم، بفارق كبير على بقية بلدان العالم. فالبلاد بكل المقاييس عملاقة على الصعيد الاقتصادي. حيث بلغ الناتج القومي الإجمالي السنوي لها، نحو 13 تريليون دولار في عام 2006، وفي الواقع، أنها مسؤولة عن نحو 30 في المائة من كل الإنتاج والخدمات

[1] Ibid, p610.
[2] Michael Northcott, Op cit, p18.
[3] روبرت أ. باستور: رحلة قرن (كيف شكلت القوى العظمى بنية النظام الدولي الجديد)، تر هاشم احمد محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010، ص 32.

الاقتصادية في العالم، ولوضع القوة الاقتصادية للبلاد في منظورها الصحيح، نقول انه إذا كانت كاليفورنيا دولة مستقلة، فإنها ستكون القوة الاقتصادية الخامسة في العالم، وتكساس ونيويورك ستكون قريبة من بعضهما البعض أيضا في أفضل عشرة دول[1]. وفي خلال سنة 2013مبلغت حصة الولايات المتحدة من الناتج المحلي الإجمالي في العالم محسوبة على أساس تعادل القوة الشرائية، 19.3 في المائة وبلغت حصة الصين 15.4 في المائة. وفيما يتصل بنصيب الفرد من إجمالي الدخل تختلف الصورة بدرجة أكبر بالطبع: فهي تبلغ في الولايات المتحدة 53101 دولار أمريكي للفرد، في حين تبلغ في الصين 9844 دولارا أمريكيا، أي أن حصة الفرد من إجمالي الناتج العام في الصين أقل من19 في المائة من مثيلتها في الولايات المتحدة[2]. كما أن من بين الدول المائة والخمسة والثمانين (185) الأعضاء في الأمم المتحدة، هناك سبع دول فقط تصدر نصف التجارة العالمية، وتنتج ثلثي إنتاج العام، وتنفق حوالي ثلاثة أرباع نفقات الدفاع في العالم. والولايات المتحدة هي الدولة العظمى الوحيدة في عالم اليوم. ومن بين الاقتصاديات الكبرى المائة (100) في العالم، واحدا وخمسون منها شركات وتسع وأربعون دولا. وأنتجت إحدى هذه الشركات–وهي جنرال موتورز General Motors –سلعا وخدمات في عام 1997 مثل ما أنتجته تقريبا كل دول أوروبا في عام 1900[3].

إلى جانب القوة المادية نجد مؤشر آخر وهو القوة غير المادية، أي القوة المعنوية والتي لا يمكن قياسها كما هو متاح في القوة المادية، غير أن هناك مؤشرات بديلة تبرز تفوق وجاذبية أي دولة مثلا، قوة اليابان غير المادية تنبع من شهرتها كرائدة في مجال التكنولوجيا، والتي تطورت تدريجيا على مدى عقدين بدءا من أواخر خمسينيات القرن العشرين. أما القوة اللامادية للولايات المتحدة فتظهر في المليون مهاجر وخمسمائة ألف طالب، الذين يفدون كل عام إليها. كما هناك دلائل على أن الناس ترغب في الإقامة والتعليم في الولايات المتحدة؛ وتعكس شعبية الأفلام الأمريكية وقناة الـ سي إن إن CNN، تأثير الثقافة الأمريكية على العالم[4]. تؤكد العلاقة بين القوة المادية والقوة غير المادية، أن نجاح أي دولة يجعلها أكثر جاذبية كنموذج، وبالتالي يعزز من صورتها كدولة كبرى، *"وصلت مسرح العالم مع مطلع القرن، ومعها مجموعة من المبادئ الثورية قلبت بها النظام القديم رأسا على عقب. وإن لم تكن قوة الولايات*

[1] Charles F. Gritzner : Op cit, p89

[2] يورغ سورنسن: مرجع سابق، ص 128.

[3] روبرت أ. باستور: مرجع سابق، ص ص 18،19.

[4] المرجع نفسه، ص 35.

المتحدة تدعم هذه المبادئ فلم يكن يستحق لها البقاء. ولو أظهرت الولايات المتحدة قوتها بدون المبادئ فربما كانت ستحل محل إحدى الدول الامبريالية القديمة لكنها لم تكن ستهدم الامبريالية"[1].

3- الهيمنة الثقافية:

بدأ مع العولمة "عصر العالم المتناهي" -على حد تعبير سيرج لا توش-وقد بدأ بوصفه نهاية لتعدد العوالم، هناك عالم واحد يتجه إلى أن يغدو عالما متماثلا، وهذا الانعدام للتمايز بين الكائنات البشرية على مستوى الكرة الأرضية هو في الواقع تحقيق للحلم الغربي القديم، وبالامتثال لطريقة الحياة الأمريكية تكمل الكائنات البشرية إنجاز الحلم الجامح، "لتيودور روزفلت" بأمركة العالم. بل كذلك حلم كل الإمبرياليين وكما يقول "أناتول فرانس"*: الحلم بإنجلترا عظمى، بألمانيا عظمى، بأمريكا عظمى يقودنا مهما شاء المرء أو فعل إلى الحلم بإنسانية عظمى*[2]؛ ففكرة التمركز الثقافي هي جوهر المركزيات الحضارية عبر التاريخ وروح الحضارة الغربية الحالية، التي استطاعت أن تفرض أنموذجها وتوجه التنوع الحاصل على مستوى ثقافات الشعوب والأمم نحو الوحدة والتجانس، إنها مشروع يتجاوز الحدود الجغرافية والمؤثرات الطبيعية كالبرودة والحرارة وطبيعة الأرض، فلقد عرفت الثقافات منذ القديم تقييم ذلك الرصيد الحضاري لمقومات الهوية المحلية والأعراق الشعبية، وحملت تصنيفات الأعلى والأدنى، المتحضر والمتخلف أو المدني والبربري، تقسيمات ثنائية مجحفة، سواء على أساس عرقي أو جغرافي أو ديني، فكانت الثقافة السائدة هي ثقافة المركز المتمدن، ولاشك أن استخدام الدراسات الثقافية للاستراتيجيات والنظريات التي تزحزح المركزيات والأصوليات وأثار الاستعمار وغيرها من الاتجاهات الثقافية والفكرية، هي ذات أصول وأهداف، رأسمالية وفكرية برجوازية .

هكذا فإن الحديث عن النموذج الثقافي الواحد والكلي يحيل مباشرة إلى مقولة العولمة التي تقوم على تعميم الشيء وإكسابه صيغة العالمية وتوسيع دائرته، ليشمل العالم كله ومن هنا جعل العالم أجمع ذا ثقافة واحدة هي الثقافة الأمريكية في طبعتها الحديثة وقيمها التي تجاوزت أو راحت تتجاوز الثقافات والقيم الوطنية الأخرى التي عدتها ثقافات ثانوية لشعوب هامشية. بهذا برزت مركزية أمريكا الثقافية، ورصد لها العديد من الباحثين والمفكرين التنظير والتأييد وحتى النقد والتصدي إلا أنهم وجدوا أنفسهم أمام حقيقة ساطعة لا يمكن تجاهلها، أسست لتربع أمريكا على عرش العالم فما كان منهم إلا أن أجهزوا على ثقافة وفكر بقية العالم. *"وبدأ الأمريكيون ينشرون معتقدات إيديولوجية على*

[1] المرجع نفسه، ص20.

[2] سيرج لاتوش: مرجع سابق، ص 30

نحو مستتر وفي نفس الوقت يقوضون الثقافات الأخرى التي يزعم الأمريكيون أنها هشة ويؤدي ذلك في نهاية المطاف إلى ضرب من الميوعة وهيمنة مراكز التسويق التجارية لتطويع وتشكيل الحياة في كل أرجاء الكوكب الأرضي" [1].

يبرر "جوزيف ناي" الهيمنة الثقافية العالمية الاستثنائية لأمريكا، بامتلاك هذه الأخيرة سمات وخصائص عديدة تجعلها مركزا للعولمة، يقول: *"كانت أمريكا دوما أرض مهجر، وتعكس ثقافتها وتعدد أعراق مجتمعها كثيرا من أرجاء العالم المختلفة. وقد استعارت أمريكا بحرية من شتى التقاليد. وتبقيها الهجرة منفتحة على باقي العالم. ونظرا لحجم الاقتصاد الأمريكي فإن الولايات المتحدة هي أكبر سوق في العالم لاختبار ما إذا كان فيلم أو أغنية أو لعبة ما ستجذب مستمعين متنوعين وبأعداد كبيرة. فالأفكار والبضائع تتدفق إلى داخل الولايات المتحدة بحرية، وتتدفق إلى خارجها بسهولة مماثلة"* [2]. إن "جوزيف ناي" يؤكد في هذا السياق، –من منظوركولن مويزر–على أن أمريكا تمتلك ثقافة استثنائية شاملة وعالمية تعكس تنوع العالم ويقدم الحجة على أنه حين تشمل ثقافة بلد ما قيما وسياسات واهتمامات عالمية كونية يشترك بها الآخرون، فهي تزيد احتمال الحصول على النتائج المرغوبة بسبب علاقات الجذب الواجب توحدها...، هكذا تستفيد الولايات المتحدة الأمريكية من ثقافتها العالمية الشاملة. بهذا يعتبر "ناي" بأن التعددية الثقافية الأمريكية النموذج الأصيل لثقافة عالمية بازغة، إذ يشعر "ناي" بأن المجتمع الأمريكي متعدد الثقافات يشمل ويمتص ويمثل حاليا كل شيء وكل شخص وكل مكان آخر، والثقافة العالمية تعكس ثقافة ذلك المجتمع، مثلما يعكس المجتمع الأمريكي المتعدد الثقافات الثقافة العالمية...هذا ما دفعه للقول بأن: العالم كان، وهو الآن، ويصير أمريكا، فلماذا نكابد عناء تغييره؟[3]. ويقول "جوزيف ناي "أيضا: *"حقيقة أن يرغب الناس في القدوم إلى الولايات المتحدة يعزز الإغراء الأمريكي، فتزايد عدد المهاجرين يعد عملية جذب لأناس من دول أخرى، فأمريكا جاذبة، والكثير من الناس يتمنون في أنفسهم لو كانوا أمريكيين"* [4].

رفع العولمة شعار توحيد القيم والتصورات والرؤى والغايات والأهداف بديلا عن التمزق والتشتت والفرقة، وتقاطع الأنساق الثقافية، جعلها تبدو كأنها تُسقط على تاريخ المجتمعات الإنسانية شروطا جديدة لتغيير مسارها التقليدي، حيث تتمركز تلك المجتمعات حول جملة من القيم والرؤى المحدَدَة، فكانت العولمة بذلك وسيلة لتعميم نزعة

[1] سمير الخليل: مرجع سابق، ص 38.

[2] جوزيف ناي: القوة الناعمة، مرجع سابق، ص ص 72-73.

[3] كولن مويزر: الإمبرياليون الجدد إيديولوجيا الإمبريالية، تر معين الإمام، مكتبة الكعيبان، الرياض، ط1، 2008، ص ص 310-311.

[4] جوزيف ناي: هل انتهى القرن الأمريكي؟، تر محمد إبراهيم العبد الله، الكعيبان للنشر، الرياض، ط1، 2016، ص 73.

الحداثة على مستوى العالم كما أنها تعبر عن نزعة أيديولوجية أفرزها التمركز الغربي الحديث. إذ *"تسعى العولمة إلى تكريس سيطرة دولة واحدة، قطب واحد، على النظام العالمي، أما العالم فيريد تعددا للقطبية ودورا لجميع الدول صغيرها وكبيرها، ضعيفها وقويها، فقيرها وغنيها، في تقرير مصير العالم ونوع النظام الذي يسوده"* [1]، وبهذا تشطر العولمة العالم إلى شطرين، وتعمق بينهما التناقض، عالم تمثله المجتمعات التقليدية، وعالم آخر تمثله المجتمعات الحديثة. لقد ذوبّت نزعات الحداثة والعولمة بعض التخوم الرمزية الفاصلة بين التجمعات القومية والعقائدية، وفكّت الانحباس التقليدي المتوارث فيها، وجذّرت خلافا جديدا تمثله مفاهيم التمركز والتفوق والتفكير بسيطرة نموذج ثقافي على حساب آخر، وهو أمر نشّط مرة أخرى المفاهيم المتناقضة.

إن العولمة ترسم سيطرة دولة واحدة عسكريا وسياسيا، وثقافيا وسيطرتها المالية على السوق العالمية وسيطرة موازية على التكنولوجيا والعلوم والاتصالات والإعلام والثقافة...وغيرها، فتكون العولمة ذات ثقافة واحدة هي الثقافة الأمريكية في طبعتها الحديثة، وقيمها التي تجاوزت أو راحت تتجاوز الثقافة والقيم الأمريكية التي عرفتها أمريكا منذ ثورة الاستقلال حتى وقت قريب[2]. وحسب "صامويل هنتنغتون"، أن سيادة هذه الموجة العولمية المالية وتفكك الدول القومية، قد أفرز نتائج ثانوية منها، ارتفاع أصوات النزاعات الطائفية والثقافية، في ظل هذه الأوضاع الجديدة يشتد عبرها حنين الإنسان إلى خصوصية صميمة وهو يحيا في بيئة متشابكة مربكة تنذر بزوال قضيته العامة، أو خصوصيته القومية[3]، أي أن العولمة تقوم على مبدأ تعميم الشيء وإكسابه صيغة العالمية وتوسيع دائرته ليشمل العالم أجمع. وتهدد في نفس الوقت التنوع الموجود والخصوصيات الثقافية القومية.

ووفقا لما ذكره "كاي نيلسن Kai Nielsen"فإن كلمة عولمة في بحد ذاتها، لا تعني سوى تجاوز الحدود، وإفساد المناطق، وحقيقة أننا نشاهد العالم كله كمكان واحد، وهو الوضع المناسب للحداثة المفضلة من تزايد تداول السلع والرسائل والأفكار والأشخاص. ويرى "نيسلن" أنّه من المناسب، التمييز من الناحية المفاهيمية بين أمرين: أولا، سيكون من الضروري التمييز بين العولمة والعولمة الرأسمالية، التي ستكون الشكل الحالي للعولمة، ولكنها لن تكون أقل من شكل ممكن بين أشكال أخرى. ويمكن أن تحدث العولمة أيضا في إطار اشتراكية عالمية أو اتحاد كوسموبوليتيك

[1] منير شفيق: في الحداثة والخطاب الحداثي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999، ص74.

[2] منير شفيق: في الحداثة والخطاب الحداثي، مرجع سابق، ص74.

[3] صامويل هينتنغتون: مرجع سابق، ص 19.

بمعنى كانط[1]. يضيف "كاي نيلسن" في هذا الصدد، أن هذا الوصف للعولمة لن يكون دقيقا إلا بشكل جزئي، حيث أنه لا يتفق إلا مع شكل معين واحد، وليس مع أي شكل ممكن من أشكال العولمة. ولكن "نيلسن" يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك: فهو لا يرغب في التمييز بين العولمة والعولمة الرأسمالية فحسب، بل وأيضاً بين العولمة الرأسمالية والإمبريالية. إذ أن الامبريالية، التي تتكون من السيطرة الاقتصادية والسياسية والثقافية للعالم من جانب قوة إمبريالية، تجسدها الولايات المتحدة حاليا، ستكون شكلا من أشكال الاستغلال الأكثر تهديدا وخبثا للناس. وحسب "نيلسن"، فإن هذه الإمبريالية هي التي سيستهدفها منتقدو العولمة (الماركسيون أو أنصار العولمة) أكثر بكثير من الرأسمالية في حد ذاتها، حيث أنه من الممكن دائما تصور رأسمالية غير استعمارية وصغيرة الحجم ووجه إنساني[2].

لقد كان المفتاح إلى الرابط بين الإمبريالية والعولمة المعاصرة في القرن العشرين هو دور الولايات المتحدة الأمريكية رغم رفضها القاطع أن ترى نفسها إمبريالية، وبالفعل موقفها العام ضد المذاهب الأوروبية الأقدم للكولونيالية، حتى الحرب العالمية الثانية وبعدها، تبنت الولايات المتحدة الأمريكية بشغف في سياساتها الدولية السيادة السياسية والسيطرة الثقافية والاقتصادية المرتبطة بالإمبريالية[3]. هكذا إذن، أجمع الباحثون الغربيون أنفسهم على ارتباط العولمة بالإمبريالية الغربية التي تتجدد فعليا من خلال مشروع العولمة، كما أنهم لم يخفوا تخوفهم من هذا المد الأمريكي الداعم لبرنامج عولمي عام، تأكيدا على النزعة المركزية الأمريكية لا غير، وسط العالم فحتى أوروبا–مهد المركزية الغربية– وجدت نفسها داخلة في بوتقتة الفكر الأمريكي ونزعته الإمبراطورية الهادفة إلى الهيمنة على العالم، وهو مشروع وحقيقة تكرَّس أكثر من خلال سياستها الخارجية والاقتصادية القائمة على مبدأ الزعامة والفوقوية؛ وإذا كان هذا هو حال أوروبا، فما هو حال عالمنا العربي الإسلامي اليوم في ظل العولمة الأمريكية؟ إذ لا نملك إلا التفرج والبقاء على أطراف العالم وهامش التاريخ. وكما أكد مونت ل.بيرسونMonte L. Pearson في كتابه "مخاطر الإمبراطورية Perils of Empire" أنه قد، عادت كلمة "إمبراطورية" بصورة مفاجئة إلى الحوار العام. إذ كان مفكرو المحافظين الجدد قد زعموا في التسعينيات أن الولايات المتحدة لديها الحق في استخدام القوة العسكرية في الزوايا المظلمة من السياسة العالمية. وقالوا إن الوقت قد حان لكي تتحمل الولايات المتحدة مسؤوليات فرض القواعد في الإمبراطورية. لأن تاريخ البشرية مليء بالشعوب المارقة والحركات السياسية التي استسلمت لإغراء الإخلال بالوضع الراهن حين

[1] Jocelyne Couture, Stéphane Courtois : Regards philosophiques sur la Mondialisation, presses de l'université du Québec, 2005, p 01.
[2] Ibid, p02.

[3] بيل أشكروفت، وآخرون: مرجع سابق، ص 192

شعرت أنها قد تفلت من الأمر[1]. ولأن الفعل الحضاري الإنساني يقتضي تشكيل نظام عالمي، المهمة الرئيسية للدول المركزية فيه–حسب منظِّروا الهيمنة الغربيون–هي الحفاظ على بنية النظام العالمي الحديث، من خلال القيام بدور قيادي نزّاع إلى الهيمنة ضمن نظام مآبين الدول. وثانيا: وبشكل أعم، أن دول المركز هي القوى العسكرية المسيطرة بشكل متفاوت ضمن النظام وهي تستخدم قوتها لتؤدب أولئك الذين يرفضون الانصياع لقواعد اللعبة[2].

هكذا فإن العولمة الأمريكية قامت على معايير أتنتجها منطلقات عالمية من منظمات أو كيانات سياسية أو تكنوقراطية استعمارية جديدة، إنها تعني الهيمنة دون ضغوط عسكرية أو مواقف عنيفة (قوة ناعمة). فالعولمة لا تسقط من السماء، بل هي تطبيع عام مطلوب وفقا لعمليات معينة. ومن بين كل هذه المعايير: التنمية الشاملة التي تشكل تطورا يسمى "التقدم"، في مقابل "التخلف"، فالمجتمعات الغربية هي الأكثر تقدماً في هذه المجالات وقد وصفت نفسها بأنها متقدمة النمو. ونتيجة لهذا فقد أعلنت مجتمعات أخرى عن تخلفها، أي تعاني حالة عدم التنمية؛ ويعرف بيتي روبرتPetty Robert (1987) حالة عدم التنمية بأنها: بلد، أو منطقة نامية لم يصل اقتصاده إلى مستوى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية (معيار التقدم). فإطاره يشير إلى التطور في القرن التاسع عشر الذي رسم مسار الإنسان من الوحشية إلى التحضر. إذن فإن التنمية تشكل أحد الملامح الرئيسية للعولمة. ولذلك، فهي تقدم بوصفها معيارا للتقدم ومؤشرا أساسيا له. وفي هذا الصدد يمكننا أن نواجهه العولمة المعاصرة بالتساؤل عما إذا كانت هناك استمرارية أو تمزق بين المفهومين وما لم تكن العولمة هي عولمة التنمية؟ وللرد على هذا السؤال، من الضروري العودة إلى التاريخ الإيديولوجي للتنمية ووضع هذا المشروع في منظوره الصحيح وطابعه وتطوره[3].

الخلاصة:

نافلة القول أنه، وفق تلك المعطيات السابق نقول أن المركزية الأمريكية واقعة فعلية ناتجة عن تجمع مؤشرا ودلائل القوة في بلاد العم سام، التي نذكرها في مراتب متقدمة جدا في سلم الإحصائيات العالمية للقدرات المادية (العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية) أو اللّامادية (الثقافية والأخلاقية العملية) إذ نلاحظ إن التفوق الأميركي واضح في كل جوانب القوة تقريبا، ما يؤهلها لأن تكون مركز العالم الحواضري بامتياز. إن هذه الأسس العلمية والفلسفية

[1] Monte L. Pearson: Perils of Empire (The Roman Republic and The American Republic) ,Algora Publishing, New York, 2008,P3.

[2] جون بيليس وستيف سميث: مرجع سابق، ص 292.

[3] Bernard Hours et Monique Selim : Anthropologie politique de la globalisation, L'Harmattan, paris, 2010, pp 13-14.

للمركزية الأمريكية، تشكل حجر الزاوية في سبيل تحقيق فرضية علمية استطاعت من خلالها الولايات المتحدة أن تكون مركز ثقل العالم ومحركه نؤكد، تلك المقومات جاءت دلالة على استثنائية أمة وشعب أصبحت أفكاره وأيديولوجياته تحظى باهتمام متزايد سواء بمحاكاتها أو تفسيرها أو حتى انتقادها. وإذا كان هذا الفرض لا يزال قابلا للتحليل والتفكيك، إلا أنه يوفر أداة مفيدة بشكل لفهم شروط الحياة الإنسانية بنظرة كونية. إلا أن هذا المجهود يمثل الخطوة الأولى نحو المزيد من الدراسات والأبحاث التي توضح ما إذا كان مفهوم المركزية الحضارية مطابقاً لوصف المركزية الطبيعية، لتشكيل نماذج موضوعية لهيمنة المركز على أطراف العالم المترامية.

الفصل الرابع

انعكاسات ومستقبل المركزية الأمريكية على العالم

تقديم:

مبادئ الحرية والديمقراطية والمشاريع الحرة وحقوق الإنسان وسيادة القانون...، قيم تمزج بين المثالية والواقعية؛ تلك رهانات القوة الأمريكية للاستمرار في قيادة العالم بصفة انفرادية، لكن هل تسمح الدول المنافسة لها بأن تنفرد بالهيمنة. على أي نحو سيتشكل مستقبل العالم؟ هل وفق منظور أحادي أم متعدد؟

إن تصاعد مستويات القوة بين الدول، وتسابقها نحو التفوق في تكنولوجيا الصناعات العسكرية والمدنية، والاقتصاد، وكذا تأمين نفسها من مخاطر وأزمات متوقعة، يجعل عالم اليوم يتشكل وفق رؤية جديدة، قد تختلف عن نسخة العالم عقب نهاية الحرب الباردة (أحادية القطب والايديولوجيا)، غير أن ملامحه لا تزال مجهولة، إنه يبدو عالما أحادي القطب من الناحية العسكرية، تسيطر عليه الولايات المتحدة؛ وهو عالم متعدد الأقطاب من الناحية الاقتصادية بقيادة الولايات المتحدة. وإذا كان في الوقت الراهن لا توجد نية مباشرة وصريحة بتزعم المعالم، فهل ستبقى الهيمنة العالمية الأميركية دون تحديات في السنوات القادمة؟ ولأنه تأكد تاريخيا أن النشوء والسقوط طال جميع القوى والإمبراطوريات القديمة، مثل إسبانيا، فرنسا وبريطانيا العظمى؛ إذ كلها نشأت وارتقت ثم بلغت ذروتها، وبعدها سقطت لأسباب عديدة، ولو أن أهم سببين في سقوط الحضارات الكلاسيكية واضمحلالها هما الأزمة الاقتصادية والتدهور العسكري. هكذا كان حال اسبانيا أيام "فيليب الثاني" وحال فرنسا أيام "لويس الرابع عشر". وحال بريطانيا العظمى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية؛ هل سيقف العالم على طرفي نقيض مركز/هامش مرة أخرى؟ وما احتمالات تحول المركز الحضاري من الغرب إلى الشرق؟

المبحث الأول: انعكاسات المركزية الأمريكية على العالم

أولا: الرؤية الأمريكية للعالم:

فلسفة أمريكا العالمية عولمية شمولية كونية، متفوقة وريادية قبل أن تصبح هيمنية ومركزية، أن تبلغ أمريكا الزعامة والتربع على عرش العالم حقيقة مدركة، ولكن هل يمكن البقاء في القمة؟ وهل بوسع أمريكا دحر القوى المناهضة على عرشها؟ هل بوسع أمريكا فرض منطقها العولمي في ظل تكتلات تنبئ بتصعيد عالمي شرس قد تؤول نتائجه إلى إحداث انقلاب عالمي مشروع؟ هذه قلة من كثرة تساؤلات تستوقفنا ـ على الأرجح لتفكيك تداعياتها ومدخلاتها المباشرة وغير المباشرة ـ لغرض إحالتها على عقول الناظرين من فلاسفة الحضارة، والمؤرخين ونقاد إفرازات التحولات

العالمية، إذ يرتقي خلالها العقل الفلسفي والعلمي محللا ومعللا استراتيجيات فاعليات النماء الحضاري متداخلا مع تعقيدات الصراعات البينية والمتكثرة بإزاء خلخلة أمركة العالم، وإعادة بناء النظام العالمي الجديد. لا ريب أن الولايات المتحدة الأمريكية على دراية بمخاطر السجالات الحضارية الراهنة وقد آن الأوان لتختبر نبوءات الخبراء، ومن ثمة فرض منطق التحدي الراهن عبر مقاربة استراتيجيات انبعاث النماء الذكي في عالم القرن الحادي والعشرين، الذي ترتجيه أمريكا أحادي القطب (أمريكا سيدة العالم)، "*والمهمة الرئيسية هي الحفاظ على البيئة الأمنية العالمية التي تناسب المصالح والقيم الأمريكية وتأمين وتوسيع مناطق السلام الديمقراطية لردع ظهور قوة منافسة جديدة، والدفاع عن مناطق النفوذ في أوروبا وشرق آسيا والشرق الأوسط والحفاظ على التفوق الأمريكي من حروب واستغلال التكنولوجيا الجديدة في إطار القيادة الأمريكية للعالم كضمان للسلام العالمي*"[1]. وجاءت أحداث سبتمبر التي طالت الولايات المتحدة لتساهم في تعميق الجدل بصورة أكبر حول مستقبل العالم والنظام الدولي الجديد، حيث ركزت كتابات الباحثين داخل الولايات المتحدة وخارجها منذ وقوع تلك الأحداث على شكل النظام الدولي، وما إذا كان ينزع إلى التعددية أم الثنائية القطبية بين الولايات المتحدة والصين، أم إلى حالة اللّاقطبية التي يتساوى فيها نفوذ الدول الكبرى مع المؤسسات الدولية والدول الإقليمية، وكيف ستتعامل الولايات المتحدة مع هذا التغير الجوهري في بنية النظام الدولي[2]. لقد فتحت أحداث 11 الحادي عشر من سبتمبر صفحة جديدة في تاريخ النظام العالمي، الذي تتزعمه الو.م.أ منذ بداية تسعينيات القرن الماضي، لتتحرر من القيود التي أعاقت شعبها لتوسيع الهيمنة، واعتبرت أحداث سبتمبر من المنظور الأمريكي نقطة انعطاف حاسمة في تاريخها المعاصر من أجل تغيير النظام الدولي، والمقصود به تغيير في قواعد إدارة العلاقات الدولية، وتغيير في أنظمة بعض الدول التي تشكل عضوية النظام الدولي[3]. كما أصبحت الأولوية للسياسة الخارجية الأمريكية بعد تلك الأحداث وما اقتضته من مقاومة الإرهاب، واتخذت لتحقيق هذا السبيل سلسلة من الإجراءات والقيود لأجل لم شمل الداخل، وحماية نفسها عقب تلك الأحداث، أهمها: وضع القيود على التنقلات، التأشيرات، بالإضافة إلى الأساليب الخاصة لمواجهة الهجرة غير الشرعية، وتم تطبيق نظام جواز السفر الالكتروني، والرقابة على شركات الطيران، وعمليات التنصت وصولا إلى مرحلة الانتقال إلى مناطق الإرهاب والتدخلات المباشرة في العراق وأفغانستان والسعي إلى تغيير النظم من خلال ثورات الربيع العربي[4].

---

[1] سالي نبيل الشعراوي: العلاقات الصينية الأمريكية وأثر التحول في النظام الدولي، العربي للنشر والتوزيع، ط1، 2018، ص 86.

[2] المرجع نفسه، ص 85.

[3] المرجع نفسه، ص 81.

[4] سالي نبيل الشعراوي: مرجع سابق، ص 82.

هي الرؤية الاستشرافية الأمريكية التي لا ينازعها فيها أحد، منطوق مقولتها العلنية: لقد أضحى العالم مقسما إلى محورين: محور الخير (الذي تتصدره هي)، ومحور الشر الذي يتضمن أعداءها مثل كوريا الشمالية وإيران والعراق قبل غزوها عسكريا"[1]، ذاك هو خطاب سلطان العالم إلى العالم، الذي وضع خطته الرئيس "جورج بوش الابن"، وقد اتخذه ذريعة لمحاربة الإرهاب العالمي العابر للقارات، فقال: *" سوف نخلص العالم من الأشرار...، الولايات المتحدة في العراق وأفغانستان لا تسعى إلى ملاحقة الإرهابيين فحسب بل إلى إقامة نظام عالمي جديد، يتم تصوره وفقاً لمبادئ الحق والحقوق المجردة"* [2].

إن المحافظين الجدد يسعون لتحقيق السلام الديمقراطي في المستقبل للحفاظ على الليبرالية في الخارج، فتحول المحافظين الجدد من اليسار نحو اليمين تبعه أيضا تحول من الاهتمام بالسياسة الداخلية إلى الاهتمام بالسياسة الخارجية، وأتاحت لهم الفرصة بعد أحداث سبتمبر، لقيادة الولايات المتحدة، نحو مشروع الإمبراطورية المنفردة في العالم، وتغيير قواعد العلاقات الدولية من منهاج التوازن إلى العمل بمنهاج الأجندة الخاصة، بالمصالح الأمريكية كسياسة جديدة لنهج جديد لنظام أحادي القطب[3]، يؤيد المحافظين الجدد توسيع نطاق السلطة التنفيذية لأمريكا. ويريدون لهذه الدولة القوية أن تنتهج سياسة خارجية توسعية، بأن "تصنع المتاعب" في العالم-كما يقولون-وهم يأملون ويخططون لتأسيس نظام عالمي جديد مثيل لنظام الإمبراطورية الرومانية، كما يدركون أن النظام العالمي الجديد لن ينشأ بموافقة المحكومين بل عن طريق القوة، لأن القوة العسكرية تشكل ضرورة أساسية لسياسة خارجية قوية، من أجل صياغة السلام وفق المنظور الأميركي[4]. كما إن استخدام العنف لتحقيق أهداف المجتمع الأمريكي كما تدركها نخبتهم السياسية الحاكمة في لحظة تاريخية ما، يعد جزء أساسي من النظرة الأمريكية للعالم، فالولايات المتحدة الأمريكية لا تريد فقط أن تستعمر الحاضر، ولكنها تسعى بقوة إلى استعمار المستقبل، ونعني بذلك تشكل مستقبل الإنسانية جمعاء وفقا لنظرتها إلى العالم، وهي نظرة تنطلق من مسلمة بسيطة، وان كانت بالغة الخطورة وهي أن أمريكا هي صانعة الوجود الإنساني بحكم إرادة الله ومنطق التاريخ[5].

ثانيا: الكنيسة الإنجيلية الجديدة:

[1] بشير عبد الفتاح: مرجع سابق، ص 100.

[2]Anne Norton: Leo Strauss and the politics of American Empire, Yale University press, London, 2004, p176.

[3] بشير عبد الفتاح: مرجع سابق، ص ص 106-107.

[4]Anne Norton, Op cit, p179.

[5] بشير عبد الفتاح: مرجع سابق، ص 100.

حينما يستلب الدين في قداسته يصبح خاضعا لسلطان العقل، فيُستحال الإيمان بالدين إلى إيمان بقداسة العقل. على منوال ذات الاستحالة نهج الإنجيليين الجدد نسخ عقيدتهم تماشيا مع مقتضيات الإصلاح الديني البروتيستانتي. الإنجيلين الجدد هم طائفة من أتباع المذهب البروتستانتي، يؤمنون بتطبيق الصارم للإنجيل ويشكلون ربع سكان الولايات المتحدة. ظهروا مع ما يسمى حركة الإصلاح الديني مع مارتن لوثر في القرن السادس عشر، حيث أخذ أتباع هذا المذهب بالتفسير الحرفي للإنجيل. أما كلمة إنجيلي، فهي الترجمة العربية الشائعة لمصطلح Evangilicalويقصد بها في الولايات المتحدة الأمريكية كل الطوائف المسيحية البروتستانتية التي تميزت عن البروتستانت التقليديين بعدد من المعتقدات، أبرزها: هو إيمانهم بمفهوم الولادة الثانية وولادة الروح. والسعي إلى تحقيق كافة النبوءات الواردة فيه والخاصة باليهود، والمعتقدات التراثية المتعلقة بمدينة المقدس والأقصى ومعركة "ارمجدون*Armageddon "...وغيرها. أما الإنجيلية الجديدة Neo-Evangiliclismفهي طائفة وليدة التحدي الداخلي للإنجيلية، بسبب صعود البروتستانتية الليبرالية، التي كانت قد تأثرت بالعلمانية والعلوم الحديثة، وحينما أصبحت هذه الصيغة من البروتستانتية هي الخط الرئيسي الأكثر شهرة في أمريكا، فقد جاءت ردة فعل الإنجيليين في مسارين مختلفين،كان أولهما مسار التوجه نحو الأصولية، التي كانت مخلصة للعودة إلى أرثوذوكسية إنجيلية، بينما كان الآخر مسار التوجه نحو الإنجيلية الجديدة، التي حدده أسسها هارولد أوكينجا Harold John Ockenga (1905-1985) -آخر مؤسسيها- على النحو التالي: الإنجيلية الجديدة تعتنق الأرثوذوكسية الأصولية في كاملها، لكنها تبدي وعيا اجتماعيا ومسؤولية هي غائبة على نحو غريب في الأصولية، تهتم الإنجيلية الجديدة، لا بالخلاص الشخصي والحقيقة المذهبية والمرجع الخالد فحسب، بل أيضا بمشكلات العرق والحرب والصراع الطبقي والتحكم في الكحول، وانحراف الشباب والخلود والامبريالية القومية...،تؤمن الإنجيلية الجديدة بأنه لا يمكن للمسيحيين أن يتخلوا عن مسؤوليتهم في الساحة الاجتماعية[1] .

* معركة هرمجدون أو أمجدونArmageddon، تعود الكلمة في أصلها إلى العبرية، حيث يعني المقطع الأول(هرما) جبل أو تل، ويعني المقطع الثاني(جيدون) وادي بفلسطين، وقد ورد الإشارة إلى هذه المعركة في مواضع عديدة من الكتاب المقدس، ففي سفر الرؤيا (16/16) " وجمعت الأرواح الشريرة جيوش العالم كلها في مكان يسمى هرمجدون"، ويعتقد من يؤمنون بهذه المعركة من المسيحيين أن المسيح سينزل بعد حدوث هذه المعركة النووية ليأخذ أتباعه ويعيش معهم بسلام لمدة ألف عام قبل قيام الساعة. نقلا عن علي عبد الجليل علي: الحرب على العراق (رؤية توراتية يهودية)، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2004، ص 131.

[1] فيكتور بولمر توماس: إمبراطورية في حالة تراجع (الو.م.أ بين الماضي والحاضر والمستقبل)، تر توفيق سخان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2022، ص 317.

مرتكز الإيمان الدِّيني في العقيدة الإنجيلية إنما يتقرر باعتبار السلطة العليا للكتاب المقدس، والكنيسة لا ترتقي إلى مستوى الوحي، كذا تختلف الكنائس الإنجيلية عن الكنائس التقليدية في ترسيخ مفهوم السلطة الروحية، لهذا تسمى بالكنائس الإنجيلية؛ لأنها تؤمن بتسليط مطلق وأسمى للكتاب المقدس، باعتباره أسمى من التقليد الكنسي ولا يجوز ممارسة أي من الطقوس تتعارض مع تعاليم الكتاب. إن الخطاب الديني للكتاب الجديد أهم من أقوال الكتاب وأهم من تاريخ الكنيسة، ببساطة لأنه موحى به من الله وهو معصوم عن الخطأ. *"ويؤمن الإنجيليون الأمريكيون بالتميز، وبالقدر الخاص لبلادهم "المباركة من قبل الرب" غير أن هذه المباركة تستوجب بالمقابل واجبات ومسؤوليات إزاء العالم، حيث يعتبرون أنهم أمة مباركة من قبل الله، لابد عليها أن تعمل فوق مصالحها الخاصة والدفاع عن القيم والحقوق العالمية"*[1].

ولما كانت الكنيسة البروتستانتية حركة إصلاحية رافضة لما آلت إليه النصرانية على يد الأرثوذوكسية والكاثوليكية، فمرد ذلك إلى اعتقاد منهم بأنها تأصيل وجيه لعمق الحقيقة الإيمانية التي اهتدى إليها العقل الإصلاحي الجديد. وإذ تنزع إيمانيا إلى تقويم إنجيلي، فإن المقصد الجوهراني الأهم في ذلك هو استرجاع العمق التوراتي في الفكر النصراني، والعودة القوية للعهد القديم، الذي عرف تطورا آيلا إلى حال أكثر تطرفا على يد طوائف منبثقة من المذهب البروتستانتي. كان مولده في أحضان الفرع الإنجيلي، وستكون صورته الأكثر تطرفا للولايات المتحدة الأمريكية، *"ومع حلول نهاية القرن العشرين، كان حوالي 30 بالمائة من السكان الأمريكيين، أي حوالي 100 مليون نسمة، يصنفون على أنهم إنجيليون"*[2]، على اختلاف ديانتهم وأعراقهم، وتقوم عقيدتهم على الإيمان الحرفي بما في العهدين، وتُقام طقوس الصلوات عندهم في تجمعات كبيرة غالبا ما تشبه صلوات احتفالية بموسيقى الروك، وتمتلك هذه الحركة قنوات تلفازية، ومجلات تدر مداخيل خيالية من جيوب المنتمين إليها، كما *"أن أفلامهم أعطت الطائفة الإنجيلية إطارا مرجعيا يمكن من خلاله فهم سيرورة العلمنة الجارية في الثقافة الأمريكية"*[3]؛ لهذا تمت مساعدة الإنجيليين المحافظين على التكيف مع الحداثة من خلال إعدادهم للحروب الثقافية. كما طُبعت لهم مئات الكتب، بيعت منها ملايين النسخ، ولا تقتصر هذه الحركة على النشاط الطقوسي، والدعوي في أمريكا فحسب، بل تجاوزته إلى دول قريبة وبعيدة. حيث

[1] بهلول نسيم وآخرون: التطرف الديني (رؤية دينية أمنية وسياسية)، أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2014، ص 252.

[2] فيكتور بولمر توماس: مرجع سابق، ص 319.

[3] أندرو هارتمان: حرب من اجل روح أمريكا (تاريخ الحروب الثقافية)، تر عمار جمال، دار كتب خان للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2017، ص 113.

"ساهمت البعثات التبشيرية الأمريكية، خصوصا الإنجيلية منها في تكوين جالية في الخارج، تعي جيدا ما على الولايات المتحدة أن تقدمه، وفي بعض الحالات تبدي تعاطفا مع أهداف السياسة الخارجية الأمريكية"[1]. لأن المهمة الأولى بالنسبة للعقيدة الإنجيلية الجديدة هي التبشير، ومرجعيتهم في ذلك هو الإنجيل، الذي حثهم فيه المسيح، على السفر، ونشر الخبر السعيد لباقي العالم، ووفقا لذلك انتشرت هذه الحركة في حوالي 150 بلدًا. كما نشير إلى أن أكبر دولة انتشر فيها الفكر النصراني الإنجيلي، بعد الولايات المتحدة الأمريكية هي غواتيمالا، إذ بلغ عدد الكنائس فيها نحو 18 ألف، بمئات القساوسة الذين يعدون بمثابة الأنبياء الموحى إليهم. لهذا لا نستغرب أن تكون غواتيمالا ثاني دولة تنقل سفارتها إلى القدس المحتلة، بعد إعلان ترامب. وهو دليل على التأثير القوي لهذا الفكر في صناعة السياسة، مع التنبيه على أنهم يعدون العهدين كتابا سياسيا من الدرجة الأولى[2].

تلعب الكنائس الإنجيلية في الولايات المتحدة الأمريكية دورا اجتماعيا رئيسيا وتطبع الحياة الاجتماعية بطابعها، ولاسيما في المناطق الريفية، فهي تدير المدارس والجامعات، وتقيم المهرجانات الموسيقية، والحفلات الدينية، وتنشر رؤيتها المحافظة والرافضة للعديد من الأمور التي تفكك المجتمع، كالإجهاض، والجنس قبل الزواج، والمثلية الجنسية، كما تتوعد الخارجين عن خطها بنار جهنم، ولكنهم ممن يأخذون حقهم في الدنيا قبل الآخرة، فقاموا بتشكيل ميليشيات شبه عسكرية يدافعون بها عن أنفسهم، بقوة السلاح*، ضد غير المؤمنين والشيوعيين والمسلمين. حيث *"تنطلق هذه الرؤية عن فرضية مفادها أن الصراع مع العالم الإسلامي، هو بالأساس صراع أفكار وأن التحدي الرئيسي الذي يواجه الغرب يكمن فيما إذا كان العالم الإسلامي سوف يقف في مواجهة المد الجهادي الأصولي، أم أنه سيقع ضحية للعنف وعدم التسامح"*[3].

لقد أضحت الإنجيلية الأمريكية الجديدة مركزية، نافذة بتشريعاتها وقراراتها الصارمة، التي أبانت عن ضرورة مقاربة شرائعها مع ما تقتضيه السياسة الأمريكية داخليا وخارجيا، ولنا أن نعدُّها أكثر الطوائف الدينية تأثيرا في

---

[1] فيكتور بولمر توماس: مرجع سابق، ص 320.

[2] بهلول نسيم وآخرون: مرجع سابق، ص 251.

*أظهر استطلاع الرأي العام الأمريكي أجراه معهد بيو للاستطلاعات الرأي في مارس 2003 قبل أيام قليلة من الحرب على العراق، أن نسبة 77 بالمائة من الإنجيلين البيض، يؤيدون استخدام الو.م.أ للقوة العسكرية للإطاحة بنظام حكم صدام حسين واعتبر تيم لاهاي، أحد أبرز الإنجيليين المقربين من الرئيس بوش اعتبر بأن الحرب سواء في أفغانستان أو العراق ضرورية وفيها صنف الإسلام إلى عدة أصناف، أهمها الإسلام المعتدل. نقلا عن رائد العزاوي: أمريكا والإسلام والإرهاب، مرجع سابق، ص 55.

[3] رائد العزاوي: أمريكا والإسلام والإرهاب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2009، ص 56.

القرارات السياسية الأمريكية، والمحرك الأساسي لها. *"إذ تؤثر الكنائس الإنجيلية والقساوسة في بلورة رأي هذه الشريحة الاجتماعية، التي شكلت قاعدة انتخابية رئيسية للرئيس بوش، والمحافظين الجدد، وذلك من خلال الترويج للفكرة التي تعتبر أن الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة جورج بوش (القائد المتدين والتقي الورع) تعمل على تطبيق مشيئة الله في الأرض"*[1]. ولا ريب أن وعيا خلاقا قد استتب في عقول الإنجيليين المعتنقين لمذهبهم، إيمانا منهم بأنه سيجلب لهم ما يستوجب إسعادهم، وذاك مؤشر جلي لترسيخ استئناس السياسة الأمريكية من النماء الفكري والروحي للكنائس الإنجيلية في مستويات عديدة، كان وصال الإنجيليين بالألفة والصداقة حافزا لشيوع التمذهب الجديد، وفي الوقت ذاته صارت هذه الكنائس أكثر فاعلية في التأثير على السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية ذاتها. وإضافة إلى روابط الصداقة التي جمعت طوائف الإنجيليين على اختلافاتها بالرؤساء الأمريكيين، تبلورت علاقات رسمية إضافية عبر مرور الأعوام بين الكنائس الإنجيلية والحكومة الفيدرالية، كما أن الكنائس غدت ماهرة في ممارسة الضغط على مجلس الكونغرس. حيث قام الإنجيليون بدور كبير في إقناع الرئيس جورج بوش الابن (2001م-2009م)، بزيادة المساعدات الإنسانية خصوصا في إفريقيا، ومع نهاية فترة بوش الرئاسية كانت الكنائس الأمريكية -بما فيها الكاثوليكية والبروتستانتية-تنفق 13 مليار دولار أمريكي في المساعدة والتنمية فيما وراء البحار، وبلغت إنفاقات الحكومة الفيدرالية 29 مليار دولار، ما يبيّن زيادة كبيرة قياسا بأعوام ماضية. وفي سنة 1950 تأسست منظمة شباب من أجل الإنجيليين المسيحيين، تدعى منظمة "الرؤيا العالمية"، اهتمت في البداية برعاية الأطفال عبر العالم (ضحايا الحروب)، وبعد مؤتمر لوزان في سنة 1974م، داع صيت هذه المنظمة، وسرعان ما تبلورت علاقات وثيقة بينها وبين الكونغرس والإدارة، فبدأت تسلم المنظمة منحا مالية كبيرة، نقدا وعينية، وهي موجودة اليوم في حوالي 100 دولة عبر العالم، وتعتبر المنظمة الإنجيلية الأكبر في تقديم الإغاثة والتنمية في العالم[2].

ثالثا: البرجوازية الأمريكية ورؤيتها للتاريخ:

لقد تشكل المشهد الثقافي والتاريخي الأميركي بفعل الروح والامتيازات والممارسات التي انتهجتها إحدى أقوى النخب الاقتصادية في القرن التاسع عشر على مستوى العالم، وهي البرجوازية الأميركية. جمعت البرجوازية الأميركية في القرن التاسع عشر بين الأشكال المألوفة من القوة الاقتصادية والسلطة السياسية، وبين أشكال جديدة من النفوذ الثقافي: فالمتاحف، والأوركسترا الفيلهارمونية الملكية Royal Philharmonic Orchestra، والأوبيرات...، التي

[1] المرجع نفسه، ص 55.

[2] فيكتور بولمر توماس: مرجع سابق، ص ص323،321.

أنشأوها تبقى شاهدة عليها حتى يومنا هذا، ولهذا السبب لم يظهر في أي مكان في العالم برجوازية مؤثرة كتلك التي في المدن الأمريكية، مثل نيويورك، بوسطن، فيلادلفيا، شيكاغو، وسان فرانسيسكو[1].

وبعد أن جمع البرجوازيين الأمريكيين، ثروات هائلة من التجارة والتصنيع والخدمات المالية، مارسوا تأثيرا كبيرا على الكيفية التي يعمل ويعيش بها المواطنون، وأنماط ممارسة الحكم. هذه القوة الاقتصادية أصبحت أكثر تركيزا–من أي وقت مضى–في أيدي قلة من الأمريكيين المحددين وهم عائلات –أمثال كارنيغي (Carnegie)، روكفيلر(*Rockefeller*)، ومورغان(Morgan)، وغيرهم –جمعوا بعض أكبر الثروات في العالم. وباعتبارهم نخبة اقتصادية، مارسوا أيضا قدرا كبيرا من النفوذ السياسي والسلطة، واستمالت المجالس التشريعية لصالحها، وتحديد أجندات الأحزاب السياسية. والواقع أن الدولة الأميركية كانت منظمة على نحو سمح بالمزاوجة بين القوة الاقتصادية والسياسية، وتعتمد قدرة هؤلاء على تأسيس ثقافة ووعي طبقي، ووضع خريطة للممارسات والامتيازات الفكرية والاجتماعية[2]. لقد أضحى جليّا تميّز البرجوازية الأميركية في القرن التاسع عشر، إذ جمعت بين القوة الاقتصادية والسلطة السياسية، وبين أنماط جديدة من أشكال النفوذ الثقافي. كما أن اتساع رقعة الفكر البرجوازي في أمريكا، بفضل تطبيقاته في المؤسسات التعليمية والاجتماعية، أدى إلى زيادة حدة الشعور بالتميز، الذي يمكن أن يكون أساسا لإقامة الشبكات الاجتماعية. التي تعزز روابطها الأنشطة الثقافية والعلاقات الأسرية، وأن تعمل أحيانا كأساس للتعبئة الجماعية في صراعات العمل أو السياسة. وعلاوة على ذلك، أمكن تعميم هذه الثقافة الطبقية، وأن تكون بمثابة نموذج للفئات الاجتماعية الأخرى الطموحة. لقد حاول البورجوازيون الأمريكيون وضع المعايير الثقافية للأمة ككل، رغم أنهم في هذا المشروع كثيرا ما واجهوا مقاومة ومنافسة من مواطني الطبقة المتوسطة والطبقة الدنيا[3].

وفي مستهل مطلع القرن الحادي والعشرين، أضحى مصطلح (برجوازية) متضمنا لفكر أنموذج يصف بدقة وفعالية مجموعات من الأمريكيين الذينتتداخل الثقافة لديهم مع رأس المال. لقد كانت البرجوازية الأميركية تسيطر على ثروات ضخمة، ولم تكن تعمل بأيديها، أو براتب. وعلى هذا الأساس فإن الغالبية العظمى من الأميركيين (عمال مأجورون وعبيد، وحرفيون ومزارعون، وأغلب أصحاب الأعمال التجارية الصغيرة)، لم يكونوا قط جزءا من البرجوازية. وبدلا من ذلك، كانت البرجوازية الأميركية تتألف من التجار، والمصنعين، والمصرفيين، في حين ظل مهنيون مثل

[1] Sven Beckert, Julia B. Rosenbaum: The American Bourgeoisie (Distinction and Identity in the Nineteenth Century), Publisher Palgrave Macmillan, New York, 2010, p1.
[2] Ibid, p1.
[3] Sven Beckert, Julia B. Rosenbaum, Op Cit, p2.

المحامين ومديري المهن على الهامش. كان كل الأميركيين البرجوازيين تقريبا يقيمون في المدن، وليس في الريف، وكانت الغالبية العظمى منهم تعيش في المراكز الحضرية الكبرى في ذلك الوقت. ولأن هذه المجموعة لم تضم أصحاب متاجر أو حرفيين صغار، أو معلمي مدارس أو موظفين، فإنها لم تكن طبقة متوسطة، بل طبقة سامية، لهذا فإن الديمقراطية البرجوازية تعني هيمنة طبقة، أو قل أقلية على الأغلبية. لهذا لم تبدي البرجوازية طيلة القرن التاسع عشر، حماسا يذكر تجاه المؤسسات الديمقراطية الحقيقية. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر كانت أميركا تشكل حيزاً مقدساً من الحرية، حيث كان الناس يهتدون بالعناية الإلهية لكي يتحولون إلى أمة جديدة، ولأول مرة تعرض في تاريخ البشرية نظام عالمي جديد، والواقع أن هذه الرؤية أثرت في العالم ككل[1]. وفق هذه الإيديولوجية الاقتصادية استحوذت حكومة واشنطن على سلطات عديدة ومسؤوليات متزايدة، من خلال دفع الحركة الصناعية للنظام السياسي إلى المركزية أو التمركز، ما أدى إلى احتكار مراكز اتخاذ القرار في المركز في ذاته[2].

وتبعا لتلك الرؤية التاريخيةتشكل النظام الاقتصادي العالمي على يد أمريكا، والذي قسم العالم إلى مركز وأطراف غذت فيه أمريكا نواة مركزية، مهيمنة، تستغل من هم على الأطراف من المجتمعات الأقل تطورا؛ وقد أحدثت تلك الهيمنة موجة انتقاد شديدة من طرف أتباع الماركسية في العالم الشرقي أمثال (لينين)، إذ خلق هذا النظام تباعد بين طبقتي البروليتاريا والبرجوازية، وزاد من مكاسب الفئة الأخيرة، وهمش الطبقة العاملة، *"لهذا حدث انقسام بنيوي بين النواة المركزية والأطراف، وفق تحليل لينين هو الذي يحدد طبيعة العلاقة بين البرجوازية والبروليتاريا في كل بلد على حدا لأنه لم يعد هناك تناغم تلقائي في المصالح بين فئات العمال كافة، واستطاعت البرجوازية في دول النواة أو المركز أن تفيد من المكاسب الناتجة عن استغلال الأطراف لتحسين ظروف البروليتاريا داخلها، بعبارة أخرى إن رأسماليي النواة يمكنهم تهدئة –وبكلمة أكثر صراحة (شراء) – الطبقة العاملة في بلادهم من خلال المزيد من استغلال دول الأطراف"* [3]. أي أن التحليل اللِّينيني يقسم إمبريالية الاقتصاد العالمي إلى نواة مركزية (قد تتشكل من مجموعة من الدول) وهوامش أو أطراف، تستغل فيه الأولى الثانية، وتستخدم بعض المكاسب الناتجة عن استغلال دول الأطراف لتحييد عملها وكسب صمتها. *"ومقولة الثورة البورجوازية التي يمثل لها الماركسيون بالثورات الانكليزية والأمريكية والفرنسية، تكاد*

[1] Ibid, p2.

[2] ألفين توفلر: مرجع سابق، ص 67.

[3] جون بيليس وستيف سميث: مرجع سابق، ص 269.

تختزل عندهم صيرورة التحول من القرون الوسطى إلى الحداثة في الغرب. أما الثورة البروليتارية فهي التي ستعقب الثورة البرجوازية ضرورةً على طريق الصيرورة إلى المجتمع الشيوعي وتلك هي الحتمية التاريخية" [1].

وفق هذا المنظور تتشكل الرؤية الأمريكية للعالم، إذ ليس ثمة ما يجيز تسويغ فصل إيديولوجية الهيمنة الأمريكية عن توجهاتها الاقتصادية، التي تحمل في ثناياها بذور العقيدة البروتستانتية الكالفينية، القائمة على الحرية الفردية والعدالة الليبرالية، ومتأثرا بالثورة البرجوازية، الحاملة لنزعة علمنة الحياة الاجتماعية وقيم النزعة الفردية، لهذا فإن البروتستانتية استطاعت أن تفرض منطقها وأيديولوجيتها على جميع أفراد المجتمع، بما فيها صناع القرار من السياسيين والمسؤولين؛ لهذا ذاع صيت الرأسمالية في العالم. ما جعل ماركس يعتبر –قبل فيبر–أن البروتستانتية "دينا برجوازيا"، وحسب رأيه، فلقد لعبت البرجوازية دورا مهما في انبثاق الرأسمالية الليبرالية –ورد هذا في كتابه رأس المال–وبناء على قاعدة مؤداها أن أفكار الطبقة السائدة هي في كل الأزمنة الأفكار السائدة، فإن الطبقة التي تسيطر ماديا في مجتمع ما هي أيضا القوة المسيطرة على المستوى الإيديولوجي[2]. لهذا فإن النزعة البرجوازية شكلت ملامح النظام الاقتصادي الأمريكي المتمثل في الليبرالية، وجعلت منه أحد أقوى الاقتصاديات في العالم وأكثرها ابتكارا في العالم؛ *"فالبرجوازية الأمريكية كانت تتميز عن كل الطبقة الرأسمالية العالمية بثقة كلية بمستقبل المشروع الحر. كل هذه الأزمات كانت بمثابة ضربات أليمة في البناء التكويني للجهاز الرأسمالي الضخم الذي بناه الكلاسيكيون في أعقاب الثورة الصناعية"* [3].

لقد شكلت البورجوازية الليبرالية الأمريكية نظاما عالميا جديدا نواته أمريكا وأطرافه بقية العالم، وهو نظام يشبه إلى حد ما، النظام الإمبراطوري، في هذا السياق، يعتقد "وورلشتاين" أن التاريخ قد شهد نمطين من النظام العالمي هما: الإمبراطوريات العالمية والاقتصاديات العالمية، والتمايز الوحيد بين إمبراطورية عالمية واقتصاد عالمي يتعلق بآلية اتخاذ القرارات في شأن توزيع الموارد، أي بشكل عام من يأخذ ماذا؟ ففي نظام الإمبراطورية العالمية يمكن للنظام السياسي المركزي أن يعيد استخدام سلطته لتوزيع الموارد من مناطق الأطراف تجاه منطقة النواة المركزية، وقد أخذت هذه الآلية أيام الإمبراطورية الرومانية، شكل دفع الضرائب من أطراف الإمبراطورية نحو مناطقها الوسطى والمركزية، وبخلاف ذلك نجد أنه ليس هناك سلطة مركزية سياسية واحدة في نظام الاقتصاد العالمي، إنما نجد مراكز قوى متعددة ومتنافسة.

[1] سهيل الحبيب: العلمانية من سالب الدين إلى موجب الدولة (راهنية مشروع بشارة عربيا)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2019، ص 250.

[2] دانيال هيرفي وجون بول ويليام: مرجع سابق، ص ص 33-35.

[3] خالد أحمد علي محمود: اقتصاد المعرفة وإدارة الأزمات المالية، دار الفكر الجامعي، الاسكندرية، ط1، 2019، ص 65.

وعلى الرغم من أن آلية توزيع الموارد في النمطين مختلفة، إلا أن الأثر المحض في كل من الاقتصاد العالمي والإمبراطورية العالمية متشابه من حيث انتقال الموارد من مناطق الأطراف نحو المركز[1].

المبحث الثاني: مستقبل المركزية الحضارية في العالم

أولا: نقد مركزية المركز الحضاري

على نحو ما فسّرت نظريات التاريخ والحضارة صعود حضارات وأمم وهيمنتها على العالم في زمان ومكان معينين، فإن النظريات ذاتها تنبأت بسقوط وانهيار تلك الأمم والحضارات بعد إكمال دورتها، ومن ثمة صعود حضارة أو أمة أخرى امتلكت مقومات النهوض والهيمنة. إن هذه الحركة العادلة والمنظمة لمسار التاريخ وحياة الشعوب، تُسحب كذلك على فكرة المركزية الحضارية، التي لا محالة سوف يصل فيها المركز إلى مرحلة التراجع والتزحزح، فيتحول بذلك المركز من المنتصف إلى الهامش، وهو ما أسفرت عنه حركة التاريخ إلى غاية القرن الحالي، إذ نلاحظ بوادر صعود دول أخرى واحتلالها مركز العالم كاليابان والصين والهند. إن هذا التحول في مراتب الحضارة تنبأ به "شبنجلر" منذ قرابة قرن من الزمن، حين أقر بأن الحضارة الواحدة تمر بثلاثة مراحل: تبدأ بالنشأة، والتكوين، ثم النضج والاكتمال، ومن ثمة تكون هي مركز العالم ومنارته الثقافية والفكرية والاقتصادية والعسكرية، وتنتهي بالشيخوخة والانحلال، وهو مآل الحضارة الغربية اليوم بكل انجازاتها وصنائعها التي خلقتها. إنها سائرة إلى فقدان مقوماتها الحيوية وقدرتها على السّيادة والهيمنة على العالم. إذ أن بلوغ القوة المسيطرة قمة التحكم والهيمنة ـ في الوقت الذي تعتمد داخلها عوامل التفكك والانهيار، وفي الوقت الذي تصبح فيه أحادية الرؤية دون اعتبار لرؤى الآخرين وهم شركاء الحياة والمصير على هذا الكوكب ـ إنما هو بداية النهاية الحقيقية لهذه القوة[2]. وبما أن مفهوم الهيمنة ليس اقتصاديا فحسب، فالهيمنة مفهوم متعدد الأبعاد وينطوي على عدة مجالات: سياسية وإيديولوجية وعسكرية، وتأسيسا على ذلك فإنها حتما ستكون نسبية، إذ أن *"الاقتصاد الرأسمالي العالمي ليس إمبراطورية عالمية يحكمها مركز وحيد، لأن المركز المهيمن مرغم دائما على القيام بتسويات مع الآخرين، حتى ولو كانوا في وضعية الخاضع، وبخاصة إذا كانوا يرفضون هذه الوضعية. لهذا السبب تظل الهيمنة مهددة بتحول موازين القوى بين شركاء النظام العالمي"*[3]، هذا ما

[1] جون بيليس وستيف سميث: مرجع سابق، ص 276.

[2] مصطفى النشار: ما بعد العولمة (قراءة في مستقبل التفاعل الحضاري وموقعنا منه)، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2003، ص 136.

[3] سمير أمين: ما بعد الرأسمالية المتهالكة، تر فهمية شرف الدين وسناء أبو شقرا، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2003، ص 128

وضّحه المفكر العربي الذي تبنى الفكر الماركسي "سمير أمين" في كتابه "ما بعد الرأسمالية المتهالكة". الذي عبّر فيه عن تحولات في المراكز والطبقات بين المركز والهامش وتنبأ بتراجع سلطة وهيمنة الرأسمالية على العالم، كما نفى أن يكون هناك مركزا وحيدا يتحكم في النظام العالمي[1].

من هذا المنطلق فإن المتأمل في حوادث التاريخ يدرك إمكانية تعميم ميكانيزمات سقوط الإمبراطوريات التي كانت ذات يوم تعتبر نفسها خاصة واستثنائية، بل وحتى "الأمة التي اختارها الرب" لتقود العالم، وكيف أنها توسعت واستقوت ثم انهارت...على الإمبراطورية الأمريكية المعاصرة لا محالة. *"فصحيح أن أمريكا أقوى من أي دولة أخرى منذ الإمبراطورية الرومانية، لكنها مثل روما ليست قوة لا تقهر"* [2]. وحسب "جوزيف ناي" فإن الاعتقاد بأن الولايات المتحدة ستحتفظ بحصة الأسد من القوة العالمية إلى الأبد في ظل قانون حركية التاريخ أمر يتنافى مع التاريخ والمنطق السليم، وإلا فإن الكيانات السياسية ليس لها أعمار واضحة بخلاف الكائنات البشرية التي تعيش قرنا في الحد الأقصى، فقد وصلت روما إلى أوجها في عام 117 ميلادية، أما الإمبراطورية الرومانية الغربية فلم تنهار إلا بعد ثلاثة قرون ونصف تقريبا، واستمرت الإمبراطورية الرومانية الشرقية حتى عام 1453 ميلادي[3]. واستنادا إلى ما سبق ذكره، فإننا نقول أن المركزية الغربية المعاصرة تكون قد بلغت أعلى صورها في الاستعمارية أو الامبريالية، ومع بدء استبعاد المركزيات وتقويضها كالمركزية الذكورية، والذاتية الإنسانوية، والعرقية... فقد تحول العالم إلى رفض واستبعاد المركزية الغربية والاستعمارية والامبريالية والعنصرية، والسير نحو تحرير الشعوب من الهيمنة الغربية بفضح ومقاومة كل هياكل الهيمنة وأشكال الظلم والقهر والقمع، وتفكيك النماذج والممارسات الاستبدادية والتطلع لإعادة الاعتبار للآخر المهمش والمقهور، والعمل على صياغة هوية فردانية جوهرها الاختلاف والبحث عن عملية من التطور والارتقاء المتناغم، وقلب ما هو مألوف والسعي إلى تحقيق نظام أكثر توازنا وعدلا[4]. ومن ينظر في قصة انهيار الإمبراطوريات السابقة، كالإمبراطورية الرومانية والبريطانية أو كالاتحاد السوفييتي عقب نهاية الحرب الباردة، يدرك أن هناك عوامل كثيرة أدت إلى اضمحلال وتفكك تلك المركزيات، تتجاوز المشاكل الاقتصادية إلى الأزمة الثقافية والأزمات

[1] المرجع نفسه، ص 129.

[2] جوزيف ناي: القوة الناعمة، مرجع سابق، ص 13.

[3] جوزيف ناي: هل انتهى القرن الأميركي؟، مرجع سابق، ص 21.

[4] أوما ناريان وساندرا هاردنغ: نقض مركزية المركز (الفلسفة من أجل عالم متعدد الثقافات)، تر يمنى طريف الخولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون (عالم المعرفة)، الكويت، ج1، 2012، ص 8.

الأكسيولوجية والاجتماعية وفقدان الثقة في الذات والتنازل عن المبادئ التأسيسية للمركزية الحضارية. لهذا وجب البحث عن أهم مسببات التفكك والانهيار في المركزية الأمريكية المعاصرة.

ثانيا-أسباب تأزم وتفكك المركزية الأمريكية

بعد أن هيمنت الولايات المتحدة الأمريكية على العالم كسيد مطلق، وبعد تنصيب نفسها مركزا حضاريا عالميا في صورة الإمبراطورية الرومانية القديمة، بفضل قوتها الاقتصادية والعسكرية الهائلة في أزمنة تاريخية سابقة وبفضل جاذبية مبادئها الإنسانية التي نصبتها قائد الحضارة الغربية في الوقت الراهن...، فهل حُكم علينا بالعيش في عالم أحادي القطب؟[1]، سؤال طرحه الفيلسوف الفرنكو-بلغاري "تزيفيتان تودوروف" في كتابه: "الفوضى العالمية الجديدة (تأملات مواطن أوروبي)"، يتصور من خلاله عالم متعدد الأقطاب يتجاوز الهيمنة الأمريكية التي بدأت معالمها تتلاشى من الوجود منذ مطلع هذا القرن.

لقد حدثت أحداث كثيرة ومتسارعة في أمريكا مطلع سنة 2020م، خاصة تلك التي رافقت انتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة بعد انقضاء عهدة الرئيس الـ45 دونالد ترامبDonald Trump، وتركت جدلا كبيرا في العالم حول مستقبل النظام العالمي، نذكر منها المواقف الفاضحة للسياسة الخارجية الأمريكية، خصوصا قرارات "ترامب" حول القضية الفلسطينية ودعوة الدول العربية إلى استئناف العلاقات السياسية (التطبيع) مع إسرائيل فيما يسمى(صفقة القرن)، واتهامه العلني والمباشر للصين بالتسبب في تفشي وباء كورونا، والخروج من منظمة الصحة العالمية...كل تلك أدت إلى إرباك الرأي العام الداخلي قبل الخارجي، وخلق حالة من الشك والتخوف في آن واحد حول مستقبل أمريكا ومركزها في النظام العالمي، واعتباره أحد مؤشرات تراجع مكانتها في قيادة العالم. الأمر الذي يدحض الادعاء أن الولايات المتحدة كانت مصممة بدقة، وأنها فريدة من نوعها أو أمة استثنائية، ويجعله أمرا قابلا للمناقشة والتفكيك.

لقد أشرنا في موضع سابق إلى أن الآباء المؤسسون لم يخترعوا مفاهيم الحرية والحقوق أو السعي وراء السعادة بل تأثروا بآراء فلاسفة القرن الثامن عشر "كجون لوك"، "وجون ستيوارت مِل" وغيرهم من المفكرين الأوروبيين، الذين استلهموا بدورهم تلك المبادئ والأفكار من روما ومن اليونان القديمة. هذه الوقائع والأحداث تجعل الولايات المتحدة

[1] جيروم كوشلين وآخرون: تزيفتان تودوروف (تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية)، تر محمد الجرطي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، 2014، ص 34.

الأمريكية مثلها مثل أية دولة قومية أخرى، "*لا تستطيع في الحقيقة اليوم أن تشكل مركزًا لأي مشروع امبريالي، فلقد ولت الامبريالية إلى غير رجعة، وما من دولة قادرة على أن تصبح زعيمة عالمية مثل السابق*" [1].

هذه المعضلة في مسار أمريكا نحو تسيد العالم ليست جديدة أو وليدة اليوم، بل وقعت فيها أمريكا منذ إعلان استقلالها عن بريطانيا سنة 1776م، لما نصبت نفسها أمة استثنائية اختارها الرب وتعمقت تلك الأيديولوجية المهيمنة عقب انهيار جدار برلين في نهاية القرن العشرين، "*إذ بعد أن صرعت عدوها العالمي الرئيسي وجدت نفسها تخوض غمار مشروع هائل ينهكها، ويدفع بها إلى التيه: وهو أن تروض بمفردها ـ أو تقريبا ـ كوكبا يستحيل ترويضه*" [2]. إلا أن ذلك المشروع الذي تغذى بإرادة الهيمنة الأمريكية، اصطدم بحقيقة أن أمريكا لم تعد تمتلك مؤهلاتها ولا قيمها الحضارية التي تأسست عليها ودافعت عنها طوال عقود من الزمن. لقد أصبحت تخلق اضطرابات وتوترات في جميع أرجاء العالم أكثر من الأمن والسلام اللذان كانا من بين أهم المبادئ والأسس التي قامت عليها المركزية الأمريكية، إلا أن هذا الدافع إلى صعود أمريكا وهيمنتها على العالم قد تعرض إلى التشويه والتفسخ، وذلك بإثارة الاضطرابات والحرب على الإرهاب، وأضحى هَمّ أمريكا البرهنة للعالم بأنه لا يزال في حاجة لقوتها العسكرية، هذا ما أثار ضدها المجتمع العالمي، وأدى إلى عدم انسياق حلفائها وراء مزاعمها فأصبحت تشكل مصدر خطر على الأمن والسلام، وهو ما أسهم في ظهور تحالفات جديدة لكبح جموح أمريكا وغطرستها.

إن هذه الصورة القاتمة للهيمنة الأمريكية على العالم منذ مطلع القرن الواحد والعشرين كتبت فصلا جديدا عن انهيار الغرب، وعن تقويض المركزية الغربية وخطاباتها البراقة، وهو ما لا يكذبه أو ينفيه المفكرون الغربيون أنفسهم، حيث يقول "صامويل هينتنغتون" في هذا السياق: "*مع انهيار القوة الغربية، فإن قدرة الغرب وأمريكا على فرض المفاهيم الغربية الخاصة بحقوق الإنسان والليبرالية والديمقراطية على حضارات أخرى، تؤدي كذلك إلى انهيار جاذبية تلك القيم بالنسبة للحضارات الأخرى، وقد حدث ذلك بالفعل على مدى قرون عديدة* " [3]. هكذا فإن الولايات المتحدة، بنظر بعض منتسبي النخبتين السياسية والدينية في حضارات العصر المحوري، يرون أن الولايات المتحدة دولة عظمى حقا، لكنها ليست دولة حضارية، بل يراها كثيرون دولة معادية للحضارة، دولة بلا حضارة حقيقية، مسخا

[1] مايكل هاردت وانطونيو نيغري: الإمبراطورية (إمبراطورية العولمة الجديدة)، تر فاضل جتكر، مكتبة الكعيبان، الرياض، ط1، 2002، ص 14.

[2] أمين معلوف: اختلال العالم، تر ميشال كرم، دار الفارابي، بيروت–لبنان، ط1، 2009، ص 20.

[3] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 152.

مخيفا، أو دولة وثنية معادية لأي حضارات حقيقية من تلك التي ينتمون إليها، كالحضارة الصينية والهندية والفارسية[1]. لذلك ينبغي القول أن عظمة أمريكا لم تعد كما كانت عليه من قبل، بل إنها اليوم تواجه تحديات أساسية، متمثلة في الفقر السائد في المدن الأميركية الداخلية نتيجة التدهور الاقتصادي، وانتشار الجرائم، والمشاكل الأمنية الداخلية، وتراجع القدرات العسكرية في مقابل صعود قوى عالمية أخرى. وعليه حري بنا التطرق إلى الأسباب التي أدت ولا زالت تؤدي إلى انهيار وتفكك المركزية الأمريكية المعاصرة.

1- الأزمة الاقتصادية وتأثيراتها العسكرية

لا شك أننا نحيا في عالم متغير، ولهذا فنحن اليوم بإزاء تحولات في كل الفلسفات والمبادئ الاقتصادية والسياسية على مستوى العالم، ومن يظن بأن أمريكا ستظل على حالتها بعد نهاية الحرب الباردة سيكون مخطئاكما يقول "جوزيف ناي": *"سيكون من غير المنطقي. ومن المخالف لمنطق التاريخ أن نعتقد بأن الولايات المتحدة ستمتلك حصة غالبة من موارد القوة إلى الأبد"* [2]. فأمريكا اليوم تواجه أزمة اقتصادية استثنائية، وهي أزمة بالغة التعقيد لا يمكن أن تحل إلا من خلال الحرب، وهي تحاول حل مشاكلها على حساب اقتصاديات دول أخرى بعد ما كانت تمثل في يوم من الأيام الإبداع والتحرر والثروة.

وتشير أغلب الدراسات المهتمة بصعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية، إلى أن أكبر مشكل تواجهه الهيمنة الأمريكية على العالم هو تراجع معدلات النمو الاقتصادية ومعاناتها من الركود والكساد، ما تسبب في عجز الميزان التجاري وانخفاض الناتج الإجمالي المحلي بشكل حاد، وانخفاض القدرة الشرائية وقيمة العملة وارتفاع نسب البطالة وفقدان مناصب العمل الدائمة...وغيرها من المشاكل المالية، *"والواقع أن هذا النظام المالي الذي تأسس بموجب اتفاقية بريتون وودز، كان يحمل في ثناياه بذور انهياره، فلقد كان هذا النظام يرتكز على قوة الدولار الأمريكي، وهي قوة نشأت*

[1] بيتر جي كاتزنشتاين: مرجع سابق، ص 111.

[2] جوزيف ناي، هيلاري كلينتون وآخرون: مستقبل القوة الأمريكية، مجلة دراسات عالمية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ط1، 2012، ص 09

بصفة مؤقتة بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد وتحطيم الجهاز الإنتاجي لمعظم الدول الرأسمالية المتقدمة. فما ان تهيأ للأخيرة ان تستعيد قواها الإنتاجية حتى ظهرت القوة الفعلية لعملاتها إزاء الدولار الأمريكي. واتضح أن الأخير أضعف من أن يكون دعامة وحيدة للنظام النقدي الدولي"[1]. هذه الحالة العامة أعلنت عنها الولايات المتحدة مطلع الألفية الجديدة وازدادت حدة بعد انتشار جائحة كورونا في أوساط المجتمع الأمريكي حيث سُجلت مستويات مرتفعة جدا من الإصابات بين الأفراد بلغت مليون إصابة يوميا؛ ما أدى إلى غلق وتعطيل أغلب المؤسسات الاقتصادية الأمريكية.

لقد بدأ الانحدار الأمريكي فعليا حسب "جوزيف ناي" عندما تقلص الاقتصاد الأمريكي إلى حصة الربع من الاقتصاد العالمي عقب تعافي اقتصاديات الدول الأخرى وتناميها بعد خروجها من الحرب العالمية باقتصاد مدمَر، وكانت الولايات المتحدة تشكل نصفه في ذلك الوقت، فبين سنتي 1945 و1970 عادت أمريكا إلى حصتها الطبيعية، وهو بداية تراجع الدور الأمريكي في العالم[2]. كما يشير "جوزيف ناي" في حديثه عن مستقبل القوة الأمريكية، إلى أن عددا من المحللين الاقتصاديين اعتبروا أن الأزمة المالية العالمية في سنة 2008م، تمثل بداية مرحلة اضمحلال المركزية الأمريكية المعاصرة، وتشير التوقعات إلى أنه مع حلول سنة 2025م ستظل الولايات المتحدة القوة المتفوقة بعد أن تكون سيطرتها على العالم قد تراجعت كثيرا[3]. كما لم يستبعد "صامويل هينتغتون" في كتابه "صدام الحضارات" تراجع القدرات الأمريكية على السيطرة على العالم بالنظر إلى انحلالها وضعفها الاقتصادي ما يؤثر على قدراتها الاقتصادية، إن أمريكا اليوم لم تعد قادرة على دعم وتمويل 800 قاعدة عسكرية عبر العالم لما تحتاجه من موارد مالية ونفقات حربية هائلة مقارنة ببعض الدول التي تتعافى اقتصاداتها وفي نفس الوقت لا تمتلك قواعد عسكرية خارجية بمقدار ما تملكه أمريكا. يقول "هينتغتون" في هذا السياق: *"سوف تتدهور نسبيا قوة الولايات المتحدة بمعدل متسارع، ومن ناحية قدراتها الاقتصادية الخام، فإن وضعها في النهاية بالنسبة إلى اليابان وكذا بالنسبة للصين، من المحتمل أن يضعف أكثر من ذلك في المجال العسكري، لأن ميزان القدرات المؤثرة بين الولايات المتحدة، وعدد من القوى الإقليمية النامية (بما فيها إيران والهند والصين)، سوف يتحول من المركز إلى المحيط الخارجي"* [4].

---

[1] محمود عبد الفضيل: مرجع سابق، ص 52.

[2] جوزيف ناي: هل انتهى القرن الأمريكي؟،مرجع سابق، ص ص 8-9.

[3] جوزيف ناي، هيلاري كلينتون وآخرون: مرجع سابق، ص 07

[4] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 134-135.

لقد أعلنت الولايات المتحدة أنها دخلت في أكبر كساد في تاريخها نتيجة انكماش الناتج القومي في الثلاثي الأول من عام 2020 بنسبة 33% أي ثلث الاقتصاد انكمش، وهي أعلى نسبة ركود في التاريخ. هو ركود اقتصادي مضاف إليه الديون العالمية والخاصة تفوق الناتج الإجمالي القديم؛ هي مؤشرات لحتمية الانهيار وتغير مركز النظام في العالم. ولا يُفَوت "روجيه غارودي" هذه اللحظة التاريخية التي تمر بها الهيمنة الغربية بقيادة الولايات المتحدة، فقد رسّخت من حضوره النقدي في مناهضة الحضارة الغربية والتوجه الغربي نحو الفكر الإقصائي، ليعلن بذلك إفلاس الحضارة الغربية من بوابة أمريكا، إذ يعتبر غارودي أنه في اللحظة التي توقفت فيها الولايات المتحدة عن أن تكون الدائن الرئيس للعالم لتغدو فيه المدين الرئيس، حيث غدا معدل استثمارها الأكثر انخفاضا في العالم الصناعي رغم قوتها، وهي ليست بجيوشها (التي لا يحفزها أي مشروع إنساني، ولا تحلم كالبنتاغون الذي يسوسها إلا بحروب لا تخسر فيها جنديا واحدا) وإنما بتقنيتها المستندة إلى الأتمتة وكبس الأزرار. فإن هذه البلاد، التي يريد قادتها إن يكونوا سادة العالم، تبدو أكثر فأكثر وكأنها تمثال ضخم بقدمين من غضار، بسبب هشاشتها الاقتصادية، المحتجبة لزمن بمضاربات مالية تحوّل مصارفها إلى كازينوهات (تعددت افلاساتها بعد افلاسات صناديق التوفير)[1].

من المؤشرات الاقتصادية الأخرى التي توحي بأن أمريكا قد دخلت فعليا في نفق الأزمة الاقتصادية الحادة هو أنهم مؤخرا يطبعون الدولار دون غطاء مالي كما تواصل الآلات في البنوك طباعة الأوراق النقدية، لكن المشكلة أنه لا يوجد طلب على منتوج هذه المطبعة (الدولارات) التي يتحكم فيها الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي. أما تحقيق هذا الهدف فيتطلب خلق أجواء من عدم الاستقرار في العالم (الحروب) لأنه لو نظرنا اليوم إلى ما يحدث في العالم نتيجة الأزمات السياسية والعسكرية والاقتصادية، نلاحظ غياب الاهتمام بشراء السندات الأمريكية. ولهذا لابد من تحفيز هذا الاهتمام مرة أخرى، وذلك عن طريق زعزعة الاستقرار أو تأجيج الحروب، لكن في الزمن الراهن بدا جليا حياد دولي بشأن خوض معترك الحروب الحقيقية إلى جانب أمريكا. وبالتالي لابد أن تلجأ أمريكا إلى التأثير الخارجي على الدول وقادتها لكي تبدأ الحرب. لهذا نبصر ملامح حرب قادمة ونشوء عدة مناطق ساخنة تحضيرا لإعادة الاستقرار للاقتصاد الأمريكي مثل العلاقة بين الكوريتين، والوضع في إيران، والأزمة الروسية الأوكرانية والخلاف القديم بين باكستان والهند.

وبحسب توقعات أخرى تقيس الاقتصاديات بمعدل صرف العملات، فيُعتقد أن الصين ستستحوذ على أضخم اقتصاد عالمي خلال عقد، وحينئذ يكون هذا مؤشر آخر لنهاية المركزية الأمريكية وهيمنتها على العالم. إن تحليل الظروف

[1] روجيه غارودي: الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، تر صيّاح وميشيل خوري، دار عطية للنشر، بيروت، ط2، 1999، ص 18.

الحالية والمستقبلية للولايات المتحدة، نستنتج من خلالها أن دور أمريكا سيتراجع في سلم القوى العالمي نسبيا. كما أن طبيعة المجتمع الأمريكي غير الموحدة والمتسمة بعدم التدخل الحكومي، قد تعطي البلد فرصة للتكيف مع الظروف المتبدلة أفضل مما تتيحه القوة الجامدة[1]. وعندئذ تتبدى فكرة اضمحلال السيطرة الأحادية، ومن ثمة التنبؤ بقرب تزحزح أمريكا عن مركز قيادة العالم، والاضمحلال المركزي هنا يؤلف بين دلالتين أو بين بعدين مختلفين، إحداهما تجلي الاضمحلال المطلق: بمعنى التفسخ، والآخر يجلي الاضمحلال النسبي، الذي يشهد نمو موارد القوة المملوكة لدولة أخرى، أو استخدام هذه الموارد بفعالية أكبر في سبيل الهيمنة[2]. بمعنى أن ثمة خصوم قوة ومركز لقوة المركزية الأمريكية تنوب عن مقومات اضمحلالها النسبي.

2-الأزمة الأكسيولوجية

عُرفت أمريكا بالأمة بالاستثنائية لاحتضانها القيم الإنسانية، كحقوق الإنسان، الحرية الفردية الديمقراطية، والفرص الاقتصادية، وعدّت من عوامل قوتها الناعمة. لكنها انطوت في المرحلة الراهنة على صراع ثنائي داخلي؛ فمن ناحية حاولت أميركا أن تروج للحرية وتسعى إلى تحقيق السعادة لسكان العالم. ومن ناحية أخرى عملت كأمة فوق الأمم، تسعى إلى تحقيق مصالحها الخاصة على حساب حرية الآخرين وسعادتهم. وهو شكل من أشكال "الغطرسة الإمبريالية". الذي يعبر عنها "سمير أمين" في نقده للمشروع الأمريكي "بعدم التسامح إزاء وجود قوة قادرة على الاعتراض على أوامر واشنطن والبحث عن كيفية تفكيك البلدان المعتبرة كبيرة أكبر من اللّزوم وخلق أكبر عدد ممكن من البلدان الضعيفة، يسهل إقامة قواعد أمريكية فيها من أجل حمايتها؛ فالهدف المعلن لاستراتيجية الهيمنة الأمريكية هو خلق دولة واحدة يحق لها أن تكون كبيرة هي الولايات المتحدة الأمريكية[3].

ومن ثمة يستبان المقصد من عبارة الأزمة الاكسيولوجية، إذ يمثل مجمل المفارقات بين النظرية والتطبيق التي وقعت فيها قيم الإمبراطورية الأمريكية كقيم الحرية والعدالة وحقوق الإنسان، وما تبعه من إدراك عالمي لتلك التناقضات في ممارسات أمريكا للمبادئ التي رفعتها في شعاراتها على مدار قرن من الزمن على أرض الواقع. ومن المؤكد أن بلدًا قويا كأمريكا لن يتخلى أبدا عن استخدام القوة. لكن ذلك لا يعني أن عليها أن تنساق في الاندفاع الذي يمنحه إياها إدراكها بأنها الأقوى ويحرضها الاعتقاد بأنها الأعدل بين جميع الأمم. لهذا فمن مصلحة الولايات المتحدة أن تقبل

[1] بول كندي: نشوء وسقوط القوى العظمى، ترجمة مالك البديري، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط3، 2007، ص 782.

[2] جوزيف ناي، هيلاري كلينتون وآخرون: مرجع سابق، ص 09.

[3] سمير أمين: مرجع سابق، ص 132.

طوعا بحدود معينة في استخدام قوتها. ولا يجب في هذه الحالة استعمال القوة العسكرية إلا دفاعا عن النفس في صورة التعرض للاعتداء[1]. هذا يعني أن شعور أمريكا بأنها أقوى دولة في العالم هو الذي جرفها نحو الاستخدام المفرط لقدراتها العسكرية للحفاظ على مصالحها الاستراتيجية، وبالتالي ستصطدم حتما بمناقضة ذاتها؛ فأمريكا ترى نفسها بأنها الدولة العادلة والمنصفة بين الأمم، وهو موقف نابع من اعتقادها بأنها حافظة السلم والأمن في العالم، فهي الخصم والحكم في آن واحد، وذاك ما يوقعها في مأزق قيمي سيسرع من تفككها وانهيارها. ويسعنا استتباع تأزيم المشروع القيمي الأمريكي، من خلال إعلان استقلال الولايات المتحدة بتاريخ 4 جويلية 1776م، الذي رافقه إعلان حقوق الإنسان والمواطن، وهذا يعد مثالا صارخا لنفاق الحرية بالمعنى الأمريكي للكلمة، فالنص يعلن منذ أسطره الأولى: خلق جميع الناس متساوين، ووهبهم الخالق حقوقا غير قابلة للتصرف كالحياة، الحرية، والسعي إلى العدالة. إلا أن هذا المنشور عن الحرية أبقى عبودية السود لمدة قرون[2]؛ وغيرها من الممارسات التعسفية لقيم وأخلاق الإمبراطورية الأمريكية الأولى. هذا التناقض الصارخ بين النظرية والتطبيق يبعث على الاعتقاد بأن الإمبراطورية الأميركية تشكل خروجاً عن مبادئ الحرية والسلام، وعلى هذا فإنه لم تجلب السعادة والعدالة والأمن للأميركيين ولا لغيرهم، وعاجلا أم آجلا سوف تنحدر الإمبراطورية، وستسقط لأنها تحتوي داخلها على أسباب سقوطها[3]. وبما لا يدع مجالا للشك أن القيم الأخلاقية والحرية –التي كانت ولاتزال تشكل مكونات أساسية في التقدم الأميركي–أصبحت لا تتفق مع الدولة والإمبراطورية كما يعرفها الجميع، إذ أن الولايات المتحدة كدولة وإمبراطورية تسير على طريق مدمر لتلك القيم وبالتالي للرفاه الأمريكي وتبتعد عن مسار السلام والعدالة والأمن والسعادة. إنهم يتوجهون إلى الأسوأ في العالم ويحيدون عن قيم الحضارة العالمية. ولهذا أعتقد أن أمريكا قد أخطأت في قراءة نتائج سياستها الاكسيولوجية، والخطأ هنا أخلاقي بالدرجة الأولى، "فلم تعد الثقافة السياسية الأمريكية منذ زمن طويل كما هي اليوم من ألفها إلى يائها، فيصل الحقيقة، ولم تعد مقياسا لموضع الإنسانية أو اتجاهها، بل على العكس تماما إنها أضحت القوة المتفردة التي تضر قضية الحرية في

[1] تزيفيتان تودوروف: اللّانظام العالمي الجديد (تأملات مواطن أوروبي)، تر محمد ميلاد، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2006، ص 84.

[2] روجيه غارودي: الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، مرجع سابق، ص 30.

[3] Michael S. Rozeff : EASSYS ON AMERICAN EMPIRE(Liberty vs. Domination), East Amherts, 2009, p03.

أي مكان في العالم، ومن ضمنه الولايات المتحدة، كما يتضح بالفعل من خلال وحشية قمع الشرطة، لحركة "احتلوا وولستريت Occupy Wall Street" [1].

لا مناص من القول إذًا أن التفكك والانحطاط في الولايات المتحدة وشيك وسوف يبدأ من الداخل، وسيشرف كل شيء على الزوال، والهيمنة ما هي إلا مرحلة تاريخية عابرة، ولاحقا إن لم يكن قريبا جدا، سوف تتلاشى السيطرة العالمية لأمريكا، ويضيف "زبيغنيو برجنسكي" أنه من غير المبكر جدا على الأمريكيين السعي إلى تحديد شكل الميراث النهائي لهيمنتهم[2]. وستكون أفضل وسيلة متاحة لهم لتحقيق الرخاء والازدهار هي التحلي بالأخلاق السليمة والحرية وإعادة بعث تلك القيم والفضائل التي كانت في مرحلة ما بمثابة القوة الناعمة التي امتازت بها الإمبراطورية الأمريكية وسُحر بها العالم.

3-مأزق الديمقراطية

إذا كان يُنظر إلى التشكيل الديمقراطي باعتباره إحدى عوامل قوة السياسة الأمريكية وأحد أهم مظاهر المركزية الأمريكية المعاصرة وأعظم مواطن القوة الأمريكية من ناحية؛ فإنه غدا واحدا من المنابع المركزية لمأزقها الراهن من ناحية أخرى. هذا ما أكده بريجنسكي، حيث يرى أن: ذلك البريق ما لبث أن خبا، بسبب الاستياء الدولي الواسع جراء غزو العراق في سنة 2003م، وما صاحبه من تجاوزات في المقام الأول[3]. فالملاحظ اليوم أن عملية نشر الديمقراطية في عالم الأطراف رافقتها ممارسات عدوانية وإجرام عالمي. فالديمقراطية من منظور إيراني اليوم، مجرد سلعة تخول لمسوقها كل الطرق والأساليب لتسويقها، لأنها سلعة مقدسة من منظورها، ويحق لأمريكا ما لا يحق لغيرها. يقول المفكر الإيراني "حميد الدباشي": "*تم تصميم المهارة المعولمة للانتخابات الرئاسية الأمريكية لبيع سلعة واحدة وواحدة فقط هي الديمقراطية، والولايات المتحدة دولة ديمقراطية، وبحكم هذه السلعة المقدسة، فإنها تتمتع بامتياز إرسال حاملات طائرات والطائرة الحربية المقاتلة في جميع أنحاء الكوكب لإسقاط القنابل على الناس وعلى أوطانهم وتطلق على هذا*

[1] حركة احتجاجية شعبية أمريكية غير مركزية وبلا قيادة، دعت إلى احتلال "وول ستريت" في مدينة نيويورك بالولايات المتّحدة الأمريكية نتيجة تردّي الأوضاع الاقتصادية، وتأثّرا بحركة ثورات الربيع العربي التي أسقطت ثلاثة أنظمة حاكمة. بدأت أوّل مرّة كدعوة عبر صفحات «تويتر» و«فيسبوك» في مدينة نيويورك الأمريكية، وبناء على هذه الدعوات تمّ حشد قرابة مئة شخص على أرض الواقع. في 17 سبتمبر 2011م أوّل مظاهرة، ثمّ تبعتها عدّة مظاهرات متكرّرة بعد أنّ أدّت مظاهرة على جسر بروكلين إلى اعتقال المئات بحجة عرقلة حركة المرور وإشعال فتيل ال احتجاجاتhttp://www.diwanalarabia.com/Display.aspx

[2] زبيغنيو بريجنسكي: الاختيار (السيطرة على العالم أم قيادة العالم؟)، مرجع سابق، ص 238.

[3] المرجع نفسه، ص 76.

الفعل اسم التدخل الإنساني" [1]. وهذا التدخل حسب رأيه لا يهدد الأنظمة العربية المنتهية الصلاحية، والتي تمتاز بإغلاق منفذ الحريات السياسية على شعوبها فحسب، بل تعاني منه حتى الديمقراطيات الأوروبية أيضا، *"التي تواجه انتفاضة منهجية، من قبل شعوبها الثائرة ضد تدابير التقشف التي لم تعد تحتمل"* [2]. فرغم كل المزاعم التي زعمها الساسة الأمريكان على اختلاف التحولات التي مرت بها الولايات المتحدة الأمريكية منذ تأسيسها وتمسكهم المستمر بالتأكيد على أن أساس فكرهم السياسي هو أنموذج متماثل للفكر الذرائعي، وأن هذا الأخير تحديدا كان قد تمخض من رحم الفلسفة الأوروبية الأم، إلا أن الواقع عكس ذلك فالأمريكي مغامر متعطش للأمان، فردي، وهو امتثالي Conformist، أي يرفض أوروبا لكنه يحن إليها ويبشر بالانعزال، إلا أنه يتدخل في شؤون الآخرين، وهو امبريالي، لكنه يعلن نفسه مدافعا عن حقوق الشعوب المقموعة[3]؛ هذه التناقضات تنعكس على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية وتبطل مقولة الديمقراطية العالمية أو النظام الكوكبي الصالح لكل الشعوب والأمم في العالم.

هذا المسار الفعلي للأحداث في العالم منذ بداية القرن الواحد والعشرين (عصور الغطرسة حسب تعبير جوزيف ناي)، يُظهر النظام الأمريكي والسلم الأمريكي Pax Americana، وكأنه كارثة حقيقية على عكس ما يذكره التاريخ. فإذا ما نظرنا إلى التاريخ من جديد، أدركنا أن العالم الذي خلقته أميركا كان يطبعه الشذوذ غير العادي في تاريخ البشرية، فضلاً عن ذلك فإن انتقال السلطة لم يكن سلمياً طيلة تاريخ العالم في غياب الهيمنة الليبرالية، لأن القوى العظمى الاستبدادية مثل روسيا والصين لن تكون لديها الرغبة ولا القدرة على دعم النظام العالمي الليبرالي القائم الذي خلقته الولايات المتحدة، وإذا ما نشأ العالم المتعدد الأقطاب أو عالم ما بعد أميركا في المستقبل، فإن تحذير "كاغانKagan"، من سواد عالم كارثي وفوضوي وشيك يبرره إدراكنا مرة أخرى بأن الولايات المتحدة كانت تشكل ضرورة أساسية للحفاظ على عدالة النظام العالمي الراهن، وأن البديل عن القوة الأميركية لن يكون السلام والوئام بل الفوضى والكوارث. فمنذ عصر روما كان المبدأ ينص على أنه *"لا يمكن أن يكون هناك نظام عالمي بدون سلطة لحمايته، وصياغة معاييره، والحفاظ على مؤسساته، والدفاع عن عصب نظامها الاقتصادي، والحفاظ على السلام"* [4]. وعليه فإن النظام العالمي الليبرالي كان مزدهراً، ليس لأنه كان محقاً وجاذباً، بل لأنه فُرِض ودافعت عنه أقوى أمة في العالم. وتعتبر الولايات المتحدة نفسها عاملاً حافظا ومكرسا للتقدم التاريخي نحو السلام الدائم وبالتالي عملا إقصائيا

[1] حميد دباشي: هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟، تر عماد الأحمد، منشورات المتوسط، ميلانو-ايطاليا، ط1، 2016، ص 177.
[2] حميد دباشي، مرجع سابق، ص ص 181-182.
[3] نزار نجيب حميد، مرجع سابق، ص 15.
[4] Taesuh Cha,Op cit, p 357

للآخر منكرة كل الإسهامات العالمية في حفظ السلام. لهذا يعتبر "نيال فرغسون" أن القوة الناعمة ليست سوى قفاز مخملي يخفي الكف الحديدية: فعلى شاكلة الإمبراطورية البريطانية، احتفظت الولايات المتحدة بالحق في استخدام القوة حين ترى مصالحها مهددة، لا كرد فعل فقط، بل بشكل استباقي في بعض المناسبات وبالتالي، فإن استراتيجية الأمن القومي التي تبناها الرئيس "بوش"، تؤكد أن الولايات المتحدة تحتفظ بالحق في التصرف بصورة استباقية لإحباط أو منع الأعمال التي تراها معادية لمصالحها، حتى وإن لم تتأكد من زمان ومكان هجوم العدو[1]، وهو ما يشكل خطرا دائما على أمن واستقرار الدول والشعوب في العالم.

4-الأزمة الاجتماعية والعرقية

بما أن أبعاد الديمقراطية في أمريكا تتجاوز النظام السياسي إلى الحريات الفردية والحياة الاجتماعية، فإنه في أقل من قرن من الديمقراطية الشاملة نتج في الولايات المتحدة تزايد مطرد في التدهور الأخلاقي والتفكك الأسري والاجتماعي والانحلال الثقافي، وتفاقم معدلات الطلاق، وولادة الأطفال غير الشرعيين والإجهاض والجريمة. ونتيجة لقائمة طويلة من قوانين التمييز الإيجابي غير التمييزية، وسياسات الهجرة العادلة غير التمييزية متعددة الثقافات، تأثر كل ركن وبيت في المجتمع الأمريكي بالإدارة الحكومية والإدماج القسري، وازدادت تبعا لذلك حدة العداء والصراع الاجتماعي والتوتر العنصري والعرقي والأخلاقي والثقافي بشكل كبير[2]، وما حدث مؤخرا في أمريكا مؤشر قوي على اختلال في منظومة القيم الأمريكية التي كانت إلى عهد قريب عماد أعظم دولة في العالم؛ والحديث هنا عن الجرائم العنصرية التي باتت ترتكب في كل حين وأمام مرأى العالم. كتلك الجريمة التي راح ضحيتها "جورج فلويد" من الأصول الإفريقية، على يد الشرطي الأبيض "ديريك شوفن"، بعد أن جثا على رقبة جورج حتى أزهق روحه.

إن مركز الريادة الذي احتلته الولايات المتحدة طويلا في المساواة والحريات والحقوق، والذي ساهم في تبوئها عرش النظام العالمي، قد غدا في سبيله إلى الإفلات من يدها، وما تلك السقطات الاجتماعية إلا نذير بتدهور مستوى مركزي آخر وهو النموذج المعرفي الأمريكي، لقد تدهور التحصيل الدراسي وتراجع معه مستوى المناهج المعرفية حيث اعتبرت مؤخرا مجموعة من التقارير والدراسات الأمريكية والدولية، أن أمريكا باتت تعاني خطرا مردّه ظاهرة التخلف

[1] Niall Ferguson: Colossus (The rise and fall of the American empire), Penguin books, USA, 2004, p p 23-24.

[2] هانز هيرمان هوبا: الديمقراطية الإله الذي فشل، الديمقراطية الإله الذي فشل، تر إيمان معروف، منشورات تكوين، الكويت، ط1، 2019، ص ص 34،35.

التكنولوجي والتحصيل العلمي مقارنة بمنافسيها الصين واليابان والهند، وإنها في حاجة إلى إصلاح تربوي في مناهج العلوم والرياضيات في مختلف المستويات الدراسية.

وبما أن الولايات المتحدة كانت عبارة عن منظمة إنتاج تديرها المنطقية التقنية أو التجارية فقط، فإن الرابطة الوحيدة التي كانت تجمع المهاجرين إليها هي الإنتاج والاستهلاك، بالرغم من اختلاف أصولهم ودياناتهم وثقافاتهم[1]، هذا ما كان ينذر بتوتر كبير في العلاقات الاجتماعية والأسرية ويزيد من معدلات الإجرام. ولعل هذا ما نحا بـ "روجيه غارودي" إلى الاعتقاد بأن أمريكا في طور قصوري *(Entropique)من تاريخها، أي تفكك داخلي بسبب البؤس المتزايد (لأمريكا أخرى غير تلك الموجودة في دالاس، لأن دالاس تشتهر بغناها العائد إلى الثروة البترولية والصناعات البتروكيمياوية والالكترونية القائمة فيها) بؤس متزايد بوجود 33 مليون من سكانها يعيشون تحت عتبة الفقر، وانحلال المجتمع، بتفرقة عنصرية وخاصة تجاه السود؛ تشهد عليه أعمال الشغب التي نمت في لوس أنجلس، وكذلك تجميع فراكان Farakhan في واشنطن لمليون شخص أسود والتخلخل الاجتماعي بتأثير المخدرات والفساد والتطفل المتزايد[2]. وحسب "غارودي"، فإن انحطاط أمريكا لم يكن وليد اليوم بل كان قائما منذ اكتشاف وتأسيس العالم الجديد، فبين ثنايا تاريخها تختبئ عوامل تفسخ واضمحلال ثقافتها لأنها كانت على الدوام *"مكانا جغرافيا مفتوحا على مصراعيه، لا مقام فيه لمعنى الحدود، فكانت عرضة لكل أعمال السلب والنهب وجميع مظاهر التخريب. كما كانت العلاقات مع الشعوب الأخرى (الهنود تحديدا) تقوم على الاستيلاء والاستغلال والإبادة الجماعية. أما معنى الحياة عند الشعب الأمريكي فقد اختزل في ذلك التوسع الكمي في التملك وحيازة الأرض وكنوزها. والعنف في الولايات المتحدة الأكثر دموية في العالم، وقد تمت كفالته بغطاء ديني منافق، لأن البيوريتانيين المتزمتين الإنجليز الأوائل في العالم الجديد حملوا إليها الاعتقاد الأكثر إثما في تاريخ البشرية (اعتقاد شعب الله المختار) الذي يقر شرعا كأوامر من الله إبادة السكان الأصليين وسلب أراضيهم"* [3].

[1] روجيه غارودي: الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، مرجع سابق، ص 27.

*استخدم غارودي هده الكلمة الفيزيائية التي تنبئ بدالّة تحدد حالة فوضى نظام تتزايد عند انتقاله إلى حالة أخرى من الفوضى، هي حالة انحطاط في الطاقة (نقلا عن مترجم الكتاب).

[2] المرجع نفسه، ص 19.

[3] المرجع نفسه، ص ص 28-29.

المبحث الثالث: احتمالات نشوء مركز حضاري جديد

أولا: هل ستشكل الصين المركز الجديد؟

في سؤال له "هل انتهى القرن الأمريكي؟" – جعل منه جوزيف ناي عنوانا لكتابه–يجيب "ناي" أنه حسب اعتقاد كثير من المحللين، أن الصين هي المنافس المحتمل لمقارعة القوة الأمريكية والتفوق عليها على رأس النظام العالمي، وهي من ستنهي القرن الأمريكي، وقد استرشد بمقولة المؤرخ "نيال فيرغسون": الذي قال أن "القرن الحادي والعشرين، سيكون القرن الصيني"[1]. وذلك وارد جدا لأنه –حسب منظور جوزيف ناي–، قد أظهرت استطلاعات للرأي في السنوات الأخيرة أن المستطلعين في 15 بلد من بين 22 بلدا، يعتقدون بأن الصين سوف تحتل –أو أنها احتلت فعلا–موقع الولايات المتحدة بصفتها القوة العظمى في العالم. كما شهد الاستطلاع بالمقابل تراجع نسبة الأمريكيين الذين يعتقدون بأن أمريكا مازالت تقف فوق الجميع؛ من 38%سنة 2011 إلى 28% فقط سنة 2014 (استطلاع أجراه معهد بيو[2]Pew)"وزبيغنيو بريجنسكي" يقول في موضع آخر: "أن الصين تلك الدولة التي يتكرر ذكرها باطراد بوصفها خليفة أمريكا المتوقعة ذات جذور إمبراطورية مثيرة وتقاليد استراتيجية قائمة على الصبر الموزون بعناية. وهما أمرين كانا حاسمين بالنسبة إلى تاريخها الناجح نجاحا ساحقا والممتد آلاف السنين...[3]، فما مدى مصداقية تلك الآراء لعرابي الهيمنة الأمريكية المعاصرة، في ظل التحولات الكبرى التي يشهدها العالم اليوم على جميع الأصعدة؟ وهل يمكن الحديث عن مركزية صينية تلوح في الأفق؟

إن كتابا نشر مؤخرا للمؤلف "مارتين جاكJack Martin" حمل عنوان: عندما تحكم الصين العالم: نهاية العالم الغربي ومولد نظام عالمي جديد When China Rules the World: the End of the Western World and the Birth of a New Global Order. يتبنى توقع لبنك"جولدمان ساكسSachs Goldmanبأن يفوق الحجم الإجمالي لاقتصاد الصين الحجم الإجمالي لاقتصاد الولايات المتحدة بحلول عام 2050م، ويعقبهم ثالثا الهند (كما هو موضح في الصورة)[4].

---

[1] Niall Ferguson, Op cit, p p 580-581.

[2] جوزيف ناي: هل انتهى القرن الأمريكي؟، مرجع سابق، ص 7.

[3] زبيغنيو بريجنسكي: رؤية استراتيجية (أمريكا وأزمة السلطة العالمية)، مرجع سابق، ص 95.

[4] Martin Jack: When China Rules the World (the End of the Western World and the Birth of a New Global Order), The Penguin Press, New York, 1st published, 2009, p3.

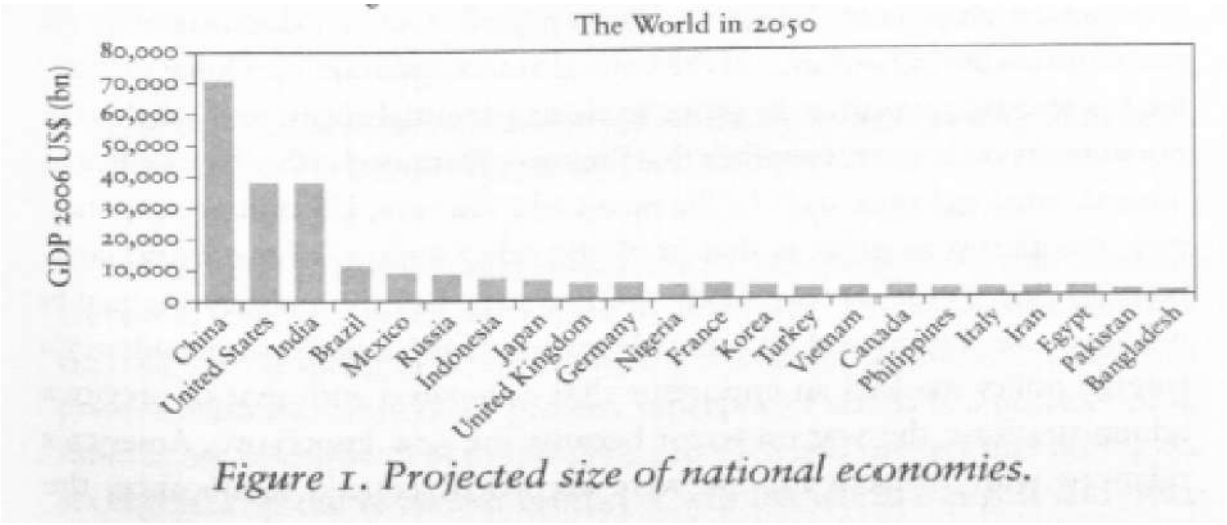

Figure 1. Projected size of national economies.

من المتوقع إذا، أن الشرق سوف ينافس الغرب على الهيمنة على العالم بقيادة صينية، لأن الزيادة البارزة في القوة تتراكم، لدى الحضارات الآسيوية مع بروز الصين كمجتمع هو الأكثر ترجيحا لتهديد الغرب على النفوذ الكوني أو المركزية العالمية؛ هذه التحولات في القوة بين الحضارات أدت وسوف تؤدي إلى يقظة المجتمعات غير الغربية وتوكيد ثقافتها، وإلى زيادة رفضها للثقافة الغربية[1]. لقدأصبحنا نجد كلمة "صنع في الصين Made in China" في كل منتج يدخل منازلنا، وأغلبنا يتذكر جيدا اقتران كلمة الصين مع البضائع الرديئة. لم يعد الأمر كذلك اليوم، فالصين أصبحت الرائدة في مجالات متعددة مثل الاتصالات، ولا تستطيع أي شركة غربية من منافستها مثل هواوي Huawei في مجال 5G، ومنذ نهاية الثمانينيات أصبح دور الحكومة يقل في السوق، وأصبح هناك مجال للشركات للعمل والازدهار.

لا مناص من القول اليوم أن الصين من بين الدول الكبرى في العالم وهي المرشحة لاعتلاء عرش العالم المعاصر، بديلا عن الولايات المتحدة الأمريكية؛ تأكيدا لذلك نستعين بدراسة استقرائية لواقع ومستقبل الدول الصاعدة لمنافسة الولايات المتحدة، كأوروبا واليابان وروسيا والهند والبرازيل؛ أجراها "جوزيف ناي" يرى بأن الدولة الوحيدة المرشحة لمنافسة الولايات المتحدة كنِدٍ لها هي الصين، لأن الصين من بين دول البريكس BRICS، تعد هي الدولة العملاقة في العالم واقتصادها يعادل اقتصاد دول أخرى مجتمعة، كما أن لديها أضخم جيش وأضخم موازنة عسكرية، وهي من أكثر الدول استخداما للأنترنت[2]. انتهجت الصين في سبيل نهضتها الاقتصادية والتجارية عدة خطوات إصلاحية أهمها: إلغاء العمل بنظام المزارع الشعبية وأعطيت اغلب الأراضي للفلاحين، فتح المجال للقطاع الخاص للاستثمار، فتح المجال للشركات الأجنبية للاستثمار في الصين؛ كما بدأت تمنح إعانات بمبالغ ضخمة لعديد من الدول، لأن هذه الدول تمتلك مرافئ استراتيجية مثل: سيريلانكا، باكستان، تنزانيا، جيبوتي، كينيا، موزنبيق، جزر المالديف، بنغلاديش. وذلك في مقابل استغلال موانئها، أو ما يعرف الآن بـ"سلسلة اللآلئ الصينية". كما اشترت العديد من الشركات

[1] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 135.

[2] جوزيف ناي: هل انتهى القرن الأمريكي؟، مرجع سابق، ص 45.

الأوروبية للتمكن من براءات الاختراع، أصبح تحت تصرفها العديد من الوسائل التكنولوجية، أصبحت الصين لا تقلد، بل أصبحت الرئيسة في العديد من الصناعات.

وبهذا شهدت الصين نموا اقتصاديا هائلا في العقود القليلة الماضية، وحافظت على وتيرة صعود عالمية. مع بداية القرن 21 أكثر من 50% من قطاع التجارة والأعمال الصينية، أصبحت ضمن القطاع الخاص. هذا لا يعني أن السوق الصينية أصبحت حرة مثل الأسواق الغربية، فالدولة لا يزال لها حضور كبير ولا تزال بوادر إلغاء هذا الدور في أي وقت قريب. بالإضافة إلى أن نمو الناتج المحلي(GDP) خلال ثلاثة عقود الأخيرة كان أسرع من أي دولة أخرى، فبمعدل نمو تجاوز أكثر من 9% في بعض الأعوام، تضاعف حجم الاقتصاد الصيني عدة مرات، ليصبح الثاني عالميا بعد الو.م.أ.

وبناءً على السوابق التاريخية ومناهج القياس الحضارية، يمكن فهم سرعة وأهمية صعود الصين باستخدام مجموعة من الإحصاءات والوقائع الموجهة تحديدا إلى فهم مستقبل العالم ما بعد المركزية الأمريكية، نتبيّن أنه بالرغم من أن الولايات المتحدة لن تنهار تماما وستظل الدولة الوحيدة التي لديها القدرة على أن تحافظ على بقائها كقوة عظمى إلا أن صعود الصين حقيقي والتغيير قائم على قدم وساق، فبالنظر إلى المقومات التي تمتلكها الصين للصعود يمكننا الإقرار أن الصين سوف تعود إلى الظهور ثانية *"اقتصادا نابضا بالحياة في مستهل القرن الواحد والعشرين وسوف تكشف أكثر فأكثر عن نفسها كقوة عظمى في كل المجالات: الاقتصادية والسياسية والقوة العسكرية وفي الثقافة والتكنولوجيا. بيد أن الصين –مع ذلك–ستكون مختلفة عن أي قوة عظمى عرفها العالم، ذلك أن النظام الاقتصادي السياسي الذي تعمل على تطويره–وهو هجين فريد يضم آثارا كثيرة تجمع بين عناصر من الاشتراكية والرأسمالية وعلى السواء–سوف يكون مختلفا أيضا عن أي نظام يعرفه العالم اليوم"* [1].

مبدئيا وخلال القرن الواحد والعشرين، قد نشهد انتقال العالم من المعادلة X+1 إلى X+1+1، أي من ثابت وحيد وعدد من المتغيرات إلى ثابتين وعدة متغيرات، وهنا يقصد به الباحثون صعود قوة أخرى –من المرجح أنها الصين–إلى جانب الولايات المتحدة التي تبقى قوة عالمية تفرض منطق وجودها ضمن النظام العالمي. حيث من المقرر أن تظل الولايات المتحدة لفترة طويلة القوة العظمى الوحيدة، ثم تليها الصين كقوة عظمى محتملة ناشئة. هذا نذير مهم، فهو يولد ضغوطا جديدة على الولايات المتحدة لمواجهة المقايضات المتأصلة في خياراتها الاستراتيجية الكبرى، والحاجة إلى إجراء تعديلات على وضعها العسكري. بيد أن هذا لا يعني أن نظام القوة العظمى الواحدة على أعتاب

[1] دانيال بورشتاين وأرنيه دي كيزا: التنين الأكبر (الصين في القرن 21)، تر شوقي جلال، المجلس الوطني الثقافة والفنون، الكويت، 2001، ص ص7-8.

التغير البنيوي أو أن هناك تحولا في ديناميكيات التشغيل الأساسية[1]. على خلاف تلك التوقعات والتحليلات لمستقبل العالم، لقد ظل قادة الصين متحلين بحكمة التحفظ والامتناع عن إطلاق أي دعاوى مكشوفة فيما يخص قيادة كوكب الأرض، فما زالوا مسترشدين بشعار "دنغ هسياوبنغ"، الشهير راقبوا بهدوء، أمنوا مواقعنا: تدبروا شؤونكم بهدوء، أخفوا قدراتكم وانتظروا الفرصة المناسبة، أتقنوا فن التواضع، حذار ادعاء القيادة...، إنّه الاسترشاد الاستراتيجي القديم للمفكر "صن تزو"- يقول بريجنسكي- الذي قال أن أكثر المواقف حكمة في القتال هو موقف الانتظار، أي دفع الخصم إلى اقتراف أخطاء قاتلة، ثم الإجهاز عليه. يبدو أن موقف الصين الرسمي من مخاضات أمريكا الداخلية ومغامراتها الخارجية يذكر بإيحاءات ذلك الإرشاد الاستراتيجي. وثقة بكين التاريخية بالنفس متوافقة مع حصافتها وطموحاتها الطويلة الأمد"[2]. لأنه كما أسلفنا الذكر، فأن المركزة قوة وضعف في آن واحد، لهذا كانت الصين دوما ترفض إطلاق صفة الكونية على تجربتها المتنامية باستمرار. لما في قيادة العالم من مخاطرة، قد ترجع مركز العالم الحضاري إلى نقطة البداية.

وهي اليوم تتجه بخطوات ثابتة نحو بسط سيطرتها ونفوذها في صمت، دون استخدام القوة العسكرية. والعالم مندهش من مدى حضور الصين القوي في الساحة العالمية، بعدة مشاريع كبرى أهمها مشروع الطريق والحزام أو طريق الحرير الجديد، أكثر المشاريع طموحا، محاولة لربط الصين مع العالم عن طريق البر والبحر. يمثل مشروع الطريق والحزام الصيني، نقطة تحول في السياسة الخارجية الصينية، تم الإعلان عن هذا المشروع في عام 2013، من قبل الرئيس "تشي" اتفقت الصين مبدئيا مع 125 دولة من جميع القارات للانضمام إلى هذا المشروع[3]، "تأمل الصين أن يخلق هذا المشروع نشاطا تجاريا تفوق قيمته 2.5 ترليون دولار أمريكي خلال 10 سنوات، وتبلغ التكلفة التقديرية للطريق نحو 47 مليار دولار أمريكي، حيث يشمل الطريق أكثر من 60 دولة في ثلاث قارات آسيا وأوروبا وإفريقيا"[4]، إذا نجح هذا المشروع سيكون أكبر مشروع في تاريخ البشرية، حسب تقديرات الطريق فإن مجموع الدول التي سيمر عبرها الطريق تمثل 60% من سكان العالم، وتغطي 70% من احتياطي الطاقة العالمية.

---

[1] Stephen G. Brooks and William C. Wohlforth: The Rise and Fall of the Great Powers in the Twenty-first Century, International Security, Harvard College and the Massachusetts Institute of Technology, Vol. 40, No. 3, 2016, PP 53-54.

[2] زبيغنيو بريجنسكي: رؤية إستراتيجية (أمريكا وأزمة السلطة العالمية)، مرجع سابق، ص ص 96-98.

[3] المكتبة الوطنية بالصين: على طريق الحرير (تاريخ التجارة بين الصين والعالم القديم)، تر مروة السيد، مكتبة صفصافة للنشر، د ط، 2019، ص 204.

[4] رضوان محمود المجالي: الوجيز في النظام الاقتصادي (دراسة في العلاقات الاقتصادية الدولية) دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2021، ص 143.

لكن بالنظر إلى القدرات المصممة خصيصا للسياسة العالمية في القرن الحادي والعشرين وشروط مركز القوة العظمى، فلا يمكن أن نجزم بأن الصين ستكون المركز الجديد للعالم، بل يلاحظ أن الولايات المتحدة سوف تظل لفترة طويلة القوة العظمى الوحيدة في العالم، حتى وإن كان الصعود الاقتصادي للصين يشكل تغييراً كبيراً يستحق التركيز الشديد لقوة جاذبيتها المتنامية. فقد وُضعت الصين في فئة بمفردها، وهي الفئة التي لا يستطيع مفهوم القطبية أن يستحوذ عليها: فهي أعظم من القوى الكبرى الأخرى –كما ذكرنا–مثل ألمانيا واليابان وروسيا ولكنها لا تقترب كثيراً من الخصائص التي انطوت عليها الولايات المتحدة لتكون مركز الثقل في العالم. وكما يتوقع بريجنسكي أنه بعد سقوط المركز(أمريكا) فإن العالم سوف يدخل في فوضى مع حلول سنة 2025م –الزمن المتوقع للسقوط– ولن يكون هناك قائدا آخر للعالم ولو كان الصين، إذ يقول:" لو تعثرت أمريكا من غير المحتمل أن يغدو العالم خاضعا لهيمنة خَلَفٍ متفوق مفرد، مثل الصين"[1]؛ وسبب ذلك أنها تفتقر لمقومات القوة الناعمة التي تميزت بها الولايات المتحدة بالرغم من مقوماتها الاقتصادية والعسكرية وبالرغم من المراهنة على النمو السريع في الجانب الاقتصادي والعسكري لها، بسبب امتلاك الصين لمساحة تعادل مساحة الولايات المتحدة وعدد سكانها يفوق عدد سكان الولايات المتحدة بأربعة أضعاف، وكون جيشها أضخم جيش في العالم، كما تمتلك قدرات نووية وفضائية حديثة...وغيرها. إلا أنها في مجال القوة الناعمة (الثقافة، السياسة الخارجية...) لا تزال عاجزة عن مجاراة الثقافة الأمريكية وجامعاتها غير مصنفة في القمة، وهي تفتقر لمنظمات المجتمع المدني الذي يولد الكثير من القوة الناعمة كالولايات المتحدة بالرغم من إنجازها لمئات من معاهد "كونفوشيوس" حول العالم، لكي ترتقي بثقافتها المحلية، وسبب ذلك–حسب جوزيف ناي–يعود إلى أن الصين عجزت عن دمج القوة الصلبة مع القوة الناعمة، وهو ما استطاعت أن تحققه الولايات المتحدة بنجاح. فأمريكا تعيد تكوين نفسها بجذبها ألمع وأذكى الناس من بقية دول العالم، لتذيبهم في ثقافة إبداعية متنوعة، قد يكون عدد سكان الصين أكبر لكنها تجندهم من الداخل، هذا ما يجعل الثقافة المركزية الصينية أقل إبداعية من ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية العالمية. وما يؤكد رجاحة هذا الطرح هو ما ذهب إليه "روجي غارودي"، حينما اعتبر أن التفوق التقني والعسكري في كثير من الحالات عبر التاريخ، لم يكن ينطوي على تفوق الثقافة وعلى مشروع إنساني يحلم به المنتصرون، استنادا على هذا فإن الغزوات الكبرى التي قامت بها أوروبا في إفريقيا وآسيا لم تكن أقل هدما وتخريبا للقيم الثقافية العليا[2]. هذه المقاربة في موازين القوى الهادئة، يعني أن الصين من غير المرجح أن تصبح المنافس الند للولايات المتحدة على القاعدة الكونية، لكن لا يعني أنها لن تنافس الولايات المتحدة في آسيا، بيد أن صعودها

[1] زبيغنيو بريجنسكي: رؤية استراتيجية (أمريكا وأزمة السلطة العالمية)، مرجع سابق، ص 91.

[2] روجي غارودي: مرجع سابق، ص 157.

في آسيا لن يكون هادئا بل هو موضع نزاع مع الهند واليابان، اللتان تحالفتا مع الولايات المتحدة، وتحسن علاقتهما بأمريكا، مما يعني أنه في ظل سياسات القوى العظمى في المنطقة الآسيوية لا يمكن للصين أن تطرد أمريكا. وكما أن لكل قرن قوته وثورته الخاصة وكذا المدافع عنها أو المستفيد منها، الحضارة العالمية –حسب هينتنغتون–تحتاج إلى قوة عالمية فالقوة الرومانية صنعت حضارة قريبة من العالمية، داخل حدود العالم الكلاسيكي، والقوة الغربية متمثلة في الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر والهيمنة الأمريكية في القرن العشرين، نشرا الثقافة الغربية في معظم أنحاء العالم المعاصر[1].

تعد الأسس المعرفية والإيديولوجية للمركزية الحضارية –التي سبق وعرضنا لها بمختصر إبانة وتحليل –مؤشرا قويا إذ تتكشف من خلالها كيفية تحول عالم القوة العظمى الواحدة من العالم القديم إلى عالم اليوم، لما لها من أهمية بالغة في استشراف مستقبل العالم ما بعد المركزية الأمريكية المعاصرة. لينظر كم مرة في ثقل وعمق تساؤلات المركزية العالمية في ظل ما نعايشه من صراع وتداخل وتعقيدات كونية راهنية: فإلى أي مدى تستقر المركزية بأمريكا؟ وأي عالم يسعنا تمثله إن تبددت المركزية الأمريكية؟ رجاحة احتمال لا يقين يقرها المنطق والواقع، إذ حتى وإن كان صعود الصين حقيقي وتغير ملمح النظام العالمي القائم، وحتى وإن تمثلها في حضارتها الروح القوية المضادة لنموها أو لمخاطر تتهددها، وتلك مؤشرات استشرافية بالغة الرجحان والتأييد، ذلك أن طريقها في مطلع هذا القرن تبدو مرسومة بوضوح، مواصلة نموها الاقتصادي بلا هوادة شرقا وغربا، إلى جانب حرصها على صون تماسكها الاجتماعي والوطني، "فإن دورها المستقبلي كدولة كبرى سياسيا وعسكريا، تكتنفه شكوك خطيرة بالنسبة إليها وبالنسبة إلى جيرانها وإلى بقية العالم، إذ لا يزال هذا العملاق الآسيوي يمسك ببوصلة يمكن الوثوق بها تقريبا، إلا أنه يقترب بسرعة كبيرة من بقعة لن تعود آلته فيها بذات نفع"[2]. ولتوضيح ذلك المآل للهيمنة الصينية على العالم في المستقبل، نحاول تقييم إمكانية أن تحول الصين نظام القوة العظمى الواحدة الحالي إلى نظام آخر يختلف عن ذلك الذي أفرزته حرب أمريكا الباردة ضد الأيديولوجية الاشتراكية. إذ نرصد ثلاثة اختلافات رئيسية عن العهود السابقة التي تؤدي إلى إبطال القياس على التحولات التي طرأت على السلطة في التاريخ الكلاسيكي كما دونه "بول كينيدي" في كتابه (صعود وسقوط القوى العظمى). الأول وعلى عكس القوى الصاعدة السابقة، فإن الصين في مستوى تكنولوجي أدنى كثيراً من مستوى الدولة الرائدة. ثانيا، المسافة التي يتعين على الصين أن تقطعها، كبيرة بشكل غير عادي لأن حجم الميزة العسكرية

[1] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 151.

[2] أمين معلوف: مرجع سابق، ص 20.

للولايات المتحدة أكبر بكثير من الفجوات المماثلة التي شهدتها حقب سابقة. ثالثاً، لقد تغيرت طبيعة القوة ذاتها: ذلك أن المكانة التي جرى تحسينها إلى حد كبير في تحويل القدرة الاقتصادية إلى قدرة عسكرية يجعل التحول من قوة عظمى إلى قوة أعظم أصعب كثيراً الآن، مما كان عليه في الماضي أي في القرن العشرين[1]. وتأسيسا على تلك التحليلات لميزان القوى في عالم اليوم، فإننا نعتقد إن هذا الصراع الهادئ بين الولايات المتحدة والصين قد يحسم في حالة التعايش السلمي، وتتمكن من خلاله الدولتان من بناء نوع من الشراكة التنافسية يميزها غياب الصراع الإيديولوجي، إذ "تعمل كل منهما داخل مجال محدد يمكنها التأثير فيه في ظل مسؤولية مشتركة تهدف إلى حفظ الأمن والاستقرار العالمي. ففي ظل هيمنة الصين سوف تتوازن آسيا مع العالم الغربي في ظل هيمنة الولايات المتحدة، وسيتمكن الجميع من التعايش معا...كما سيكون لكل طرف تأثيره في النظام العالمي بحسب روبرت زوليك Rober Zoellickنائب وزير خارجية جورج بوش سنة 2007"[2].

[1] Stephen G. Brooks and William C. Wohlforth, Op Cit, P 9.

[2] نوح فلدمان: الحرب الهادئة (مستقبل التنافس العالمي)، تر هشام سمير، تكوين للدراسات والأبحاث، ط1، 2016، ص 65.

ثانيا: مستقبل العالم ما بعد المركزية الأمريكية، عالم يسير نحو اللامركزية:

قراءة مستقبل التفاعل الحضاري تُمثل مهمة رئيسية للفلسفة والفيلسوف في محاولة للاستفادة من دروس الماضي والتطلع إلى المستقبل والتأمل فيه، واستشراف أبعاده حتى تتلافى الإنسانية عيوب الماضي ونواقص الحاضر. ونحن بدورنا نسعى من خلال هذا البحث رصد واستشراف صورة النظام الحضاري الحالي الذي كانت الولايات المتحدة مركزه النابض الذي تدور في فلكه أمم وشعوب منفعلة. لهذا وجب التساؤل حول شكل النظام العالمي الذي سوف يترتب على تفكك المركزية الأمريكية المعاصرة، أو ما بعد المركزية الأمريكية وصيرورة الولايات المتحدة أمة بين أمم العالم. فكيف ينظم العالم نفسه في المستقبل؟

ما يشهده العالم راهنا من أزمات وتصادم للقوى الناعمة والصلبة، يُنبئ بأن العالم اليوم يسير نحو علاقات الندية بين القوى العظمى من جهة والقوى النامية من جهة أخرى؛ إذ لا نستطيع أن نتحدث عن مركز عالمي يؤثر بصفة منفردة في قرارات قوى كبرى موازية كروسيا والهند والصين والاتحاد الأوروبي...هذا إذا افترضنا أن أمريكا هي المركز. ونفس الشيء يُقال في حالة ما إذا اعتبرنا أن الصين هي المركز القادم. حقا لقد فلت العالم من النظام ونحن أمام حركة كبيرة في تغيُّر موازين القوى، إذ قد يكون المركز هذه وفي المستقبل، مجموعة من الدول وليس دولة واحدة، تتفق في بعض القضايا، كما قد تختلف في قضايا أخرى، مما يجعل مفهوم المركزية شكليا فقط، وكغيرها من القضايا الإنسانية فإن فكرة المركزية الحضارية تبقى فرضية نسبية بالنظر إلى طبيعة الدراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية ذات الطابع الكيفي والترجيحي، وستزول الدهشة أمام هذا الطرح إذا علمنا أنه حتى مفهوم التمركز في الظواهر الفيزيائية يبدو نسبيا، خاصة بعد نظرية كل من "اينشتاين"، "وهابل" حول حالة الكون الآخذة في التوسع نحو اللامحدودية في حجمه ومحيطه؛ محاولات من شأنها أن تقوض نظرية المركزية الطبيعية، التي ترجع الأبحاث فيها إلى نظرية كوبرنيكوس في الفلك، حيث استعان بها الفيلسوف الايطالي"جيوردانو برونو Giordano Bruno 1548- 1600" في الاعتراض على فكرة وجود أي موقع ذي امتياز، فالأرض شأنها في ذلك شأن أي عالَمٍ آخر، ليست مركزا للكون، ولا توجد نقاط في الفضاء تشكل أقطابا معرّفة ومحدِّدة لأرضنا، تماما كما أنها لا تشكل قطبا معرَّفا ومحددا لأية نقطة أخرى من السماء أو من فضاء العالم...ولا تمثل الأرض وحدها مركزا للكون، بل إن أية نقطة فيزيقية قد تمثل مركزا للكون، ففكرة المركز نفسها ليس لها معنى إلا بالقياس إلى موقع خاص للنظر إليه[1]. يعني أن

[1] تزيفتان تودوروف: فتح أمريكا ومسألة الآخر، مرجع سابق، ص 204.

المركز والمحيط فكرتان نسبيتان، شأنهما في ذلك شأن فكرتيّ الحضارة والبربرية، بل ليس في الكون مركزٌ ولا محيط، وإنما الكل مركزي، كما يمكن للمرء اعتبار كل نقطة جزءا من المحيط بالقياس إلى نقطة أخرى مركزية.

هذا الاستهلال، يجعل التكهن بمركز ثقل عالمي من الغرب إلى الشرق أو من أوروبا إلى آسيا، بل حتى من أمريكا إلى الصين تحديا صعبا، ذلك أن النظام العالمي الجديد الحالي والمستقبلي يأبى أن يكون متمركزا حول دولة أو أمة واحدة. إننا نلاحظ بأن العالم يسير نحو اللَّانظام ونحو اللَّامركزية، وكل ما يلوح في الأفق هو وجود تحولات في ميزان القوى العالمية؛ واحدة تصعد وقوى تنهار وأخرى تتوحد وتتكتل... تلك هي ملامح القرن الواحد والعشرين وما بعده، أو ما بعد الجائحة. "عموما، لم يعد مفهوم المركز واردا كما كان معتادا من قبل، إذ كانت الحضارات السابقة تتشكل حول مدينة ما، أو حول المدن التي تميزها بشكل حيوي عن الظروف البدوية من حولها. بل حتى حضارات أكثر حداثة كانت المدينة الحالية غير المطوقة بأسوار، محورية بالنسبة إلى وجودها[1]. وراهن الحياة في قرننا الحالي أضحت فيه الثقافات المحلية منفتحة آخذة في التوسع والشيوع، إنها اللامركزية حيث لا سيادة للمركز بل أضحت منتشرة على نطاق عالمي خارج أسوار المدينة، فصعب تمييز المحور من الأطراف؛ فجاز لنا الحديث عن لا مركزية عالمية قادمة.

أما بالنسبة إلى المركزية الأمريكية المعاصرة، خصوصا بعد خروج أمريكا من أفغانستان بعد حرب دامت أكثر من 10 سنوات، فقد أبان عن بداية توجه جديد في السياسة العالمية، إذ بات من الضروري لها الاهتمام بالكتلة الداخلية وتحقيق التوازن بين جميع أطراف المجتمع والثروات القومية، بدل الذهاب خارج الحدود والبحث عن المجد. إن أمريكا اليوم تسعى إلى ترتيب البيت من الداخل، لإعادة التموقع والتواجد في الخارج؛ ومستقبلها في عالم اللَّانظام يرهن مكانتها العالمية التي ستكون في العقود القادمة متوقفة على توظيفها الناجح لجهودٍ مدروسة تستهدف التغلب على انزلاقها إلى نوع من الإهمال الاجتماعي، والاقتصادي...؛ إن برجنسكي لم ييأس من مستقبل أمريكا، بل يراه موجودا بأيدي الشعب الأمريكي، وهي حسب آماله قادرة على الارتقاء بوضعها الداخلي وعلى إعادة تحديد دورها الدولي المركزي بالتناغم مع ظروف القرن الواحد والعشرين الموضوعية والذاتية[2]. غير أن البارز في النظام الدولي الراهن، وما يحطم أحلام "برجنسكي": هو تفكك عناصر القوة وانتشارها ما بين العديد من الفعاليات الدولية. لأن التحولات الجذرية أدت إلى حركة ثورية داخل النظام الدولي الرأسمالي، ولعل أبرز تجلياتها نتمثله من مباشرة التحولات في مركز

[1] بروس مازليش: مرجع سابق، ص 135.

[2] زبيغنيو بريجنسكي: رؤية استراتيجية (أمريكا وأزمة السلطة العالمية)، مرجع سابق، ص 141.

العلاقات الدولية من مركزها الأطلسي إلى مركزها الباسيفيكي وهو ما ترتب عليه آثار سلبية على مركز الولايات المتحدة في سلم القوى الكبرى حسب "مودلسكي"، إذ يفترض النظام أحادي القطبية تحكم دولة واحدة في 50% من إمكانيات النظام العالمي، والولايات المتحدة لا تتوفر حاليا على هذه النسبة المرتفعة، أما النظام الثنائي القطبية،- أي الوضع الدولي القائم- يفترض قوتين تمتلكان 25 % من إمكانيات النظام الدولي لكل منهما، وهذا يعني أن النظام الدولي يتحرك بشكل واضح نحو نظام متعدد الأقطاب مما سيفقد الولايات المتحدة مركزها في الصدارة، وهو القلق الذي تتمتع به منذ انهيار الاتحاد السوفيتي. وفي مقاربته حول الهيمنة الأمريكية في كتابه هل انتهى القرن الأمريكي؟ ينفي "جوزيف ناي" وجود هيمنة أمريكية، ويسميها تفوق أمريكي، من أدلة ذلك ذكر صعود الاتحاد السوفيتي كموازن للقوة واستحواذه على بعض السياسات في العالم مثل كوبا. فبعد عام 1945 تفوقت الولايات المتحدة في موارد القوة الاقتصادية لهذا يُفضل استخدام مصطلح الصدارة Primacyأو التفوق Preeminenceعلى صعيد حصة البلد غير المكافئة للأنماط الثلاثة من موارد القوة، وهي الاقتصادية والعسكرية والسياسية، لكن في البعدين العسكري والسياسي للقوة لم تكن هناك هيمنة، بل كان العالم ثنائي القطب، وكان الاتحاد السوفيتي يعادل الولايات المتحدة في القوة ولم تظهر أحادية القطب إلا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام 1991[1]. وحتى بعد هذا التاريخ فقد قدّم النظام العالمي الأمريكي الرخاء الاقتصادي لأجزاء كثيرة من العالم فقط، وهم الأعضاء فيه، أما دول مثل الهند، الصين واندونيسيا، والكونغو، وإيران، وغواتيمالا والشيلي...لم تكن ضمن هذا النظام وهو ما يجعلها هيمنة جزئية أو نصف هيمنة. لهذا يلاحظ كيسنجر أن النظام العالمي الأمريكي كان في الواقع أقل من نصف العالم، لأن أكبر الدول في العالم لم تكن عضو فيه كالصين والهند واندونيسيا والكتلة السوفيتية، وعسكريا لم تكن الولايات المتحدة هي المهيمنة، أما من جهة الفاعلية الإنمائية للاقتصاد الأمريكي، ففعليا استطاعت المؤسسات الليبرالية التحكم في الاقتصاد العالمي، لكن بنصف العالم فقط...ومن ثمة فالأرجح أن نقول نصف هيمنة[2].

أما بالنسبة إلى الصين فقد ذكرنا سابقا، أنه ليس لها مطامح للتمركز وقيادة العالم، بل تسعى فقط إلى تحقيق تفوق اقتصادي وتوسيع مناطق النفوذ التجارية، باقتحام الأسواق الأوروبية وإيجاد مستهلكين جدد للبضاعة الصينية، ورفع ميزانها التجاري، وعلى الرغم من جميع التنبؤات حول تفوق الصين أو الهند أو البرازيل على الولايات المتحدة

[1] جوزيف ناي: هل انتهى القرن الأمريكي؟ مرجع سابق، ص 18

[2] المرجع نفسه، ص 16

الأمريكية في العقود المقبلة، فقد يأتي التهديد الأكبر من مصادر أخرى، ليست دولا في الأساس؛ أو ما يسميه "جوزيف ناي"(همج العصر الحديث) ويقصد به أطراف فاعلين يتحكمون في السياسة العالمية من غير الدول. على اعتبار أن عالم الألفية الحالية يقوم على المعلومات ولهذا قد يكون انتشار القوة على نطاق واسع أخطر من انتقالها من مركز إلى آخر؛ فالفائز بقيادة العالم في النهاية ربما لن يكون دولة محددة بل هو الطرف الأكثر فاعلية، كصاحب الرواية المثلى للواقع، لأن هذا القرن يتسم بثورة فتية في تكنولوجيا المعلومات والعولمة، إذ أن لكل عصر خطابه وسلطته على حد تعبير "ميشال فوكو"، وخطاب القرن الواحد والعشرين هو التقنية والمعلوماتية؛ ويحذر "جوزيف ناي" من تشبيه ضعف وتفسخ الحضارات، بمرحلة الاضمحلال العضوي للكائن الحي -كما ذهب إلى ذلك شبنجلر- ويعتبرها مقاربة مضللة، فالأمم ليست بشرا لهم أعمار يمكن التنبؤ بها. وقد ظلت روما على سيطرتها أكثر من ثلاثة قرون بعد بلوغها أوج قوتها، وحتى بعدئذ لم تخضع لصعود دولة أخرى[1]. هذا هو تصور "جوزيف ناي" لمستقبل العالم، أين شبّه تمركز وتموضع القوة في النظام العالمي بلعبة الشطرنج مجزأة إلى ثلاثة مستويات: العليا وهي القوة العسكرية أحادية القطب تمثلها الولايات المتحدة. والوسطى تمثله القوى الاقتصادية أو اللاعبون الرئيسيون: الولايات المتحدة، أوروبا، اليابان، والصين. أما الرقعة السفلى فهي تشمل أطراف فاعلين في موازين القوة لكنهم ليسوا دولا (هيئات، اتحادات، تجار الأسلحة...) وهو مستوى لا يمكن إخضاعه والسيطرة عليه؛ يقول عنه جوزيف ناي: *"على هذه الرقعة السفلى نجد القوة منتشرة على نطاق واسع ومن غير المعقول أن نتحدث عن الأحادية القطبية أو تعدد القطبية أو السيطرة"*[2].

يؤكد التاريخ مرة أخرى أن لكل قرن قوته وثورته الخاصة، وكذا المدافع عنها أو المستفيد منها، ولهذا فإن الحضارة العالمية كانت دوما تحتاج إلى قوة عالمية، فالقوة الرومانية قديما صنعت حضارة قريبة من العالمية داخل حدود العالم الكلاسيكي، والقوة الغربية مجسدة في الاستعمار الأوروبي إبان القرن التاسع عشر والهيمنة الأمريكية في القرن العشرين نشرا معًا الثقافة الغربية في معظم أنحاء العالم المعاصر. لكن اليوم وفي ظل دينامية التاريخ فإن الاستعمار الأوروبي قد انتهى، والهيمنة الأمريكية تنحسر، ويتبع ذلك تآكل في الحضارة الغربية، أين تهب الأعراف العميقة الجذور واللغات والمعتقدات والمؤسسات الأصلية لتؤكد نفسها. وتتنامى القوة للمجتمعات غير الغربية الناتجة عن التحديث، هذا ما أدى إلى إحياء الثقافات غير الغربية في أنحاء العالم[3]. وفق هذا التحليل، يتشكل في أطروحة صدام

[1] جوزيف ناي، هيلاري كلينتون وآخرون: مستقبل القوة الأمريكية، مرجع سابق، ص ص 7-8.

[2] المرجع نفسه، ص 8.

[3] صامويل هنتنغتون: مرجع سابق، ص 151.

الحضارات ما يعرف بالحضارة العالمية التي تصنعها قوة عالمية نتيجة تكتلات القوى واصطفافها إلى جانب بعضها البعض. إذ أنه بعد الأزمة الاقتصادية والاجتماعية في عام 2008م، وفي ظل الصعود الاقتصادي المستمر للصين، يرى بعض الخبراء السياسيون والمحللون الحكوميون أن الولايات المتحدة قد انهارت من مركزها المهيمن وأن تحولاً أساسياً في تغيير النظام بعيداً عن أحادية القطبية يحدث؛ وتُتَداول عبارات اللّانظام سواء قالوا أن الأحادية القطبية تنتهي، أو انتهت أو ستنتهي قريبا. وسيعود معها النظام الحضاري إلى التعددية القطبية أو ثنائية القطبية أو عدم القطبية[1]. فنظام المركزية الحضارية الذي تشكل بعد انهيار الاتحاد السوفييتي مهدد باللّانظام؛ والسبب يرجع حسب "تشومسكي"، إلى الاختلال الكبير في ميزان القوة العسكرية بين الدول العظمى، حيث ارتفعت إنفاقات أمريكا العسكرية سنة 2020م إلى 778 مليار دولار، وإنفاقات الصين وصلت إلى 252 مليار دولار وفقا لبيانات معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام SIPRI الذي يتعقب تلك الصفقات. أما روسيا فقد حلت رابعا بإنفاق 62 مليار بعد الهند التي جاءت في المركز الثالث. هذه الإحصاءات تدل على تنامي القوة العسكرية في مناطق متعددة من العالم، وأمريكا لم تبق الوحيدة التي تحوز القوة والتكنولوجيا العسكرية، كما أن هذه الإنفاقات تهدد الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي الداخلي الذي يعد من أهم عوامل الهيمنة الخارجية، وأمريكا اليوم هي الوحيدة التي لا تواجه أية مخاطر أو تهديدات أمنية محتملة، باستثناء التهديدات المزعومة لقواعدها البالغ 800 قاعدة حول العالم. غير أنها الأكثر إنفاقا على تجهيز جيوشها. فالانهيار الاقتصادي هو الخطر الحقيقي الذي يتهددها، على عكس الصين أما التي لديها قاعدة أجنبية واحدة فقط في جيبوتي[2].

لقد انتهت الحرب الباردة وانتهى معها الاتحاد السوفيتي، لكن بعد عقدين من التاريخ هل سينتهي التاريخ؟ وهل سيظل النظام أحادي القطب قائما؟ نجيب لا لم ينته! فروسيا اليوم تستعيد عافيتها والصين تنافس على المركز الأول عالميا في شتى الميادين. على عكس أمريكا التي نراها اليوم تصارع لأجل البقاء معتلية صدارة النظام الحضاري العالمي، أما المجتمع الدولي المعاصر يتجه نحو فرض تحديات جديدة تختلف عن أنماط البناء التنظيمي الذي انبثق مع نهاية الحرب الباردة. وما يحمله مستقبل العالم هو أن بعض الكيانات ستبقى دولة واحدة في مركزها مثل القطب الروسي، ويمكن أن ينطبق ذات الخطاب عن اليابان، صحيح أنها صغيرة على الخريطة ولكن إنتاجها الصناعي يساوي إنتاج الولايات المتحدة، ويمكنها إن شاءت أن تبني في غضون خمس عشرة سنة قوة عسكرية من التكنولوجيا تعادل أو

[1] Stephen G. Brooks and William C. Wohlforth, Op Cit, p 7.

[2] Noam Chomsky : On the cruelty of American imperialism, The Economist magazine, London, 24-09-2021, https://www.economist.com/

تفوق قوة أمريكا. وفي الأجل الطويل جدا ستنضم الصين إلى هذه المجموعة. ومن ناحية أخرى، فإن أوروبا عبارة عن مجموعة من الدول، وفي صميمها زوج قيادي ألماني فرنسي، ولكن مستوى قوتهما الحقيقية سوف يتوقف على المشاركة البريطانية فيها. ويبدو أن أميركا الجنوبية مقدر لها أن تنظم نفسها تحت قيادة برازيلية[1].

هذه التحولات العالمية تؤكد شيئا فشيئا، أن النظام العالمي الجديد لازال مبهما أو قل اسما بدون محتوى، والمعركة القادمة سوف تعطيه محتواه، وهذا المحتوى يتوقف على كل إنسان، أي على دور الشعوب في تحديد نموذج النظام القادم، لأن موقفنا جميعا سوف يحدد كيف سيكون النظام العالمي، ومن ثمة أهدافه ووسائله؛ وهو أمر يتوقف على وعي الشعوب. –وهذا تحذيرنا للشعوب والأمم الهامشية–، حتى لا يكون تفسخ النظام الأمريكي لصالح نظام آخر لا يقل عنه جبروتا وطغيانا. لقد آن الأوان لأن تُفصح الشعوب عن تطلعاتها درئا لآلامها وبؤسها، من أجل نظام أكثر عدالة وحرية ومساواة وحوار حضارات وثقافات الإنسان، وتشكيل مؤسسات دولية ديمقراطية حقا تكفل الأمن والأمان واحترام القانون الدولي والاستقرار من أجل ازدهار الإنسان[2]. هكذا تشكل تعددية الإنسان على المستوى الثقافي، كما على المستوى الوراثي شرطا لبقائه، ومن يدري ما إذا كانت الثقافات التي يجري اليوم إنكارها والهزء بها، لن تكون غدا –بحكم خصوصيته ذاتها–الأكثر قدرة على أن تواجه تحديات التاريخ المحيل على المركزية؟ والواقع أن تفريغ التراث الثقافي للبشرية، والذي يعد الغرب مسؤولا عن تغييبه إلى حد بعيد، سوف يؤدي إلى خسارة هائلة للثروة المعرفية، ولا يمكن أن يكون الاختلاف الثقافي خطرا على الحضارة العالمية الواحدة (كما روَّج له الغرب)، بل يمكن أن يتكيف مع مستوى هام لحضارة عالمية أصلية. لهذا نؤكد أن التعددية الثقافية هي التي تضمن بقاء الشعوب واستمرارها، ومن ثمة فإن ظهور نظام حضاري لا مركزي بعد تزحزح أمريكا عن مركز ثقله، يجد مبرره ودلائل استمراره في التنوع والتعدد الثقافي والحضاري بدل الواحدية في القيادة والتوجيه. فيُستحال معه الحل الذي دعا إليه مؤرخو المركزيات لضمان السلم العالمي وهو هيمنة مركز واحد للنظام العالمي في كل حقبة تؤول فيه غالبية سكان العالم إلى أن تكون جزءا من الأطراف، حل مرفوض؛ لأن من إفرازات عالم ما بعد الحداثة، ومنطلقاته تنوع وتعدد الثقافات والقيم وتعدد أطرافه التي تأبى أن تتجمع حول مركز ثقل وحيد، فيسود عناصره الحوار والعيش المشترك *"إذ يتخلق في هذا العالم أو ما بعد الكولونيالية حوار بين الشمال والجنوب وبين كل الأطراف في عالم لامركزية فيه، ليأخذ كل طرف*

[1] Emmanuel Todd : Après L'Empire (Essai sur la décomposition du système américain), Gallimard, Paris, 1er édition, 2002, P 226.

[2] ايمانويل تود: مرجع سابق، ص 31.

مكانا له تحت الشمس وليس في ظلال هيمنة آخر والتبعية له...فالتعددية الثقافية تقتضي تفهُّم الاختلافات وقبول الآخر، نُشدانا لعالم أكثر عدلا وأكثر إنسانية وأكثر خصوبة وثراء" [1].

خلاصة:

صحيح أنه لم تكن أي دولة تتمتع بما تملكه الولايات المتحدة اليوم من قوة اقتصادية وثقافية وعسكرية. ولكن كما بات واضحا تماما من خلال التحولات العالمية التي وقعت في السياسة الدولية، وكذا الأزمات المتتالية والتهديدات المتواصلة من خصومها (الصين وروسيا وكوريا الشمالية وإيران)، فإن هذه القوة ليست كافية لوحدها لحل المشاكل العالمية مثل الإرهاب وتدهور البيئة، وانتشار أسلحة الدمار الشامل والأسلحة البيولوجية...، من دون إشراك دول أخرى. لهذا فإنه لا جدوى من مُساءلة وتقويض فكرة الآخر المهيمن، لأن الجميع شركاء في عالم متعدد بأفكاره وأيديولوجياته. ثمة وعي كامن في الأنا مثل ما للآخر آخذ بناصية النمو والتقدم، ولم لا التمركز بعد طول أمد استعباد. ثمة فقط ننزع نحن إلى تحقيق النهوض والتمركز بامتلاك المقومات العلمية والمعرفية اللازمة. والوعي بأهمية الدراسات الابستيمولوجية وقدرتها على فهم واقع الإنسان، كما فُهم الواقع الطبيعي، إن نقد وتحليل وتفكيك موقع الغرب السيادي وسلطته على العالم، كفيل بالذات لكي تلتف حول ذاتها وممارسة التقويم والتصحيح العملي الحقيقي، بدل الغوص في عالم الشك اللانهائي في مدى إمكانية قيام حضارة خارج حدودنا الجغرافية وهويتنا الثقافية؟ أَمَا آن الأوان إلى البناء والتجسيد لأجل إيجاد سبل تبادل الأدوار والمراكز، إن الحقيقة الثابتة الوحيدة هي تغير الأدوار، فقد يصبح المركز هامشا والهامش مركزا في يوم ما، ونحن نضيف أن جميع الشعوب ودولها دون استثناء، تمتلك في ذاتها أسس التمركز، وتستطيع أن تغدو مركزا عالميا، بما فيها شعوب البلدان الهامشية، لأن المركزية ليست صفة وراثية مرتبطة بجينات الأمة، كما حاولت الأنا الغربية أن ترسخ هذا الاعتقاد في نفوس الآخرين.

[1] أوما ناريان وساندرا هاردنغ: نقض مركزية المركز(ج1)، تر يمنى طريف الخولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، 2012، ص 09.

خاتمــة

خاتمـة:

إن التحليل الفلسفي العميق لموضوع المركزية الأمريكية قد أبان عن عدة نتائج يمكن الاسترشاد بها في سبيل البحث عن الأسس والقواعد التي تتقاطع فيها جل النظم المركزية بصفة عامة والمركزيات الحضارية بصفة خاصة؛ أبرزها أن:

مصطلح "المركزية" أو ما سماه بريجنسكي القوة العالمية، يحيل إلى معنى القوة، وحضاريا فإنه يشير إلى الحضارات الكبرى في العالم القديم، مثل الصين والرومان والمغول والحضارة الإسلامية والغربية الكلاسيكية، من خلال القراءة التاريخية لتشكل هذا المفهوم، يتسم "المركز" عموما بقوة جاذبة وطاقة كهرومغناطيسية تصنع حقلا مغناطيسيا يجذب كل الهوامش والأطراف الأقل منها وقعا، وثقلا وأكثر منها خمولا وخمودا، كما أن المركز في هذه النظم يكون ذو كتلة وإشعاع أقوى من الهامش، الأمر الذي يقتضي استمرارية الحياتين البيئية والإنسانية في تحقيق التوازن بين المركز والهامش في بنية كل نظام. وإذا كان النظام الطبيعي الكمي خاضع لقوى طبيعية ثابتة نسبيا، تمتلك سلطة على مكوناتها، فإننا نقر حتمية وجود مركز عالمي ذو طابع كوني، يتحكم في العلاقات الاستراتيجية بين أطراف ويضمن التوازن للعالم، وأمريكا منذ نهاية القرن العشرين هي من تتبوأ ذلك المركز اليوم وتمثل نقطة الثقل والقوة الجاذبة فيه.

إن فلسفة الهيمنة الأمريكية تقوم على توجيه المفاهيم والمبادئ الجديدة المنبثقة عن النزعة البراغماتية، لتحرير الفهم الإنساني من النمطية التقليدية للفكر، وإذا كان العقل هو الصانع للثورة وإدراك الخلاص من العقبات والزلات، فإن العقل المعرفي كما ناشده بيكون، هو فقط الذي يمتلك القدرة على محاورة ومجاراة الطبيعة الفيزيائية في حركاتها وسكناتها وفي استكانة نظامها أو في تكشُّف قوانينها، وهو ما حاولنا تحقيقه في موضوع الأسس الابستيمولوجية للمركزية الأمريكية، آخذين في الاعتبار أن هذه الغاية توجد مقترنة بغاية أسمى منها وهي توفير المعايير العقلية والمادية التي تجعل من هذا الفرض قابلا للتفسير العلمي ومتحققا فعلا. هذا ما يدفعنا إلى القول، أن تفسير المركزية الحضارية وبالخصوص المركزية الأمريكية، قد يصدق عليه التفسير العلمي لمفهوم المركز والهامش والتوابع، وأن النظام الفيزيقي الذي جعل من الشمس مركزا كونيا، ومن النواة مركزا ماديا، فإنه قابلا للمحاكاة علميا داخل الأنساق الحضارية التي ما فتئ يصنعها الإنسان. والمركزية الأمريكية المعاصرة قد احتلت مركز ثقل العالم، وقطبه الذي تتناظر حوله باقي الدول، قد يُفهم علميا، ويرد إلى أسباب فيزيقية، موضوعية، جعلته يحتل تلك المكانة بين الأمم.

خاتمة:

إن النظام الإنساني والمعرفي ما فتئ يتغير مع الزمن، وبالتالي فإننا لا نستطيع ربط جلّ تلك القوانين بشكل دقيق، مع ما يقابلها في الصورة الظاهرة للفعل المشابه من الظواهر الإنسانية الراهنة، فقد تنقلب الأدوار ويتراجع المركز عن دوره الريادي فاسحا المجال للهامش المكتسب لتلك القدرات والقوى التي قد تؤهله لأن يخلف المركز في مكانه فيصير المركز هامشا، ويصير الهامش مركزا، وهنا نستحضر منطق الجدل الهيجلي، بما هو منطق ديناميكي متحول، دافعا إلى صيرورة الكون والإنسان المتسمة بالحرية والاختيار، فلا حتمية مطلقة على المكون الحضاري الإنساني؛ وحينئذ لا يمكن لهاته القواعد الكمومية المستخلصة من النظام الطبيعي، أن تصدق على تشكيل المركزيات الحضارية القديمة، والحديثة، بصورة ثابتة، على اعتبار أن تلك النظم عرفت عبر التاريخ شكلا من تلك القوانين الناظمة، والرابطة لعلاقة المركز الحضاري بباقي الشعوب والأقوام، إلا أننا نستطيع أن نكشف أسس صعودها ومن ثمة أسباب تراجعها وانهيارها أو انشطارها.

إن العالم اليوم يشدّ بصره صوب السياسات الصينية الداخلية والخارجية وما تتميز به من انفتاح أكبر على العالم، ومحاولة الاستفادة من تجارب الماضي، يحدث ذلك منذ بدايات القرن الحالي، صوب الصين في تحركاتها الجديدة، لإثبات وجودها الفاعل في مقابل استحواذ الولايات المتحدة على قلب الحضارة الغربية، ونفوذها على العالم، ومن أهم الخطوات الإصلاحية التي باشرتها الصين: إلغاء العمل بنظام المزارع الشعبية؛ وإعطاء أغلب الأراضي للفلاحين؛ وفتح المجال للقطاع الخاص للاستثمار؛ وكذا فتح المجال للشركات الأجنبية للاستثمار في الصين. وهي تسعى اليوم إلى امتلاك التكنولوجيا، وتطوير الإعلام والاتصالات، وتمكنها من آخر تحديثات البرامج والهواتف الذكية، والتسابق نحو إطلاق أكبر شبكة للأنترنيت في العالم بتقنية الجيل الخامس، وهو صراع محتدم بين عملاقين رقميين في العالم اليوم، هما الصين والولايات المتحدة. كما لا تزال جهود روسيا متواصلة لتطوير تقنيات صناعة الأسلحة الثقيلة، وتحسين دقتها وفعاليتها واستعادة أمجاد الاتحاد السوفيتي، وكما لا نغفل عن رغبة تركيا في لم شتات الإمبراطورية العثمانية بتوسيع تدخلاتها على مستوى العالم الإسلامي لتوحيد الصفوف واستعادة الثقة ومناطق النفوذ القديمة.

وإجمالا يسعنا الإقرار أن المركزية الأمريكية واقعة مؤسسة على إيديولوجيات وماديات معًا، ولا يمكن الفصل بين المقومين (المادي والأيديولوجي) إذ يمثل الأساس الإيديولوجي، الدافع والمحرك للعمل، والحرية، والابتكار والتوسع؛ وهذا ما زرعته البروتستانتية الإصلاحية في الفرد الأمريكي، إضافة إلى غرس شعور نابض بالتفوق والرقي، والتميز عن باقي الأعراق في العالم، هذه الدوافع النظرية تحرك العقل البرجوازي نحو مزيد من الكسب والتفوق.

فدفع أمريكا إلى تطوير صناعاتها العسكرية، والفضائية، والمعلوماتية؛ واحتلت بذلك مرتبة السبق في سلم العديد من الصناعات والمعاملات. لذلك فإننا نرى أن السعي لتفكيك تلك المركزية يتطلب التدقيق في المعتقدات الإيديولوجية والثقافية، التي شأنها أن تؤسس لمشروع المركزية الحضارية. وتأثيراتها الديناميكية على مستويات التنمية والتطور لدى باقي الأمم والشعوب، فتعد من أبرز وأقوى المقومات تدفع إلى العمل من أجل الهيمنة، فلا ريب أنها ابلغ تأثيرا من الأسس المادية التجارية والاقتصادية والعسكرية.

وبالنظر إلى هذه المخرجات فإننا نقول أنه بإمكان العالم أن يشكل رؤية جديدة للنظام العالمي الذي وضعته أمريكا، تأسيسا على مواطن التوافق الإيديولوجية من جهة، والمصلحة من جهة أخرى، وهو نظام عالمي جديد متعدد الأقطاب، لا وجود فيه لمركز وهامش. وهذا ما يرمي إليه محور الشرق (الصين وروسيا والهند وإيران والجزائر)؛ لكن هذا المشروع نحو اللامركزية، لابد له من سنين أخرى حتى يكتمل، ما لم يتمكن من تطوير ورفع معدلاته الاقتصادية والصناعية والتكنولوجية، ليتفوق حسابيا على المركز الحالي (أمريكا)، وأن يتحرر من النظم والقواعد الدولية المبنية على واحدية المركز والنموذج، وإلا فإن مشروعا لخلافة أمريكا في مركز العالم سيفشل بالتأكيد؛ وهنا وجب التمييز بين من يملك تلك القوى والقدرات وبين من لا يملكها أصلا، فالمعطى الرباني الإسلامي مثلا ومبادئه الأخلاقية، كفيلة بأن تكون مركز قوة للبلدان الإسلامية، ونحن قد أبرزنا دور الأساس الديني في تشكيل وعي التمركز، والتفوق، والهيمنة، في المركزيات الأمريكية المعاصرة، أو الأوروبية الحديثة، أو الرومانية الكلاسيكية وغيرها. إلا أنه لا يكفي وحده لتبوء تلك المكانة. تلك هي قاعدة الدور التاريخي. وبما أن التاريخ يكتبه المنتصرون، فإنهم يريدون على الدوام البرهان على أن سيطرتهم كانت ضرورة تاريخية، أي أنها كانت تنتج بالضرورة عن تفوق ثقافتهم وحضارتهم؛ وكما يبررون أن الهيمنة ضرورة فالاستعباد ضرورة أيضا، غير أننا بيَّنا زيف هذا الطرح ومحدوديته لهذا ندعو مرة أخرى إلى التحرر الباطني والنفسي، من سلطة الفكر الغربي وإيديولوجيته الأنانية، خاصة إذا عرفنا أن اهتمام الغرب اليوم بالمستقبل أكثر من اهتمامه بالحاضر ينم عن تهاوي قدراته وخوفه الداخلي من فقدان مركز القيادة والنظام الحضاري. وستتجه أمريكا إلى التعايش مع نظام عالمي متعدد الأقطاب إذا ألزمتها معدلاتها الاقتصادية ذلك، وبهذا فقط يمكن تفكيك المركزية الأمريكية واستحالة استمرار إمبراطورية أمريكا، لأن التغير سمة العالم الثابتة.

ولا مناص من القول أن تقييم مستقبل القوة الأمريكية مسألة خلافية ينقصها الكثير من اليقين لذلك تبقى مثار جدال بين الباحثين. ولا ريب أن مسألة توقع مستقبل مركز العالم تبقى غامضة كذلك، خاصة عندما نتمثل تعقيدات المركزية الحضارية وتشعب مضامينها، فقد لا نجد أجوبة واضحة تفسر راهن العالم وقضاياه المعقدة إلى حد

خاتمة:

الساعة، إلّا أن البارز هو أن العقل الأمريكي ظلت تسيطر عليه حكايات بطولية للآباء المؤسسين، الذين بنوا آلة التنوير التي شقت طريقها إلى القرن الحادي والعشرين. كما أن العديد من الأفكار التي تأسست عليها الولايات المتحدة نشأت في أوروبا، غير أن الأميركيين حولوا هذه الأفكار إلى شيء لم يخطط له الفلاسفة والحالمون الأوروبيون أو يتنبأوا بها- بما في ذلك الفصل بين الكنيسة والدولة- وتظل النتيجة الأكثر أهمية هي أن "دستور الولايات المتحدة"، يمثل مساهمة أمريكا الأكثر جاذبية في تاريخ الفكر السياسي الحديث والمعاصر، لأن هذه الوثيقة بمثابة محاولة جادة لترجمة أفكار التنوير إلى واقع يومي، وقد ظل هذا كفاحاً مستمراً على مدار تاريخ الولايات المتحدة بالكامل، وهذا جانب من الأسس الإيديولوجية للهيمنة الامريكية.

يتوجب لدينا التأكيد على أن فكرة "الاستثنائية" أو القول بأن هناك ظروفا فريدة تحيط بميلاد أمة ما، لها انعكاسان على شعبها الأول سلبي، -نتمثله خاصة إذا ما كانت الأمة تمتلك مقومات القوة العالمية-لأنها سوف تسعى إلى تحقيق مصالحها الذاتية على حساب الأمم الأدنى منها درجة، وهو ما حرك النزعات الكولونيالية في العصر الحديث. أما الثاني فقد يكون له انعكاسات ايجابية، إذا ما قللت من ذلك الادعاء أو الوهم-لاعتبارات أخلاقية أو لرغبة حقيقية في تحقيق العدل في العالم-إن القوة الأميركية، إذا ما استخدمت بحكمة، قد تكون مفيدة بالنسبة للأميركيين وللعالم معا.لهذا فإن النموذج الأمريكي اليوم، معرّض للتفكك، مادام لازال يؤمن باستثنائيته، فبعد أن صمدت أمريكا أمام اختبار الزمن لمدة قرنين من الزمان، لا يمكن لأحد أن يجزم بأنها ستصمد لقرن آخر في مركز العالم. وكنظرة استشرافية، فإننا نقول بأن العالم نفسه يتجه نحو اللّانظام والفوضى، خاصة مع الانخفاض الكبير في مستويات المعيشة، وارتفاع معدلات الجريمة، وسيكون اكتظاظ الشديد في السكان مع بلوغ عدد سكان العالم الثمانية مليار نسمة هذه السنة، ما يؤدي إلى تضاؤل أو حتى نفاذ الموارد الطبيعية، وسيؤدي إلى انهيار كبير في اقتصاديات الدول وقدراتها الطبيعية. إذ تعالت أصوات في السنوات الأخيرة، تؤكد أنه لا توجد موارد كافية سواء في أمريكا أو في العالم، لانتشال نسبة كبيرة من الفقراء، من براثن الفقر وإبقائهم في بلدانهم. لأن قدرة الأرض على إنتاج الغذاء تتضاءل كل يوم، هذا ما سيؤدي إلى اختلال التوازن الديمغرافي والاقتصادي بين الأنا الغربية المتقدمة، والآخر الجنوبي المتأخر، وهو اختلال آيل لا محال لتغيير النظام الدولي الحالي الذي أسسته أمريكا نهاية القرن العشرين.

قائمــة المصادر

والمراجـع

قائمة المصادر والمراجع

الكتب

❖ باللغة العربية

1) أ .م. بيرو: غزو الجزائر(أو حكاية حملة إفريقيا)، ترجمة ليلى بن عرعار، تقديم محمد الأمين بلغيث، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2014 .
2) أبكر آدم إسماعيل: جدلية المركز والهامش قراءة جديدة في دفاتر الصراع في السودان، د م، د ط
3) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، دط، 1975
4) أرنست فولف: صندوق النقد الدولي (قوة عظمى في الساحة العالمية)، تر عدنان عباس علي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، 2016
5) أسوالد اشبنجلر: تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج1، دط، دس
6) أفلاطون: محاورة بارمينيدس، تر حبيب الشاروني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2002
7) ألفين توفلر: حضارة الموجة الثالثة، ترجمة عصام الشيخ قاسم، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، بنغازي، ط1، 1990
8) أليكسيس دوتوكفيل: الديمقراطية في أمريكا، ترجمة أمين مرسي قنديل، عالم الكتب، القاهرة، ج1و2، دط، دس
9) إمام عبد الفتاح إمام: الأخلاق والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، دط، 2002
10) أمين معلوف: اختلال العالم، تر ميشال كرم، دار الفارابي، بيروت-لبنان، ط1، 2009
11) أندرو هارتمان: حرب من أجل روح أمريكا (تاريخ الحروب الثقافية)، تر عمار جمال، دار كتب خان للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2017
12) أوليفييه اسلانجيه: مقدمة في علم الفلك، ترجمة طارق كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2017.
13) أوما ناريان وساندرا هاردنغ: نقض مركزية المركز (الفلسفة من أجل عالم متعدد الثقافات)، تر يمنى طريف الخولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون (عالم المعرفة)، الكويت، ج1، 2012
14) برتراند راسل: السلطة والفرد، تر شاهر الحمود، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1961.
15) بروس مازليش: الحضارة ومضامينها، ترجمة عبد النور خراقي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2014

16) بشير عبد الفتاح: أزمة الهيمنة الأمريكية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، ط1، 2010
17) بهلول نسيم وآخرون: التطرف الديني (رؤية دينية أمنية وسياسية)، أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2014
18) بول كندي: نشوء وسقوط القوى العظمى، ترجمة مالك البديري، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط3، 2007
19) بيتر جي كاتزنشتاين: الحضارات في السياسة العالمية، ترجمة فاضل جتكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2012
20) بيل أشكروفت وآخرون: دراسات ما بعد الكولونيالية، ترجمة أحمد الروبي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، ط8، 2005
21) تزيفتان تودوروف: فتح أمريكا ومسألة الآخر، تر بشير السباعي، دار سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1992
22) تزيفيتان تودوروف: الخوف من البرابرة (ما وراء صدام الحضارات)، ترجمة ماجد جبور، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية، ط1، 2009
23) تزيفيتان تودوروف: اللّانظام العالمي الجديد (تأملات مواطن أوروبي)، تر محمد ميلاد، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2006
24) تشارلز موريس: رواد الفلسفة الأمريكية، ترجمة إبراهيم مصطفى إبراهيم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط1، 1996
25) تشالمرز جونسون: أحزان الإمبراطورية، تر صلاح عويس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2011
26) توماس كون: بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة 168، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1992
27) جاك دريدا: في علم الكتابة، تر أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2008
28) جان نيفين بيترس: العولمة والثقافة المزيج الكوني، ترجمة خالد كسروى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2015.
29) جورج لوكاتش: تحطيم العقل(ج4)، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1982
30) جوزيف ناي: القوة الناعمة، ترجمة محمد توفيق البجيرمي، مكتبة الكعيبان، الرياض، ط1، 2007
31) جوزيف ناي: هل انتهى القرن الأمريكي؟، تر محمد إبراهيم العبد الله، الكعيبان للنشر، الرياض، ط1، 2016
32) جوزيف ناي، هيلاري كلينتون وآخرون: مستقبل القوة الأمريكية، مجلة دراسات عالمية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ط1، 2012

33) جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر عادل زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2011

34) جون جوردون: قوة القيادة الايجابية، تر ماهر محروس، المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة، ط1، 2020

35) جون ديوي: الحرية والثقافة، ترجمة أمين مرسي قنديل، مطبعة التحرير، د م، دط

36) جون ستروك: البنيوية وما بعدها، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1996

37) جون ستيل جوردون: إمبراطورية الثروة (تاريخ ملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكي)، ترجمة محمد مجد الدين باكير، المجلس الوطني للثقافة (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، 2005

38) جوناثان كول: جامعات عظيمة (قصة تفوق الجامعات الأمريكية)، تر ناصر الحجيلان، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، ط1، 2016

39) جيروم كوشلين وآخرون: تزيفتان تودوروف (تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية)، تر محمد الجرطي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، 2014

40) جيل فيريول: معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة محمد الأسعد، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2011

41) حسام الدين إبراهيم عثمان: موسوعة دول العالم، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2012

42) حميد دباشي: هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟، تر عماد الأحمد، منشورات المتوسط، ميلانو-ايطاليا، ط1، 2016

43) خالد أحمد علي محمود: اقتصاد المعرفة وإدارة الأزمات المالية، دار الفكر الجامعي، الاسكندرية، ط1، 2019.

44) خالد حوران الدليمي: ثيودور روزفلت وسياسة الولايات المتحدة الأمريكية(1901-1909)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2014

45) دانيال بورشتاين وأرنيه دي كيزا: التنين الأكبر (الصين في القرن 21)، تر شوقي جلال، المجلس الوطني الثقافة والفنون، الكويت، 2001

46) دانيال هارفي وجون بول ويلام: سوسيولوجيا الدين، ترجمة درويش الحلوجي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005

47) رائد العزاوي: أمريكا والإسلام والإرهاب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2009

48) رضوان محمود المجالي: الوجيز في النظام الاقتصادي (دراسة في العلاقات الاقتصادية الدولية) دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2021

49) رمزي محمود: خدعة الديون، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، ط1، 2019
50) روبرت أ. باستور: رحلة قرن (كيف شكلت القوى العظمى بنية النظام الدولي الجديد)، تر هاشم احمد محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010
51) روجي غارودي: حوار الحضارات، تر عادل العوا، دار عويدات للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999
52) روجيه غارودي: الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، تر صيّاح وميشيل خوري، دار عطية للنشر، بيروت، ط2، 1999
53) ريمون بولان: الأخلاق والسياسة، تر عادل العوا، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، ط2، 1992
54) رينيه تاتون: تاريخ العلوم العام (العلم الحديث من سنة 1450 إلى سنة 1800)، تر علي مقلد، مج 2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1993
55) زبيغنيو بريجنسكي: رقعة الشطرنج الكبرى، ترجمة أمل الشرقي، مركز الدراسات العسكرية، ط2، 1999،
56) زبيغنيو بريجنسكي: الاختيار (السيطرة على العالم أم قيادة العالم؟)، ترجمة عمر الأيوبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2004
57) زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1982
58) سالي نبيل الشعراوي: العلاقات الصينية الأمريكية وأثر التحول في النظام الدولي، العربي للنشر والتوزيع، ط1، 2018
59) سائر بصمه جي: الابتكار الناجح (كيف تبتكر وتستثمر ابتكارك بطريقة عملية)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2016.
60) سعد الدين الشاذلي، الحرب الصليبية الثامنة، دار الحكمة، الجزائر(ج3) 1993، ص 298.
61) سمير أمين: ما بعد الرأسمالية المتهالكة، تر فهمية شرف الدين وسناء أبو شقرا، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2003
62) سهيل الحبيب: العلمانية من سالب الدين إلى موجب الدولة (راهنية مشروع بشارة عربيا)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2019
63) سيرج لاتوش: تغريب العالم، ترجمة خليل كلفت، دار العالم الثالث، القاهرة، ط1، 1992
64) سيف الهرموزي: مقتربات القوة الذكية الأمريكية كآلية من آليات التغيير الدولي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2016
65) شادي فقيه: من يحكم أمريكا (آليات صنع القرار)، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دط، 2006
66) شوقي جلال: العقل الأمريكي يفكر (من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات)، مكتبة مدبولي، دط، 2000

67) صامويل هنتنغتون: صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي)، ترجمة طلعت الشايب، مكتبة سطور، ط2، 1999

68) عاطف أحمد: النزعة الإنسانية في الفكر العربي (دراسات في النزعة الإنسانية للفكر العربي الوسيط)، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، القاهرة، د ط، 1999

69) عبد الرحمان ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار الشعب، القاهرة، 1950

70) عبد الرحمان بدوي: الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1982

71) عبد الرزاق الدواي: موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر (هيدجر، ستراوس، فوكو)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1992

72) عبد العزيز عثمان التويجري: الثقافة العربية والثقافات الأخرى، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة(ايسيسكو)، ط2 ، 2015

73) عبد الفتاح مصطفى غنيمة: نحو فلسفة العلوم الطبيعية، د م، د ط

74) عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية (إشكالية التكون والتمركز حول الذات)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1997.

75) عبد المنعم عبد الوهاب: جغرافيا العلاقات السياسية (دراسة تحليلية وتطبيقية لعلم الجيوبوليتكس)، وكالة المطبوعات، الكويت، دط، دس.

76) عبد الوهاب المسيري وعزيز العظمة: العلمانية تحت المجهر، دار الفكر، دمشق، ط 1، 2000.

77) علي عبد الجليل علي: الحرب على العراق (رؤية توراتية يهودية)، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2004

78) علي عبود المحمداوي وآخرون: فلسفة التاريخ (جدل البداية والنهاية والعود الدائم)، دار الروافد الثقافية، بيروت، ط1، 2012

79) عماد عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 2016.

80) غوستاف لوبون: فلسفة التاريخ، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، مصر، دط، 1954

81) غوستاف لوبون، السنن النفسية لتطور الأمم، ترجمة عادل زعيتر، دار هنداوي، القاهرة، ط1، 2014.

82) فرانتز فانون: معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط 2، 2015

83) فرديناند دي سوسير: علم اللغة العام، تر يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، د ط، 1985

84) فيكتور بولمر توماس: إمبراطورية في حالة تراجع (الو.م.أ بين الماضي والحاضر والمستقبل)، تر توفيق سخان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2022

85) كريستيان دو لا كامباني: الفلسفة السياسية اليوم، ترجمة نبيل سعد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 2003

86) كلود ليفي شتراوس: العرق والتاريخ، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، دط، دس،

87) كولن مويزر: الإمبرياليون الجدد إيديولوجيا الإمبريالية، تر معين الإمام، مكتبة الكعيبان، الرياض، ط1، 2008

88) كولن ويلسونوجون جرانت: فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة فؤاد كامل، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1992

89) ليون ليدرمان،كريستوفر هيل: التناظر والكون الجميل، ترجمة نضال شمعون، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009

90) ماثيو هارت: الذهب (التنافس على أكثر معادن العالم إغراء)، تر محمد مجد الدين باكير، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، 2018

91) ماكس فيبر: الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، تر محمد علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت–لبنان، د ط، د س.

92) ماكس فيبر: مقالات في سوسيولوجيا الدين (الثقافة البروتستانتية)، تر منير الفندري، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2015

93) ماكس هوركهايمر: بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية، تر محمد علي اليوسفي، دار الفارابي، بيروت، د ط، 2006

94) مالك بن نبي: مشكلات الحضارة (وجهة العالم الإسلامي)، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط1، 1987

95) مايكل دينينغ: الثقافة في عصر العوالم الثلاثة، ترجمة أسامة الغزولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2013

96) مايكل هاردت وانطونيو نيغري: الإمبراطورية (إمبراطورية العولمة الجديدة)، تر فاضل جتكر، مكتبة الكعيبان، الرياض، ط1، 2002

97) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط 8، 2005

98) محسن حساني ظاهر: توسيع حلف الناتو بعد الحرب الباردة، دار الجنان للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2013

99) محمد شريف الاسكندراني: تكنولوجيا النانو (من أجل غد أفضل)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، 2010

100) محمود عبد الفضيل، النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، 1979

101) مسعود الخوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية (المناطق، الدول، البلدان)، دار رواد النهضة للطباعة والنشر والتوزيع، مج13، 1994

102) مصطفى النشار: ما بعد العولمة (قراءة في مستقبل التفاعل الحضاري وموقعنا منه)، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2003،

103) مصطفى ناصف: الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسة عالم المعرفة)، الكويت، د ط، 1978

104) المكتبة الوطنية بالصين: على طريق الحرير (تاريخ التجارة بين الصين والعالم القديم)، تر مروة السيد، مكتبة صفصافة للنشر، د ط، 2019

105) منير شفيق: في الحداثة والخطاب الحداثي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999

106) ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صفدي، سالم يافوت وآخرون، مركز الإنماء القومي، لبنان، د ط، 1990.

107) نوح فلدمان: الحرب الهادئة (مستقبل التنافس العالمي)، تر هشام سمير، تكوين للدراسات والأبحاث، ط1، 2016

108) نيكولا ميكيافيلي: مطارحات ميكيافيلي، تر خيري حماد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1982

109) هانز هيرمان هوبا: الديمقراطية الإله الذي فشل، الديمقراطية الإله الذي فشل، تر إيمان معروف، منشورات تكوين، الكويت، ط1، 2019

110) هنري كيسنجر: النظام العالمي (تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ)، تر فاضل جتكر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2015

111) هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ (العقل في التاريخ)، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 2007

112) هيرفريد مونكلر: الإمبراطوريات منطق الهيمنة العالمية من روما القديمة إلى الو.م.أ، تر عدنان عباس علي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ط1، 2008

113) وائل محمد إسماعيل: الإمبراطورية الأخيرة (أفكار حول الهيمنة الأمريكية)، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2016،

114) وليام شالر: مذكرات وليام شالر، ترجمة إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982

115) ويليام تي فولمان: وداعا نظرية مركزية الأرض، ترجمة أسامة فاروق حسن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، 2015

116) يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2000

117) يورغ سورنسن: إعادة النظر في النظام الدولي الجديد، تر أسامة الغزولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، 2020

❖ **باللغة الأجنبية:**

118) Andrew Kirk : The Future of Reason Science and Faith(following modernity and post-modernity), Ash Gate e-Book, England, 2007

119) Anne Norton: Leo Strauss and the politics of American Empire ,Yale University press, London, 2004

120) Bernard Hours et Monique Selim : Anthropologie politique de la globalisation, L'Harmattan, paris, 2010

121) Charles F. Gritzner : The United States of America, Chelsea House Publishers, New York, 2008

122) Dave Dean Capucao: Religion and Ethnocentrism An Empirical-theological Study, Library of Congress Cataloging-in-Publication Data, LEIDEN - BOSTON, 2010.

123) Donald R kinder & Cindy D kam: us against them Ethnocentric Foundations of American Opinion, the University of Chicago press, Chicago and London, 2012.

124) Douglas r.Anderson: philosophy Americana, Fordham university press, new York, first edition, 2006

125) Emmanuel Todd: Après L'Empire (Essai sur la décomposition du système américain), Gallimard, Paris, 1er édition, 2002

126) Francis Bacon : Novum Organum, Nouvelle Traduction en Français, Par Loriquet, Librairie de L'Hachette et Cie, Paris, 1857.

127) Francis Fukuyama: Political Order and Political Decay, from the industrial revolution to the globalization of democracy, Farrar-Straus and Giroux, New York

128) Gustave Aimard : La Loi de Lynch, édition du groupe Ebookes libres, 2008

129) Halford J.Mackinder : Democratic Ideals And Reality, national defense university press, Washington,1942

130) Jocelyne Couture, Stéphane Courtois : Regards philosophiques sur la Mondialisation, presses de l'université du Québec, 2005

131) Martin Jack : When China Rules the World (the End of the Western World and the Birth of a New Global Order), The Penguin Press, New York,1 published, 2009

132) Michael H. Hunt :The American ascendancy : how the United States gained and wielded global dominance, The University of North Carolina Press, USA, 2007

133) Michael Northcott: An Angel Directs the Storm (Apocalyptic Religion and American Empire), I.B. Tauris, New York, 1st published, 2004

134) Michael S. Rozeff : EASSYS ON AMERICAN EMPIRE(Liberty vs. Domination), East Amherts, 2009

135) Monte L. Pearson: Perils of Empire(The Roman Republic and The American Republic),Algora Publishing, New York, 2008

136) Niall Ferguson : Colossus(The rise and fall of the American empire), Penguin books, USA, 2004

137) Samir Amine: Eurocentrism , trans Russell Moore & James membrez, Sven Beckert, Julia B. Rosenbaum : The American Bourgeoisie (Distinction and Identity in the Nineteenth Century), PublisherPalgrave Macmillan, New York, 2010

المعاجم والموسوعات:

❖ باللغة العربية

138) إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي (مجمع اللغة العربية)، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، دط، 1983

139) أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 5، دط، دس

140) أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت–باريس، المجلد1، ط2، 2001.

141) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت–لبنان، ج2، دط، 1982.

142) سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، دط، 2014

❖ **باللغة الأجنبية**

143) Dictionnaire de l'académie française, éditions eBooksFrance, 5 édition, 1798,

144) H.W.Fowler: A dictionary of Modern English usage, revised by sir Ernest Gowers, Oxford Univ press, 2ed rdition, 1965.

المجلات

❖ **باللغة العربية**

145) نزار نجيب حميد: الذريعة في الفلسفة البراغماتية وانعكاساتها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن 21، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد 14، المجلد 7، 2013

❖ **باللغة الأجنبية**

146) Aude-Emmanuelle Fleurant, Yves Bélanger : L'industrie de défense américaine en redéfinition, revu Géo économie, Vol 2, n° 57, 2011

147) Christophe Lecuyer Hyungsub choi, Les secrets de la Silicon Valley ou les entreprises américaines de microélectronique face à l'incertitude technique, Revue d'histoire moderne & contemporaine, Vol 3, n° 59, 2012

148) James w. Ceaser : The Origins and Character of American Exceptionalism, American Political Thought: A Journal of Ideas, Institutions, and Culture, vol. 1 (Spring 2012)

149) monthly review press, new York , 2009, 5eme edition

150) Stephen G. Brooks and William C. Wohlforth: The Rise and Fall of the Great Powers in the Twenty-first Century, International Security,

Harvard College and the Massachusetts Institute of Technology, Vol. 40, No. 3, 2016

151) Taesuh Cha : American Exceptionalism at theCrossroads, Three Responses, Political Studies Review, Vol 13, 2015

152) Johannes Thimm : American Exceptionalism(Conceptual Thoughts and Empirical Evidence), Paper for the conference of the junior research group "International Politics" of the DVPW, 13th/14th of July Darmstadt, Stiftung Wissenschaft und Politik, Berlin

المواقع الالكترونية:

❖ باللغة العربية

153) بهاء الخزعلي: حرب الفضاء وكذبة الصاروخ الصيني التائه، 25 مايو 2021، *https://tisri.org/ar*

154) فلاديمير سوغرين: الجذور الدينية والفكرية لعقيدة الهيمنة الأمريكية العالمية ***Pax American***، حوار لقناة ***RT*** بالعربية، 2017/06/21.

❖ باللغة الأجنبية

155) Henri Gibier : Frederick Terman, le père caché de la Silicon Valley, Publié le 7 juil2014, à 9:22, https://www.lesechos.fr

156) Maxence Fabrion : La Chine et la difficile conquête du marché mondial des semi-conducteurs, Publié le 09/05/22, à 18h22, https://www.lesnumeriques.com

157) Noam Chomsky: On the cruelty of American imperialism, The Economist magazine, London, 24-09-2021, https://www.economist.com/.

الفهرس

الفهرس

المحتويات	الصفحة
المـــــقـــدمـــــة	6
الفصل الأول: مفهوم المركز ومستوياته، مدخل مفاهيمي	
تقديم:	20
المبحث الأول: التعريف اللّغوي للمركز والهامش	21
1-المركز والمركزي	21
1-الهامش والهامشي	25
المبحث الثاني: مجالات وصور المركزية	26
أولا: التمركز وقوانينه في الفلك والفيزياء	26
1- المركزية في الفلك	26
2-المركزية في الفيزياء	34
ثانيا-المركزية من منظور أنثروبولوجي	40
1-المركزية الإثنية	40
2-التمركز الثقافي، وهيمنة الثقافة الغربية	46
ثالثا: مركزية الكوجيتو من الإنسان إلى العقل	53
1-مركزية الإنسان في الكون	53
2 -مركزية العقل في الإنسان	57
استنتاج	61
الفصل الثاني: فرضية المركزية الأمريكية المعاصرة	
تقديم	63
المبحث الأول: فرضية المركزية الحضارية في مقابل مفاهيم الحضارة والإمبراطورية	64
1-فرضية المركزية الحضارية، وشروط تحققها	64

2-فرضية التمركز الحضاري في مفهوم الحضارة عند ابن خلدون	68
المبحث الثاني: حضارة أم حضارات، سجال في المركزية	70
1-المفهوم الغربي للحضارة وانبثاق المركزية الأمريكية	70
2-المركزية الحضارية من منظور هيجل	74
3-المركزية الحضارية من داخل صدام الحضارات	76
المبحث الثالث: خصائص المركز الحضاري وأسسه المادية والايديولوجية	80
أولا: خصائص مركز النظام الحضاري	80
ثانيا: أسس التمركز الحضاري المادية والايديولوجية	82
1- العرق واستعداداته الفطرية	82
2-المعتقد الديني	84
3-النظم السياسية والسلطة	85
المبحث الرابع: المركزية الغربية الحديثة والمعاصرة	88
أولا: دلالات المفهوم، مركزية أوروبية أم غربية	88
ثانيا: المركزية الأمريكية البدايات والتأسيس	95
2- الهوية الأمريكية، من الأمة الاستثنائية إلى المركزية العالمية	95
3- تأسيس المركزية من أيديولوجية الهيمنة إلى قيادة العالم	99
خلاصة	106
الفصل الثالث: أسس المركزية الأمريكية المعاصرة	
تقديم	108
المبحث الأول: الأسس الفلسفية للهيمنة الأمريكية	109
1-فلسفة جون لوك السياسية	110
1-الواقعية والليبرالية الجديدة	112
2-المذهب الذرائعي (البراغماتية) ومنطق العلم والعمل	114
3- إيديولوجية النزعة الفردية، الحرية وحقوق الإنسان	117

المبحث الثاني: الأسس الدينية والفكرية للمركزية الأمريكية	119
1-الإصلاح الديني والبروتستانتية البيوريتانية (التطهيرية)	119
2-التنوع العرقي والثروة البشرية	124
3-ذريعة السِلم العالمي	128
المبحث الثالث: الأسس العلمية للمركزية الأمريكية المعاصرة	131
أولا: جغرافيا الولايات المتحدة وثرواتها	131
ثانيا: النظام المالي الجديد	136
1- اتفاقية بريتون وودز، الدولار عملة العالم	136
2- صندوق النقد الدولي	137
ثالثا: مؤسسات الابتكار والتكنولوجيا	140
1-الرقائق الالكترونية	140
2-المجمع الصناعي المدني (واد السيليكون):	143
رابعا: الصناعة العسكرية	145
1-المجمع الصناعي العسكري الأمريكي	145
2-الصناعة الفضائية	148
3-الأحلاف العسكرية، حلف الناتو	149
خامسا: البحث العلمي والجامعات الأمريكية	150
المبحث الرابع: مظاهر الهيمنة الأمريكية	153
1- هيمنة الإيديولوجيا السياسية	154
2- القدرة الاقتصادية الأمريكية	160
3- الهيمنة الثقافية	161
الخلاصة	166
الفصل الرابع: انعكاسات ومستقبل المركزية الأمريكية على العالم	

تقديم:	168
المبحث الأول: انعكاسات المركزية الأمريكية على العالم	168
أولا: الرؤية الأمريكية للعالم	168
ثانيا: الكنيسة الإنجيلية الجديدة	171
ثالثا: البرجوازية الأمريكية ورؤيتها للتاريخ	175
المبحث الثاني: مستقبل المركزية الحضارية في العالم	178
أولا: نقد مركزية المركز الحضاري	178
ثانيا-أسباب تأزم وتفكك المركزية الأمريكية	180
1-الأزمة الاقتصادية وتأثيراتها العسكرية	183
2-الأزمة الأكسيولوجية	186
3-مأزق الديمقراطية	188
4-الأزمة الاجتماعية والعرقية	190
المبحث الثالث: احتمالات نشوء مركز حضاري جديد	192
أولا: هل ستشكل الصين المركز الجديد؟	192
ثانيا: مستقبل العالم ما بعد المركزية الأمريكية، عالم يسير نحو اللامركزية	199
خلاصة	205
الخـاتمـــة	208
قائمة المصادر والمراجع	214
فهرس الموضوعات	266

العنوان: الأسس المعرفية للمركزية الأمريكية المعاصر

الملخص:

إن فكرة المركزية بكل حمولاتها المعرفية تتضمن دلالة مفهومية، تضع الباحث في سجال مع ذاته، في إطار فلسفة الحوار والتواصل بين المركز والهامش، ليعاد تشكيل استراتيجيات الفعل الدينامي (الصراعي) بين المتقابلين، وقد اعتمد هذا التأسيس على عوامل عدة منها: الاستعمارية، والعرقية، والثقافية، والجغرافية...وغيرها. وأمّا ما يقع خارج ذلك الفلك فهو يقف عند هامش أو حافة الثقافة والحضارة.

وإذا كان الباحثون والمفكرون يجمعون على أن أمريكا تربعت على عرش حضارة القرن العشرين. من حيث هي بنية حضارية لها سماتها وقيمها الخاصة بها، وبذلك تختلف عن غيرها من النماذج الحضارية للدول المتقدمة، اعتبارا لتفردها بثراء وتنوع أصولها، وتطورها التاريخي، وكذا دافعية النزوع الإيماني العقدي وإيديولوجية متميزة. ثم إن منطق الخطاب الحضاري لمركزية أميركا له جذور موغلة في التاريخ، برزت حتى قبل ولادة الولايات المتحدة كدولة قومية. منذ ذلك الحين كانت هذه المقولة (المركزية الأمريكية) تصنع حضورا فاعلا في الحقل السياسي والاقتصادي العالمي، وهو ما تجسد في سياسة أمريكا، واستراتيجياتها في قيادة العالم. فهي أمة استثنائية قبل أن تكون مركزية.

وإذا كان جميعنا يعرف أن المركزية الأمريكية قامت على أسس معرفية وفلسفية من قبيل المذهب الذرائعي، الذي انتشر وذاع صيته في أمريكا مع بداية القرن العشرين، وكان بحق أحد أهم العلامات الفلسفية المميزة للمجتمع الأمريكي. إلا أن قلة قليلة، من يعرف أن هذا الأساس لم يكن ليشكل القاعدة المركزية الوحيدة لقيام المركز الحضاري الأمريكي، لأن ثمة أسسا أخرى سلكتها المركزية الأمريكية في هيمنتها وسيطرتها، إذ لم تكن تحظى بمعرفة كلية، بالرغم من شيوع الفكر المركزي الأمريكي في معظم بيئات العالم. فالمركزية الأمريكية المعاصرة تنطوي على أسس علمية، وأخرى إيديولوجية دينية، وعرقية، وتوجهات اقتصادية تحررية، ساهمت في ميلاد الاستثنائية الأمريكية، كما كان لحضور النزعة الفردية وتأثير فلسفة جون لوك الطبيعية دافعا ديناميا آخر يضاف إلى حضور الأفكار الذرائعية التي طبعت إيديولوجية الهيمنة الأمريكية بطابع القوة والاستعلاء؛ والانفراد بالسيادة على العالم؛ فأمريكا بالإضافة إلى قوتها العسكرية والاقتصادية المادية، كانت تحركها وتسكن بين ثناياها مرتكزات نظرية عديدة. هاهنا يتحدد مقصدنا من القراءة التفكيكية والتحليلية، التي ننزع من خلالها إلى تقصي أبرز العوامل والأسباب وكذا المرجعيات والأصول التي انبثقت من خلالها منظومة المرتكزات الابستيمية المحددة لمنطق الأمركة السيادية.

الكلمات المفتاحية: أسس معرفية، معاصرة، مركزية، حضارة عالمية، هيمنة أمريكية.

Title: theory Foundations of American Centralism

Summary:

The idea of centralization with all its cognitive campaigns includes a conceptual connotation, which places the researcher in a debate with himself, within the framework of the philosophy of dialog and communication between the pivotal and the external, in order to restructure the strategies of dynamic (conflict) action between the two sides. This foundation was based on several factors, including: colonialism, ethnicity, culture and geography...and more. What lies outside that ark stands at the margin or edge of culture, sovereignty and civilization.

So researchers agree that America was brought up in the pyramid of 20th-century civilization. It is a cultural structure with its own characteristics and values, and as such differs from other civilized models of the developed countries, taking into account the richness and diversity of its origins, its historical evolution, as well as the motive for ideological tendency and a distinct ideology. The logic of the civilizational discourse of America's centralism has deep roots in history, which emerged even before the US was born as a nation-state. Since then, this quote (American Central) has been making an active presence in the global political and economic field, which is embodied in America's policy and strategy in leading the world. It's an exceptional nation before it's centralized.

And if we all know that American centralism was founded on cognitive and philosophical foundations, such as pragmatism, which became popular in America at the beginning of the 20th century, and was truly one of the most important philosophical markers of American society. However, very few people know that this foundation would not have been the only central base for the establishment of the American Center of Civilization, because there are other foundations that the American Central Command exercised in its domination and control, as they did not have full knowledge, despite the prevalence of American Central Thought in most of the world's environments. Contemporary American centralism encompasses religious and ethnic ideology and liberal economic orientations, which contributed to the birth of American exceptionalism. The presence of individualism and the influence of John Locke's natural philosophy were another dynamic, added to the presence of the instrumental ideas that shaped the ideology of American hegemony with power and superiority; sovereignty over the world; America, in addition to its physical military and economic power, was animated and inhabited by many theoretical foundations. Here is where our purpose is determined by analytical and analytical reading, through which we tend to investigate the most prominent factors and causes, as well as the references and origins through which the system of simplistic pillars defining the logic of sovereign America emerged.

keywords: Cultural, contemporary, centralization, global civilization, American hegemony.

Titre: Les fondements cognitifs de la centralisation américaine contemporaine

Résumé:

L'idée de centraliser tous ses efforts cognitifs est conceptuellement logique, et dans le cadre de l'évolution de la philosophie du dialogue et de la communication axiomatique et externe, le chercheur s'est positionné avec lui-même pour refaçonner les stratégies de l'action dynamique (conflit) entre les belligérants, en s'appuyant notamment sur : colonialisme, étnico, cultural, geográfico...Et ainsi de suite. Ce qui se situe au-delà de cette sphère est une position marginale dans la culture, le pouvoir et la civilisation.

Si les chercheurs et les intellectuels s'accordent pour dire que l'Amérique a été à la base de la civilisation du XXe siècle. C'est une structure culturelle qui possède ses propres caractéristiques et valeurs, et donc se distingue des autres modèles civilisationnels des pays développés, étant donné la richesse et la diversité de leurs origines, leur évolution historique, ainsi que la motivation de la foi religieuse et idéologique distincte. La logique de la rhétorique civilisationnelle du centralisme américain a des racines historiques qui sont apparues avant même la naissance des États-Unis en tant qu'État-nation. Depuis lors, cette formule du Centre américain s'est concrétisée en présence active dans le domaine de la politique et de l'économie mondiales, comme en témoignent la politique et la stratégie des États-Unis en matière de leadership mondial. C'est une nation exceptionnelle avant d'être centrale.

Et si nous savons que le centre des États-Unis a été fondé sur des bases cognitives et philosophiques telles que l'archétype, qui s'est répandu aux États-Unis au début du XXeme siècle, et a été vraiment l'un des signes philosophiques les plus importants de la société américaine. Toutefois, peu de gens savent que cette base n'aurait pas été la seule base centrale de l'établissement du Center for American Urban Center, car il existe d'autres fondements de la domination et du contrôle de l'Amérique centrale qui n'ont pas été complètement connus, même si la pensée centrale américaine est répandue dans la plupart des régions du monde. L'American Central Center d'aujourd'hui est une idéologie religieuse, ethnique et économique libérale qui a contribué à la naissance de l'Exceptionnalisme américain, et la présence de l'individualisme et de l'influence de la philosophie naturelle de John Locke a donné un nouvel élan dynamique à la présence des idées doctrinales qui ont caractérisé l'idéologie de la domination américaine par la force et la supériorité; souveraineté exclusive sur le monde; En plus de sa force militaire et économique matérielle, l'Amérique a été mobilisée, et elle a été à l'origine de nombreux fondements théoriques. C'est là que se trouve notre intention de procéder à une lecture et à une analyse doctrinales, qui nous permet d'analyser les facteurs, les causes, les références et les actifs les plus évidents à travers lesquels le système des bastions autoritaires a émergé de la logique de la souveraineté.

Mots-clés: Fondements cognitifs, contemporains, centraux, civilisation cosmopolite, hégémonie américaine